

بجلا ف ما سبق

رواية

عزت القمحاوي

الدار المصرية اللبنانية

بخلاف ما سبق

رواية

بـخلاف ما سبق: رواية / عزت القمحاوي . - ط2. -

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2025.

416 ص؛ 20 سم.

تدمك: 6 - 509 - 795 - 977 - 978

1- القصص العربية.

أ- العنوان. 813

رقم الإيداع: 2024/ 31916

©

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.

تليفون: 202 23910250 +

فاكس: 202 23909618 + - ص. ب 2022

E-mail: info@almasriah.com

www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى - الطبعة الثانية: 2025م

تصميم الغلاف الفنان: عمرو الكفراوي

تعبير الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف

وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء الدار

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز، بأي صورة من الصور، التوصيل،

المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو

تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو

إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

بخلاف ما سبق

رواية

عزت القمحاوي:

الدار المصرية اللبنانية

كان شتاء.

وكانت الشمس تُشرق واهنة دون أن تبدد ظلام الشقة، ثم تمضي إلى حيث تغرب، وتترك لليل زاده من الخوف.

وكان سامي يعقوب قد أكمل شهرين وعشرة أيام من العزلة دُونها يوماً يوماً على الجدار، منذ أن عاد خائفاً من إمبابة صباح عيد ميلاده في التاسع من أكتوبر، واختبأ في شقته بجاردن سيتي، يرهف أذنه لصوت إغلاق باب المصعد أو وقع أقدام على السلم. تعذبه سارينة شرطة في الشارع أو نباح كلب على غريب. ثم بدأ يسمع طرقاً على باب الشقة قرب الفجر؛ فينكمش على نفسه، وينضح العرق البارد من ظهره. وبعد أن يتوقف الطرق لا يسمع وقع خطوات انصراف الطارق، بل حفيفاً خفيفاً كأنه صوت الريح على البلاط.

ليلة بعد ليلة، أصبح الأمر تعذيباً. استجمع شجاعته ونهض. رأى عبر عين الباب طيفاً لشخص ينسحب بخطوات بطيئة، يكاد لا يمس الأرض كأنه يمشي في حلم. قيّد الباب بسلسلة الأمان وزيقه ووقف يسترق النظر إلى الطيف الذي صار عند عطفة السلم.

كأنه أحس بنظرات سامي في ظهره. توقف واستدار، دون أن يرجع الخطى التي كان قد مشاها. تحت الضوء الضعيف تبين لسامي أنه مجرد غلام يرتدي ثوباً فلاحياً أزرق باهتاً، ويعتمر طاقية صغيرة باللون الجملي. وسمع بالكاد صوته:

- أنت سامي يعقوب، صح؟

- نعم.

- أعرف. لكنني لم أجد طريقة أخرى لبدء الكلام. اذهب لتتسلم بستانك.

- أي بستان؟!

- بستان جدك سالم باشا في تل المساخيط، على مشارف مدينة سراب.

لهجة الصبي استرضائية وهيئته مسالمة. حرر سامي الباب من السلسلة ووسّع فتحته، ودعاه إلى الدخول. همّ الصبي بالاستجابة وخطا خطوة، ثم توقف وقال معتذراً:

- لا، لن أستطيع.

وأشار إلى الشبّاك الصغير ذي الزجاج الملون فوق سلم العمارة، وهمس:

- الصبح على وشك الطلوع. لقد أبلغتك الرسالة.

- وكيف سأعرف المكان؟

- عند بنزينة الأبطال اسأل عن سرايا أم الغلام أو السرايا البيضاء، وستجد من يدلك.

ألقى بجملته الأخيرة على عجل، واستدار مرة أخرى، آخذاً بالنزول. من ظهره بدا جلبابه بالياً، بمزق في الطوق تحت القفا. وتراءى لسامي دم يدفق من جرح في ذلك الموضع، لكنه لا يسيل على الجلباب، بل يتذبذب في مكانه، لا يفيض ولا يغيض. واصل الصبي نزوله وتلاشى شيئاً فشيئاً.

أغلق سامي الباب، وأشعل كل أنوار الصالة، ليتأكد أنه مستيقظ وأن ما حدث للتو لم يكن حلمًا. حاول استعادة وجه الصبي. لم يفلح في استحضار شيء من ملامحه سوى تلك الطيبة الباعثة على الاطمئنان، ونافورة الدم التي تبكك في قفاه.

أخذ يفكر بالصبي والرسالة. لا يكاد يستقر على شاطئ فكرة حتى تطيح بها موجة من الهواجس. بدأ نور النهار يضغط على النور الصناعي ويحاصره، بينما يتمدد بداخله الفضول بشأن بستان منسي للأسرة على مشارف مدينة منسية. نهض وأزاح طبقة الستارة الثقيلة قليلاً، فرشحت الشمس من تلك الثغرة. تمدد على الكنبه مستلذاً مداعبة الأشعة الوليدة لبشرته. غلب دفء الشمس خوفه وفضوله؛ فأخذته غفوة رأى فيها أباه واقفاً بالقرب من رأسه، يهتف به:
لا يا سامي، لا.

استيقظ، دون أن يفهم المقصود بهذا النهي المتلهف. كانت ملامح صبري يعقوب عاتبة مثلما رآه في أحلام خاطفة أخرى خلال هذه الفترة. لم يكن يتكلم، وكان سامي يفهم من صمته أنه عاتب عليه بسبب ذعره الذي جعله يغلق الشقة على نفسه. لكنه الآن لم يفهم هذه الـ «لا» الحاسمة. هل يحتاج عليه لأن خوفه تجاوز الحد؟ أم على العكس، يحذره من الذهاب إلى سراب؟

لم يعرف أبوك الخوف في حياته، فلماذا تراه سيحذرك؟!!

كرر على نفسه مراراً عبارات الصبي التي وصف بها الطريق إلى البستان. وفي لمح خاطف رأى حمامة بيضاء راقدة في عش بين أغصان شجرة، ثم أخذت الصورة تتسع فبدت الحمامة زورقاً يهتز داخل موج من الخضرة، دقق أكثر فكان الأبيض بيتاً تتماوج حوله أغصان شجر كثيف. لم تستغرق تحولات الصورة في عين خياله بضع ثوان، مثل تحولات اللقطة داخل لعبة عرض الصور في طفولته.

غمرته غبطة، واعتصر ذاكرته ليستعيد صورة مدينة سراب. كان طفلاً، في نحو التاسعة، عندما

كانوا يترددون عليها. كان واعياً بما يكفي ليدرك أن أيام النزهة في سراب كانت من أيام الانسجام القليلة بين والديه. يتذكر تلك المدينة كحديقة تتناثر وسطها فيلات أنيقة بأسطح قرميد هرمية، تتقدمها رواقات بأعمدة وأسقف من الخشب. منتزه المدينة غابة من أشجار عتيقة، تطل على ماء شاسع، لم يكن يعرف وقتها هل هو بحر أم بحيرة. وكانت رائحة المدينة خليطاً مرحاً من روائح الزهور ويود الماء المالح.

نهض متحمساً. وبينما يعد إفطاره أخذ يفكر في الرحلة. أكل بشهية. وشرع في النقاط ما رأى أنه ضروري، وخرج. أعشى نور الشارع عينيه وانتابته موجة عطس، بينما يتأمل الناس في ميدان عائشة التيمورية الصغير. بدا كل شيء كما كان وغريباً جداً في الآن نفسه، والناس في حركتهم الرتيبة ذاتها لكن بكمد أكبر. قطع حذراً الخطوات التي تفصله عن شارع قصر العيني، فداهمت سمعه كلاكسات السيارات المتداخلة. عبر الشارع ووقف على الجهة اليمنى من الشارع. يشير إلى عربات التاكسي. تتوقف له إحداهما، وبمجرد أن يسمع السائق اسم تل المساخيط يدوس بنزياً وتتطلق العربة تاركة وراءها صفة من الدخان. بعد أن أصابه اليأس، توقف أحدهم بسيارة خاصة، تردد سامي، فمال السائق ناحيته:

- إلى أين؟

بمجرد أن استقر بجواره، أحس أن رفض السائقين السابقين كان حظه الحسن الذي أوصله أخيراً إلى هذا الكهل حسن الهندام، بسيارته النظيفة والغناء اللطيف الذي يشغله.

- وقفت كثيراً، أليس كذلك؟

- نعم.

- معظم السائقين الشباب لم يسمعوا باسم تل المساخيط وربما حتى سراب، والعواجيز من أمثالي صاروا يخشونها.

- ما الذي يخشونه فيها؟

- سرقة سياراتهم ربما، التيه أحياناً. لا أخفيك أنني نفسي ترددت.

- شكراً أنك قبلت.

ابتسم الرجل، وقال:

- ابتسامتك استوقفتني، كما أن لديّ ذكريات مع هذا الطريق.

وانفتحت شهيته للكلام؛ فانطلق يُعرّف بنفسه:

- كنت أعمل في فندق كبير، اشتغلت محاسباً، ومشرف رحلات، كنت أتردد دائماً على سراب

مع جروبات. كانت خيارًا جيدًا لرحلة اليوم الواحد، ثم زاحمتها الشواطئ الجديدة، وتراجعت سياحة الأجانب؛ فاستغنى عني الفندق، فنزلت ألتقط رزقي بسيارتي.

بمجرد أن صارت القاهرة خلفهم، صار للشمس وهج لا يتذكر سامي أنه رأى مثله من قبل، على الأقل في شتاء كهذا، وأصبح الهواء خفيفًا منعشًا، ومع كل تقدم على الطريق تنزاح من فوق صدره طبقة من طبقات الخوف التي عاشها على مدى الشهرين والأيام العشرة، لم يفتح فيهما الباب إلا لصبيّة توصيل احتياجاته القليلة التي يطلبها بالتليفون الأرضي من البقالة والصيدلية والخضري. ويُميّز خطوات كل منهم، كما صار يميز خطوات محصل الكهرباء من محصل الغاز، من خطوات الزبّال. وغير ذلك لم يسمع أية حركة في طابقه بعد أن أغلقت شقة السيدة ليلي وأخذها أحفادها إلى حيث لا يعرف. راقب من عين الباب خروجها على كرسي، بين ثلاثة من أحفادها الذين يعرفهم، يبدو أنهم أجبروها أخيرًا. منذ سنوات يحاولون إقناعها بأن إقامتها وحدها لم تعد آمنة. همّ أن يخرج لمصافحتهم، وتوديع «تيتة ليل» لكنه خاف وتراجع.

أبدى سعادته بنقاء الهواء. فقال السائق:

- الحديد نفسه ينتعش. انصت! لم تعد هناك حشرة في صوت الموتور.

واستأنف حديثه عن ذكرياته في السياحة، منتقلًا من إعجابه بعادات الأجانب وسلوكهم، إلى ذم عادات المصريين. وعندما يحس بأنه بالغ في مدح الأجانب يبدأ في ذمهم ومدح المصريين، ثم ينتقل إلى رثاء الأخلاق التي ماتت وأخذت معها البركة.

لم يرد سامي، واستغرقتة تفاصيل الطريق، يتأمل الصحراء على الجانبين، وتترأى له هنا وهناك مزارع بعيدة، بينما يجعله ضوء شمس الظهريرة الباهر يعطس؛ فيحس مع كل عطسة وكأنه يولد من جديد. أخذت ابتسامته تتسع عندما زادت كثافة الأشجار، وذكّر السائق بمحطة الوقود التي سيتوقفون عندها.

- لا تقلق، أعرف. كنا نتوقف دائمًا عند بنزينة الأبطال. بجوارها كافيتيريا وفرشة فواكه، كان السياح يتشممون المانجو ويلتقطون لأنفسهم الصور معها، ثم يشترون بالحبة الواحدة، هل تتخيل؟ يعجبني حرصهم. لكننا صرنا مثلهم الآن، رغماً عن أنفسنا.

حاول سامي أن يبدو مهتمًا بحديث الرجل، لكنه كان مستغرقًا في تأمل بساتين المانجو. ظهرت محطة وقود تجاوزتها السيارة، نظر مستفسرًا، قال السائق:

- ليست هذه.

واستأنف:

- في أيام الدراسة عرفت زميلاً من هنا. كان غريباً بعض الشيء. لا، كان غريباً جداً. كان مثقفاً بدرجة مدهشة في سننا الصغيرة وقتها. وكنا ننتمر عليه لهذا السبب. هو كان لا مؤاخذه أعرج، كان يزك قليلاً. تعلق بنجمة سينما مشهورة دمرت مستقبله.

قال سامي:

- هل تتواصل معه؟

- انقطعت أخباره. الله يصبّحه بالخير إن كان حياً ويرحمه إن كان ميتاً.

لاحت في القريب محطة وقود ثانية. هتف الرجل:

- ها هي بنزينة الأبطال.

شرع في إبطاء السيارة والميل إلى الجانب الأيمن، حتى توقف إلى جانب المحطة. سأل عاملاً واقفاً عن كيفية الوصول إلى أم الغلام.

- اترك أول مدقين وادخل في الثالث، ثم در معه يميناً، وستجد على يمينك سرايا بيضاء، هي سرايا أم الغلام.

استأنف السير بطيئاً في الجانب الأيمن، وأخذ يستكشف بصعوبة بدايات المدقات في عتمة ظلال الأشجار المتشابكة. أمام المدق الثالث توقف:

- هذا هو. وسامحني، لن أستطيع الدخول.

نظر سامي إليه برجاء. قال الرجل:

- السيارة ليست ملكي.

ترجّل سامي، وحمل حقيبته الخفيفة على ظهره ومضى على المدق الرملي بين صفيين من النخيل تتشابك حول جذوعها أغصان المانجو. مضى مغتبطاً في النفق الأخضر.

وسط هذه الغابة، ودون تليفون يرصدون منه مكانك ستكون في أمان.

عند العطفة ظهرت ثلاثة من البيوت الصغيرة البسيطة متضامة على بعضها البعض، أحس أنه رآها من قبل في حلم أو لوحة. لمح نساء يستطلعن، ونهضت ثلاثة كلاب تنبح وانطلقت نحوه. تطلع إليها مبتسماً فتوقفت تهز ذيلها صامتة. ثم اقتربت منه بهدوء. تقدمه كلب وأحاط به الأخران. استكمل طريقه بينها، حتى تلامح من فرجات الشجر بناء أبيض من طابقين.

بدت السرايا مهجورة. لا سور يحيط بها. أمامها فضاء من بضعة أمتار تنمو فيه حشائش طويلة

وزهور برية وأشواك، توسعت ابتسامة سامي عندما وجدها تطابق الصورة الخاطفة التي مرت بخاطره عند الفجر.

أقبلت من الجهة الأخرى للبيت كلبة سوداء، مندفعة بشراسة. زمجرت الكلاب الثلاثة البلق وهمّت بالتقدم نحوها. رفع سامي ذراعه وطعن الهواء بكفه المفرودة، فالتزم كل طرف مكانه، مطأطأ الرأس والذيل. لوح للكلاب الزائرة فاستدارت منسحبة، وتقدمت منه كلبة البيت، وأخذت تتمسح به، ثم تمرغت لصق قدميه؛ فظهرت أنداؤها مترعة. سألتها:

- أين أولادك؟

انحنى عليها يمسح على رأسها، ثم اعتدل يستطلع البناء دون أن يظهر له أحد. أخذ يتأمل السرايا بنوافذها المتناظرة على خط مستقيم، على جانبي رواق نصف دائري بارز عن البناء في المنتصف، يتقدم بابًا من الحديد والزجاج المعشق، بعض قطع الزجاج مفقودة، ومسدود مكانها بالكرتون. يرتفع الرواق بخمس درجات عن الأرض، يحمله عمودان بتاجين رومانيين تتسلقهما غصون جهنمية حمراء، تبلغ أطرافها سطح السرايا. تطابق أقواس الرواق في الأرضي والطابق الثاني والسطح وتناظر النوافذ على الجهتين، يمنح البيت نعومة موسيقية، رغم أنه مهمل بشكل واضح. الطلاء مفقود في بعض البقع، حائل إلى الرصاصي ومغبر بلطخات من الطحالب جزاء المطر، مع ذلك يمكن الاهتداء إلى أصل اللون الذي يبرر وصف السرايا بالبيضاء.

لم يظهر أحد، فنادى:

- يا أهل البيت!

لم يسمع ردًا. نهضت الكلبة ومضت لصق الجدار إلى الجهة الأخرى من المبنى. بعد لحظات عادت مع جراء خمسة بين الأسود مثلها، والبيض والبلق بخليط بين اللونين. ففكر سامي أنها أبناء واحد من بين الثلاثة التي رافقته.

أقبلت امرأة عجوز نحيفة، وفي يدها عصا تتحسس بها تضاريس الأرض تحت العشب أكثر مما تتعكز عليها. تحرك سامي ليلاقئها محاذرًا أن يدهس الجراء التي أخذت تدور حوله، تتمسح فيه وتندس بين رجليه.

بادر معرفًا بنفسه:

- أنا سامي يعقوب، حفيد الباشا سالم.

- ابن صبري العزيز الغالي. آخر مرة رأيته فيها كان، ما شاء الله، صبيًا حلوا هكذا.

رفعت ذراعها إلى مستوى قامة صبي في الثانية عشرة. وأخذت تتفرس وجهه، بعينين غائرتين ترسلان ومضات كإشارات منارة بعيدة. وابتسمت فظهرت أسنانها مبرية قصيرة، جذورها بلون الطحالب. هتفت:

- لن نبقي واقفين هكذا.

استدارت وسار سامي خلفها إلى الجهة الأخرى من البيت، ارتقت أمامه فرندا واسعة ببلاط بهتت ألوانه، سيّجها درابزين بارتفاع أقل من متر. بدا مما تبقى من باب السرايا من هذه الجهة أنه كان يطابق باب الواجهة. تظلل الفرندا كرمة غافية فوق عريشة من الخشب مرفوعة فوق أعمدة من الحجر، تبدو مقحمة على التصميم الأصلي للسرايا، حيث استطاع أن يرى من تشبيكات الخشب وأغصان العنب الخالية من الأوراق شرفة في المنتصف تشبه شرفة الواجهة، تخفيها تعريشة العنب، كما رأى الشبابيك ذاتها، لكن أثر الزمن عليها أقوى من أثره على شبابيك الواجهة. بعض أصابع الشيش مفقودة تاركة فجوات تكشف عن طبقة الزجاج المكسور خلفها كذلك، يبرز فوق سور السطح بنحو متر، برج مدخنة بالطوب الحراري بحالة جيدة.

دعته العجوز للجلوس على حصيرة ممدودة أمام موقد حديدي به قطع من أغصان الشجر الجافة وبجواره صينية عليها لوازم الشاي. وجلست بجواره. تأملت حقيبة كتفه وقالت:

- ما هذه الحقيبة الصغيرة؟!

- جنّت لأعرف منك الحكاية.

- وترجع؟!

استغرقت في إشعال النار. وبعد أن تأكّدت من اضطرامها، اعتدلت وقالت:

- جنّت تأخذ أرضك وبيتك أم لتستمع إلى قصة؟

ثم ابتسمت فبدأ يألف وجهها، ومازحته:

- أنت بشعرك الأصفر وعيونك الزرقاء، تشبه الخواجات.

- أمي ألمانية.

- ياه. بلد هتلر. عشت هناك؟

- زيارات فقط.

لم يبد أنها سمعت ما قاله، كانت لا تزال تتأمله. وقالت:

- لكنّ فيك شيء من جدك.

- لم أر جدي إلا في صور.

سألته:

- أخوك يوسف مات قبل صبري أم بعده؟

- بعده بثلاث سنين.

- الحمد لله. ربنا كفاه شرب نار الابن.

تذكّر أن الغلام قصده باسمه ولم يسأل عن أحد آخر. عاد يتفرس وجه العجوز التي تعرف الأسرة دون أن يسمع عنها أو عن السرايا أبدًا. حاول أن يحدد الطريقة التي يخاطبها بها. بدت له في المرحلة من الشيخوخة التي لا يعود عندها عدد السنين مؤثرًا. وضعت كنكة بها ماء بطرف النار. وألقتها شايًا وسكرًا سكبتهما في راحة يدها من برطمانين.

صبّت له الشاي، فأخذ يتذوقه متلذذًا بطعمه القوي ورائحة الدخان الخفيفة فيه. وشرع يتخيل شكل الليل في هذا المكان. أحست باسترخائه، فابتسمت مغتبطة وقامت تتساند، غابت داخل السرايا وعادت بمشنة فيها خبز وبيض وجبن. خفّ لمساعدتها، تناول منها المشنة ووضعها على الأرض. جلست تعالج النار. أحس أن ما يجري سبق أن عاشه. خنقته رغبة في البكاء مثل عطسة متجمدة تُهيج الأنف دون أن تكتمل. أخذ ينظر إلى يديها المرتعشتين بينما تكفكان النار من الأطراف إلى الداخل.

دفنت البيض في الرماد وغطته بالجمر الصافي، ثم وضعت فوقه الخبز، فتصاعدت رائحته منعشة. أحس تجاهها ما كان يحسه تجاه أم شفيح البوابة التي كان في طفولته يتمنى أن يكون ابنها. انتابته رغبة في وضع رأسه على فخذ العجوز، أو الاختباء تحت ملابسها، لكنها نحيفة وملابسها حابكة عليها، ليست كأم شفيح التي كانت بضامتها وملابسها الفضفاضة مثل كوخ يختبئ بداخله في لعبة الاستغماية؛ فلا يعثر عليه الأطفال.

أكل بشهية كبيرة. وعادا إلى الصمت يتأمل أحدهما الآخر.

أخذت تحكي عن كل شيء، باستثناء ما ينتظر معرفته، لكنه ظل يستمع بشغف. بدا الوقت بين يديها قطع شطرنج. تحاصر الساعة بروية. تفتلها وتلقي بها جانباً، ثم تعتصم بالصمت استعداداً لنقلة جديدة. وعندما رأت الشمس آفلة، كفت عن اللعب، وقالت:

- قم يا سالم...

- سامي. اسمي سامي.

- اسم الله عليك، قم يا سامي لتعرف حدود أرضك.

- طيب، أفهم؟

لم ترد، ونهضت فمضى خلفها. وأقبلت عليهما الكلبة، سارت أمامهما، بينما تتقافز الجراء حولهما. توقفت تتأمل بهجة الجراء. وقالت:

- شُفت استقبالك؟ عرفت أنها أرضك؟

- أنا صحبة مع كل الكلاب في أي مكان، من صغري.

رأى دجاجات تنقر الحشائش تحت الشجر، وفي الهواء بدأ يرى ذباباً لحوحاً جعله يصفع نفسه بين الحين والحين. وأخذاً يتمشيان على إيقاع خطوها البطيء. عند كل جهة تعرّفه باسم الجار فينسى الاسم مباشرة. كان مستغرقاً في تأمل الهبوط التدريجي لقرص الشمس، ينظر من زوايا مختلفة، فيرى القرص المتوهج مرة من بين سعف نخلة، ومرة مقسوماً بجذع أخرى، ومرة فوق القمة الخضراء لشجر المانجو.

كم غروباً بوسعك أن ترى هنا في اليوم الواحد؟!

عدّ حتى العشرين شمساً آفلة، قبل أن يسقط القرص تاركاً لونه في الأفق مثلما يفعل قرص دواء فوّار عند سقوطه في كوب ماء. وبدأ الرمادي يزحف ويتقدم ليغطي على البرتقالي في الأفق. تواصلت ملاحظات العجوز وإشارات تحت آخر ضوء:

- سالم! بُص يا سالم.

- سامي يا جدة والله.

- يووو عليّ!

نزعت ورقة مانجو، وقالت:

- هذا الأسود، هل ترى؟ وباء أصاب المانجو.

وقفت في مواجهته. قرّبت الورقة من وجهه، ثم قلبتها تريه ظهرها. تناولها؛ فتلوّث أنامله بسواد لزج. ورأى على الظهر حشرة ملتصقة بقدر حبة سمسم، خضراء لا يمكن تمييزها بسهولة. سألها:

- ألا يوجد علاج؟

- غلبنا. ولا شُفنا حبة من ثلاث سنين.

مرا ببقعة كثيفة من الشجر متداخلة مع نخيل متفاوت الأطوال. بلغت من الكثرة حد الإظلام. توقفت أمامها، فطلبت منه الابتعاد ملهوفة مع الاتجاه نحو الجنوب أخذت الأشجار بالتناقص في البستان حتى صارت بضع شجرات متناثرة فوق سجادة من عشب أخضر. قالت:

- هذه الجهة واطئة تتعفن فيها جذور الشجر، لكنها جيدة في المحاصيل.

- وما هذا النبات؟

- برسيم حجازي، أول مرة نزرعه. غير برسيمنا العادي.

فهمت من حيرته أنه لا يعرف ما العادي، ضحكت وقالت:

- برسيمنا أطرى، ويقعد في الأرض موسم واحد في الشتا. الحجازي خمس سنين. ولا عندنا بهيمة تأكله، لكن صلاح، حبيبي، زهق من جمل أرضنا وأرضه.

- من صلاح؟

- في مقام ابني، ستعرفه.

عندما أكملنا الدورة وصارا أمام السرايا مجدداً، توقفت وأشارت إلى خطوط النخيل التي تسيج جهات البستان الأربع. وقالت:

- في كل تل المساخيط، الحدود بين الجار والجار نخل. واحدة لهذا واحدة لذاك، باستثناء السكة كما ترى، عليها صفان، صف لكل جار. خرج من تحت الشجر في البستان المقابل رجل ضخم، يرتدي جلباباً متسخاً على اللحم، يبدو من تحته ثديان كبيران يهتزتان. مضى لاهئاً ماداً رأسه إلى الأمام، كأنه يجر جسمه جرّاً. قالت:

- العجل الكبير. ابن المجحوم سلفي.

بدا صوتها مسموعاً، ورغم أن الرجل لم يلتفت، أحس سامي بالخرج والتوتر.

وعندما ابتعد الرجل بما يكفي، سألها سامي:

- هذا بستانه؟

- له الثلث، هم ثلاثة.

أمسك بذراعها، ومضى متقيداً بخطوتها، قالت:
- بيوتهم التي مررت بها هناك، في بداية المدق.

بعد خطوة أخرى استدركت:

- كانت لهم أخت، ماتت من زمان ولم يعطوا أبناءها شيئاً.

بدأت العتمة تتكاثف كطبقات من ستائر تنزل تباعاً، بينما يتمشيان خطوة فخطوة، يمسك بذراعها من جهة وفي يدها الأخرى عصاها تدب بها الأرض. تقدمتهما الكلاب نحو السرايا، حيث كانت الدجاجات تنفق وتخرج تباعاً من تحت الشجر، وتعبّر الفرندا إلى الداخل. انتبه لصوت مأمأة، فرأى معزة بالقرب من الفرندا تدور حول الجذع المربوطة فيه. ذهبت المرأة وحررتها، فشرعت تجري وخلفها طفلاها يتقاذزان. في لمح البصر قفز الماعز سلم الفرندا واندفع إلى داخل السرايا.

عادا إلى مكانهما أمام النار. نكشت الرماد، فظهرت بقايا الجمر من تحته، أخذت تجمعها في كومة. ثم شرعت في وضع كسرات من الأغصان فوق الجمر، تصاعد الدخان. نفخت فيه حتى اشتعل، فبدأت في إضافة قطع من الأخشاب فوقه. تناولت كوز ماء زادت منه كنكة الشاي ووضعتها بالقرب من اللهب. ظل صامتاً يراقبها بينما يضيء الوهج ابتسامته. ضيقت عينيها وحدثت فيه:

- سامح يا ابني، ما الذي يضحكك من لحظة ما جئت؟

- وجهي هكذا يا جدة.

- ربنا يسعدك. أمك عايشة؟

- ماتت بعد أبي. وقبل يوسف.

غمرهما صمت. وشرعت تعتنني بالكنكة. مدّ بصره إلى البستان الذي استحكم فيه الظلام فلم ير أبعد من مترين أمام الفرندا. تطلع إلى التعريشة فوقه لينظر فلم ير مصباحاً يتدلى. سألها:

- أليس لديك كهرباء يا أمي؟

- عندي لمبة جاز.

دخلت وعادت بمصباح في يدها. وقف وتلقفه منها. بدأ سطح الشاي يتمللم بطبقة من الثقل تنبض وتخرقها فقاعات الغليان صاعدة هابطة بذبذبات ضعيفة ذكّرته بفوران الدم في قفا الصبي الدامي. عاوده الفضول بشأن ذلك الرسول. سألها:

- أنت التي أرسلت لي الصبي يا جدة؟

- ابني المرحوم سالم. أخيرًا جاءك!
- لم تر المرأة المنشغلة بغليان الشاي توتره. استأنفت:
- قتله المجحوم عمه من 40 سنة. كان صغيرًا؛ لهذا ينادونني أم الغلام.
- أحس أن عليه أن يضيف شيئًا. قال:
- كان يتحرك بخفة.
- صغير، لا عنده ضعف أعصاب، ولا وجع مفاصل.
- رفعت كنكة الشاي، صبّت له كوبًا. وسألته:
- جاءك أمس فقط؟
- فجر اليوم.
- أتعبني، من سنتين وأنا أحايله ليذهب إليك.

في الضوء الخافت بدا في عينيها اختلاط الضيق مع الفخر الذي تتحدث به الأمهات عندما يأتين على ذكر عادات أطفالهن السيئة. لم يشأ أن يخبرها أنه تركه يطرق الباب أيامًا قبل أن يفتح له. أخذ يستعيد جدية ملامح الغلام وطيبتها؛ توجسه من النور، ودوران الدم في نافورة قفاه كمياه النوافير الإلكترونية التي لا تبلل ونيران المدافئ الزائفة التي لا تحرق. وضع كل توتره في البعوض، يتتبع اللسعات على وجهه وفوق يديه بصفحات عصبية لمواضع القرص. قالت:

- اهدأ يا بني، بكرة تتعود.

أخذ يرشف الشاي ببطء وتنغيم، بالطريقة التي تعلمها من أبي شفيح. كان يحلو له أن يشرب الحليب بهذه الطريقة ليغيب ألس فتعاقبه بمنعه من النزول إلى أسرة البواب التي يتعلم منها العادات السيئة. لكنه يكتشف الآن أن الرشف بصوت عالٍ بديل للكلام، عندما لا يكون هناك ما يقال. بعد أن وضع كوبه عاد إلى تركيز اهتمامه بالبعوض. قالت:

- قم، قم، أوريك أوضتك.

نهضاً، وحمل المصباح وسار إلى جوارها. ما إن دخل من باب السرايا حتى دهمته رائحة الروث التي كان يشمها في مواقف عربات الحنطور على كورنيش النيل، امتصت الجدران المغبرة نور المصباح الضعيف، لكنه استطاع أن يرى باب الواجهة. وعاد يطابقه مع باب الجهة الداخلية، ثم شرع يتأمل البهو، وتوسعت ابتسامته؛ إذ أدرك أن جده نسخ تصميم سرايا الزعفران، التي أنشأتها أرملتا الخديوي إسماعيل، عندما عادتا وقررتا العيش معًا بعد أن ماتت في المنفى الزوجة

الثالثة والرجل الذي جمعهن. أشارت العجوز إلى باب غرفة متآكل من أسفل، مغروسًا في روث جاف ومخلفات قش. قالت:

- هذه كانت غرفتنا أنا وزوجي. وحتى بعد أن وهب جدك لنا السرايا، لم نصعد إلى الطابق الثاني إلا لتنظيفه.

أشارت إليه ليتخذ السلم إلى الطابق الثاني، وتبعته متشبثة بالدرابزين. حملت عنه المصباح، وطلبت منه أن يزيح حاجزًا من الخشب:

- أضعه لأمنع الماعز والدجاج من الصعود.

بعد أن مرا، أعاد الحاجز إلى مكانه، وتناول منها المصباح ثانية، واستأنفا الصعود حتى بلغا الطابق الثاني، وصارا في بهو يتفرع منه ممران انعطفت نحو أحدهما:

- جهّزت لك غرفة الباشا. بقية غرف هذه الجهة كانت واحدة لجدتك، ومكتبة، وغرفة أبيك. غرف الجهة الأخرى كانت مخصصة للضيوف.

دخلا الغرفة الفسيحة. الأثاث العتيق فاخر بحالة جيدة، فرش السرير نظيف وأنيق رغم أنه باهت اللون وله رائحة لم يستطع أن يتبينها. مضت العجوز أمامه وأشارت إلى باب داخل الغرفة، وقالت بفخر، كأنها تطلعه على معجزة:

- حمّام!

بدا الحمّام غرفة رحبة في جهة منها قاعدة المراض وقاعدة اغتسال من الخزف، وفي الجهة الأخرى حوض وجه وبانيو من النحاس، محمولين على قوائم بأقدام على هيئة مخالبا أسد. شرعت أم الغلام بالمغادرة. ومضى ليضيء لها. قالت:

- لا داعي، رجلي تحفظ طريقها.

وضع المصباح على الكوميدينو وظل واقفًا يسمع صوت زحف قدميها الوئيد، حتى اختفى تمامًا. بدأ يتبين غناء صراصير الحقل. أخذه الفضول ففتح دولااب ملابس جده، وجد القليل من البديل هبّت منها رائحة العثة، فسارع إلى إغلاقه واستلقى على السرير. وسط سكون الليل بدأت رائحة الروث تصعد السلالم واضحة حتى غطت على رائحة الفراش.

أفضل من رائحة الخوف في شقة جاردن سيتي.

غمرته السكينة فغفا، لكنه استيقظ سريعًا. عالج قفل النافذة، ووقف أمامها يرى الشجر أشباحًا. خطر له كيف لم يتقوض البيت تحت ضغط الظلام المطبق عليه من كل الجهات في آلاف من

الليالي كهذه الليلة. مرّت في رأسه أحداث اليوم، وقرص فحذه ليتحقق من واقعية جسده.

وقف طويلاً دون أن يشعر بالنعاس، لكن ساقيه تعبنا. أغلق النافذة واستلقى منصتاً إلى أصوات صراخير الحقل، يعلو ويخفت مثل عزف أوركستري. بين وقت وآخر يستمع إلى نفثة بومة، نبحة كلب، أو كلاكس سيارة على الطريق السريع. أخذ البرد يتصاعد، وبدأ طنين البعوض يخترق سمعه بين لحظة وأخرى، ولا تتأخر الإبرة عن الغوص في رقبته أو خده. أخفى وجهه تحت اللحاف، لكن البعوض كان يجد طريقه إلى وجهه. أخذ يدور حول نفسه في السرير، حتى بدأت تلاوة قرآن الفجر؛ وصلته قوية دون أن يخفى على أذنه المسافة الكبيرة التي يقطعها الصوت. عندما بدأ النور يرشح إلى داخل الغرفة من النافذة وباب الفرندا، أحس أن البعوض بدأ يتناقص، واختفت نفثات البومة فأخذته النوم، وبعد أقل من ساعتين أيقظته زقزقة العصافير. قبل أن يعي ما حوله، تصور أنه في غرفته بجاردن سيتي، يسمع مقطوعة الربيع لفيفالدي، لكن الصوت ليس بالداخل. غفا مجدداً ورأى في حلمه أوركسترا محلقة في الهواء. أدهشته سباحة العازفين في الهواء بالآتهم في أيديهم، كأن مركبة فضائية تركتهم أمام شبابه.

اخترق نور الشمس الغرفة، وبدأت مناوبة الذباب. فتح عينيه. رأى الأشياء أوضح. تأمل النافذة والباب ورأى تقوس خشبها الذي يجعلها قليلة الإحكام. رغم الإرهاق، حمله الفضول على النهوض. خرج إلى الممر وعالج باب الشرفة. تمكن من جذب ضلفتي الزجاج للداخل، ثم عالج طبقة الشيش ودفع الضلفتين للخارج فتحركتا بصعوبة وأزاحتا أوراق الجهنمية الجافة وروث الطيور الذي يملأ أرضيتها.

استطاع أن يُخَيّن مكان عش البومة أعلى شجرة كافور طويلة، لم ينتبه إلى وجودها عندما وصل أمس على الرغم من قربها من جدار السرايا.

دوّم سرب حمام في الهواء، منتظماً في قوس اندفع لأعلى حتى صار مثل خيط رفيع، ثم انحدر لأسفل وأخذ تفاوت ألوان حماماته يتضح. حطّ على رأس الكافورة وجعل العصافير تطير فزعة. بدت الحمامات على الأغصان مثل ثمار ملونة لشجرة الكافور، وبعد راحة قصيرة طارت الثمار المجنحة. وصنعت هلالين متقاطعين في السماء، ثم عادت لتحطّ على الشجرة ذاتها. أخذت تكرر الإقلاع والتحليق والهبوط كأنها تقدم استعراضاً تدربت عليه.

تحسّس بثوراً نبتت على وجهه برؤوس شوكية من أثر اللدغ. ولم يلبث أن أحس بالإعياء يتزايد، وبرغبة في التمدد مجدداً. خطا إلى الداخل وجذب ضلفتي الشيش، دون أن يغلقهما تماماً ليترك

مهربًا للذباب. عاد إلى غرفته وتمدد على السرير مجددًا يتصيد النعاس، لكن الوخزات كانت بداخل الرأس هذه المرة. فتح عينيه يتأمل الأشكال التي صنعها نشع المطر في السقف، بينما يُفكّر في كل شيء؛ أم الغلام، هذا البيت، وسالم باشا يعقوب.

لم يذكر صبري شيئًا عن هذا المكان.

أخرجه طنين بعوضة من أفكاره. فركها على أذنه فتلوث كفه بالدم. بدأ في تأمل الجدار؛ فاكتشف المزيد من البعوض المتختم. قام بالمنشفة وأخذ في صفع قِرَبِ الدم المنتفخة، فأدمت الحائط في مواضعها خلف رأس السرير وخلف الدولاب ومرآة التسريحة. لم يكد يستشعر غبطة الانتقام، حتى انتبه إلى أن البقع التي رصّع بها الحائط هي دمه. داهمته خوطر حزينة، وأحس بضغط مئانته وأمعائه. دخل إلى الحمام. لم تفاجئه رثاثة قاعدة المراوض. عالج الصنبور، فلم ينزل منه سوى قطرات عطنة، أثارت رائحتها مغمصًا في بطنه. أغلقه ولم يستطع البقاء أكثر.

بينما ينزل السلم أحس أن رائحة فضلات الماعز والدجاج لم تعد بالسوء الذي كانت عليه بالأمس. وعندما استنشق الهواء العذب خارج السرايا عاودته رغبة ملحّة في قضاء الحاجة. كانت أم الغلام تجلس على الحصيرة أمام النار، وبالقرب منها على البلاط تستلقي الكلاب. حيّاها وانطلق هابطًا إلى البستان، قامت خلفه الكلاب. لوح إليها، فاستدارت عائدة إلى جلستها. توغل بين الأشجار حتى أحس بالستر. أنزل بنظونه وقرفص. ترك لأمعائه حريرتها دون أن يفكر كيف سينظف نفسه. أخذ يتأمل حركة طابور نمل أسود كبير حول أصل الشجرة، مغتبطًا بتمكنه من تتبع مسيرة هذه النملة أو تلك تحت الرمال الهشة ثم خروجها دون أن تفقد حملها.

عاد إلى أم الغلام مرتاحًا إلا من حكة يستشعرها في استه. أخذت العجوز تتأمل ابتسامته الواسعة فابتسمت، ولم تقل شيئًا. بعد الإفطار أخرجت من تحت فخذها اسطوانة من الصفيح الصدى، رفعت غطاءها وسحبت منها لفافة من الورق، فردتها وناولتها له. وجدها عقدًا من جده مكتوبًا بخط جميل، ينص على أنه وهب الأقدنة الخمسة ومن ضمنها السرايا إلى صابر عبد الستار الفشن وزوجته نجفة محمود الفشن. وعليه توقيع الواهب وبصمة إصبعي الموهوب لهما، وفي الفراغ أسفل الصفحة الأخيرة تنازل صابر عن حصته لنجفة، مع بصمتهما.

سألها: لماذا وهب جدي لكم أرضه؟

- لم يهبنا وحدنا. كل هذا الزمام كان لسالم باشا. عندما هاج الضباط على الملك، وعرف جدك أنهم سيأخذون أراضي الباشاوات ويوزعونها على الفلاحين. قال سأسبقهم وأوزع أرضي بنفسي

على الذين تعبوا معي في استصلاحها. أعطى كل أسرة خمسة أفدنة، وميّرنا نحن بالسراي.

- ولماذا تريدون منحها لي الآن؟

- لن أخذها معي إلى القبر. أنت أولى بأرض جدك.

- أليس لديك أقارب يرثونك؟!

- أولاد المرحوم قاتل ابني. أتركها لهم أم أرجعها لحفيد الرجل الذي أكرمنا؟!

لفَّ العقد، ودسه في الاسطوانة وأمسك بها في يده.

هدأ صوتها وقالت بحسم:

- اكتب عقد الهبة مني إليك وأبصم لك، ونغيّر الحيازة في الجمعية الزراعية.

ترك اسطوانة العقد على الحصيرة، وقام يتمشى ليستوعب الأمر. بدأ يرى تفاصيل جديدة لم

يلمحها بالأمس؛ شجرة جواقة ضخمة، ثمارها تغطي الأرض تحتها، شجيرات مختلفة على مسافات

متباعدة بين صفوف المانجو. عرف منها البرتقال واليوسفي، ولم يتعرف على الأشجار ذات

الغصون العارية. لحقت به تستند على عصاها، بينما تؤشر باسطوانة العقد في يدها الأخرى:

- هذه الحمراء برقوق، وتلك البيضاء كثرى. الجيران ليس عندهم إلا المانجو. أرضنا فقط فيها

هذه الأنواع.

سألها سامي عن ثمار الجواقة على الأرض.

- رزق الدجاج والماعز، لأن الدود يولد فيها قبل ما تطيب.

أمام كومة من الأحجار تنمو بينها الحشائش والزهور البرية. بادرت أم الغلام مفسرة:

- حجارة زريبة البهائم، تهدمت من زمان.

أحست بالإجهاد فجلست فوق الحجارة وأشارت إليه ليكمل الجولة. استبقته الكلبة ترسم المسار.

بينما يخترق البرسيم، انحنى وتلمّس نعومة قمته الغضة، ثم انعطف وراء الكلبة إلى تحت الشجر،

يتأمل تشكيلات الظل والشمس على الحشائش.

جلس على حافة مروى ماء جافة، وأقعت الكلبة تحت قدميه. استغرق في تأمل الصمت مترقبًا

أزيز نحلة أو لمعان فراشة تتهادى في الهواء. عاد طفلًا، وكان مقصًا استأصل سنوات الحزن

والغضب والخوف.

مجنون من يغادر هذه الجنة.

نهض عائدًا إلى حيث ترك العجوز، ومدّ لها يده يساعدها على الوقوف. بينما يجلسان أمام ركية

النار قال:

- أحتاج إلى العودة للقاهرة أيامًا قليلة أجلب أشيائي، ونقودًا لتجديد الفيلا.
- تريد تجديد الفيلا؟ عندك الدور الثاني، جدده كما شئت.
- لا يمكن تجديد الثاني، وترك الأول على حاله.
- الأول؟ وأين أذهب بأصيلة وأولادها، والدجاج؟
- من أصيلة؟
- معرتي.
- السرايا رائحتها صعبة، هل وجود الماعز ضروري؟
- إن كان وجودي معك ضروريًا.
- نبني لها عشة.
- عشة؟ والذئب والحرامية؟! خلاص يا ابني اعمل ما تراه، وأنا أعود إلى بلدنا.
- لا تقولي هذا، لن أستطيع البقاء هنا من دونك.
- وأنا روعي في أصيلة ودجاجاتي.
- قال بكل حرارة قلبه:
- لن تفارقي روحك يا جدتي. سنبنى لها بيتًا، قبل أن نشرع في السرايا.
- لمعت عيناها بسعادة، وضحكت:
- بيت يا خوجة؟! اسمها زريبة.
- أيًا كان يا جدتي، لن أحرملك من أصيلة أو الدجاج.
- الصبح، يأتي صلاح، عنده عربية، يمكن أن يذهب معك.

لم يأت صلاح القط في الصباح، ولم يأت في اليوم الثاني ولا في اليوم الثالث. أخذت تترقب وصوله بقلق، بينما يشعر سامي بالارتياح لأنه بحاجة إلى هذه المهلة، ليتأكد من أنه لم يتسرع في قطع الوعود. لاحظ أنه بدأ يتعامل مع لسعات الذباب ولدغات البعوض بتوتر أقل، وأصبح يقضي حاجته تحت الشجر ببعض الاعتياد وبعض الدهشة.

وأحس أن جسمه يتناغم مع إيقاع تل المسaxيط. خلد إلى النوم في اليوم الرابع قبل العاشرة، وتضاءل الخوف الذي سكنه منذ تفنّيش تليفونه وأحس وحشة الشوق إلى فريدة. تذكر نقرات أصابعها غير المجابة على باب الشقة. سمع صوتها حقيقياً تعاتبه.

شرع يتخيل الوضع لو تجاوز واقعة التحقيق معه، وأكمل طريقه إلى شقة حبيبته، وحدّثها ببساطة، عن صور تزواج القطين التي محوها من الهاتف. شرع يتخيل الشقة التي لم يتمكن من رؤيتها، يبينها من خياله غرفة غرفة، والمطبخ الذي وصفته فريدة بالضيق. تذكر حركة يديها في تلك اللحظة عندما رفعتهما وأخفت وجهها بينهما قبل أن تقول: لي صديقة تقول هناك أشياء يُستحب ضيقها، ليس بينها المطبخ.

سحبه النوم ورأى أحلاماً لم يتذكرها عندما استيقظ. بعد أن صار في الفرندا أخذ يتطلع إلى تشكيلات الغمام من الأسود والرصاصي والأبيض في قبة السماء. لمح أم الغلام تحت الأشجار، تسحب المعزة البنية لامعة الشعر. لم تنتبه إليه إلا عندما رأت الكلاب تنهض لاستقباله. بادرت:

- صلاح تأخر، قلبي مشغول عليه.

قبل أن يرد انطلق في البعيد كلاكس سيارة. تهللت:

- هو، صلاح!

تركتها الكلاب وجرت تستقبل سيارة النقل الصغيرة التي دخلت البستان وتوقفت بجانب السرايا. ربطت أم الغلام المعزة، والتقطت عصاها، ومضت مع سامي إلى جهة البيت تحجل بقوة. توقفت ولوّحت بالعصا نحو الرجل الربعة الذي ترجل من السيارة يرفع كيساً بلاستيكيّاً إلى أعلى من رأسه، بينما تتفافز حوله الكلاب تتمسح به وتهز أذيالها.

- ثلاثة أيام. ولا حتى كلمة؟

- ألم تسمعي القرآن يا فوزية؟

- قرآن؟ آه، من بعيد، من مات؟

- خالتي.

- نبيهة؟ يا حبيبتي. ارتاحت!

مدَّ صلاح يده مصافحًا سامي. وقال:

- نفطر قبل أن تبرد الطعمية.

جلسوا على الحصير. أخرج صلاح خبزًا وفتح قرطاسين من الفلافل والباذنجان المقلي. تناول سامي الرغيف حريصًا على ألا تبدو عليه علامة تأفف، كأنه معتاد على الإفطار كل يوم من خبز على حصير ومقليات مطروحة فوق ورقتي صحف. وبدأت أم الغلام تعالج لقمة، وابتسمت لسامي مشجعة:

- كُلْ مثل الرجال، شايف صلاح؟

لم يُفلق سامي في تخمين عمره. شعره أبيض كالقطن، لكن بنيته قوية، وجهه الأبيض المستدير مفعم بالحيوية، وصدرة عريض.

بعد أن أكلوا، جمعت أم الغلام كسر الخبز وطوحت بها للكلاب. وبعد الشاي، طلبت من صلاح مرافقة سامي إلى القاهرة. قبل أن يرد، قال سامي:

- يكفي إلى محطة الأتوبيس.

عندما شرعت السيارة تتحرك أخذت قطرات مطر تضرب زجاجها. سأله سامي:

- ننتظر؟

- بخبحة بسيطة، لا تقلق.

استدارت السيارة، وتسلمت المدق الرملي. أخذ الرذاذ المنعش يدخل من الشبَّاك يبيل صدغ سامي. وعندما انعطفت على الطريق الرئيسي أحس بأنه ترك شيئًا ثمينًا وراءه، ولا بد أن يعود بأسرع ما يستطيع. ثم بدأ وقع القطرات يتسارع، وانهمرت سياط الماء. رفع صلاح يسراه خارج السيارة وهتف مخاطبًا السماء:

- لم نتفق على هذا.

- كنت أتوقع.

- بيتي قريب، تعال ننتظر إلى أن يتوقف المطر.

غامت الرؤية بسبب تعثر المساحات الخشنة في الزجاج المضرب بالوحل، وبعد دقائق من القيادة الحذرة انعطفت السيارة على مدق رملي بين الأشجار. يشبه تمامًا طريق السرايا. ثم توقفت في

ساحة واسعة أمام بيت كبير من طابق واحد. ترجّل صلاح ودعاه للنزول. وهول أمامه إلى البيت. رأى سامي فتاة دون العشرين منحنية تفك حبل بقرة لتدخلها من تحت المطر.

ما هذا؟ كيف نسيت هذه الفتاة أن ترتدي ملابسها؟!!

لم يلبث أن تبين أنها ترتدي جلبابًا ضيقًا بلون البشرة. ألقت للبقرة حبلها فوق ظهرها، فهولت إلى الداخل، وسارت وراءها. أحس برهبة كأنه أمسك بسلك كهرباء عارٍ، لم يكن إحساسه بعريها بسبب التباس لون الثوب فحسب، بل بسبب موجات الجاذبية التي يبثها جسدها المتراقص. أحس بقلق من يجد نفسه وسط دوامة بعد أن أنهكته السباحة ولم تعد لديه قوة للمقاومة. أطل الوقوف في مكانه بعد أن اختفت الفتاة؛ فرجع إليه صلاح:

- ادخل يا باشا، لا أحد هنا.

أربكه النداء، وأخرجه فتحرك خلفه إلى غرفة فسيحة مفروشة بكاملها بسجاد فوقه حشيات لصق الجدران من كل اتجاه. كانت سياط المطر تطرق على زجاج شبابيك الغرفة المصنفر، الذي مؤه الشجر في الخارج فبدأ لوحة تجريدية. صاح صلاح:

- قهوة يا فوزية.

- حاضر يا جدي.

جاء الرد بصوت يعاني حيرة المراهقة، التي لا يتميز فيها صوت الولد من البنت. جعلته قلة جاذبية الصوت يستعيد اتزانه. سأله صلاح:

- مالك يا باشا، لم تنم جيدًا؟

- لا، أبدًا، فقط...

- اتركها على الله. ماذا تعمل في مصر؟

- كنت مبرمجًا.

ولما وجد صلاح فاتحًا عينيه يحاول الفهم، أضاف:

- مهندس كمبيوتر. لكنني مررت بظروف جعلتني أنقطع عن العمل، ولم أحاول مرة أخرى.

- وماذا تنوي أن تفعل هنا؟

- لا أعرف.

- تربي بهائم. مشروع حلو.

- لا خبرة لدي.

- لا تحمل همًا. ستتعلم.

انطلق الصوت الصبياني من أمام الباب:

- القهوة يا جدي.

- ادخلي يا فوزية.

دخلت الفتاة تحمل صينية القهوة. انحنت تضع الصينية على الكليم فرأى نهديةا الفتين يظهران من طوق الثوب بحجم خوختين. ارتدت عيناه باضطراب؛ فتعثرتا في عينيها. أدرك جراًة وشغب العينين اللتين تكادان أن تكونا ملونتين، تحت رموشها الكثيفة. سحبت نظرتها. وبينما تستدير اندفع يسأل:

- فوزية، على اسم أم الغلام؟

التفتت ضاحكة، وقالت:

- كل النساء فوزية عند جدي.

تذكّر أنه قرأ اسم أم الغلام في العقد، ونسيه الآن، انصرفت الفتاة، وظل صخب إيتيها يتردد في فضاء الغرفة.

ناوله صلاح القهوة، واستأنف:

- تربية البهائم ليست معضلة. حتى فوزية الصغيرة هذه تعرف كيف تعتني بالحيوان.

عندما انقطع المطر، سطعت الشمس في الخارج فحسنت من إضاءة الغرفة. وظل سامي مستريحًا. أخذ صلاح المبادرة:

- نتوكل على الله؟

في الطريق، شرع صلاح يحدّثه عن المرعى المجاني المتوفر في البستان، وبدا صوته الرخيم خلفية غير واضحة في أذني سامي الغارق في أحلامه، يحاول أن يفهم سر جمال هذه الحفيدة وأن يُخمن عمرها. عندما دخلت السيارة مدينة سراب، استجمع تركيزه لتأمل الشارع والمباني وسحنات الناس. راعه تداعي الشوارع وقذارتها، وفقر الأكشاك الصغيرة لباعة المتلجات ورقة حال المشاة.

ليست هذه سراب المتنعمة التي عرفتها في طفولتك.

أمام شباك التذاكر في الكشك المعدني بموقف الأتوبيس منح صلاح يدًا مشوشة، وافترقا. جلس في الصف الأخير المرتفع بالأتوبيس. أخذ يتأمل الامتداد الشاسع لقمم الأشجار. عندما رأى محطة وقود الأبطال في الجهة الأخرى من الطريق، أنعم النظر فميز بين الأشجار النقاط الثلاث لبيوت

الجيران، وبعد لحظة لاحت السرايا. جال ببصره في الجالسين حوله. بعضهم منشغل بشاشة تليفونه، البعض أرسل ببصره إلى الفراغ، البعض منخرط في ثرثرته. انتابته مشاعر غريبة، لأنه الوحيد الذي تربطه بهذه النقطة البيضاء قصة، واستبدت به رغبة في أن يرويها. أشار إلى النقطة التي تجاوزها الأوتوبيس، وقال للجالس بجواره:

- ذلك البيت... هل رأيته؟ بيتي.

رفع الرجل عينيه عن شاشة هاتفه، وأخذ يتفرسه؛ ثم سأله:

- سرايا أم الغلام؟!

- تعرفها؟

- أنا رائح راجع على هذا الطريق. هل تقول إنها بيتك؟

- نعم، نعم، بيتي.

عاد الرجل إلى التحديق به وابتسم، وبعد لحظات صمت قال:

- عفواً لم أفهم كيف تكون سرايا أم الغلام بيتك. هذه السرايا مسكونة. يقولون إن رجلاً قتل ابن

أخته فيها من زمان جداً. ولا أحد يجرؤ على الاقتراب منها سوى أم الغلام التي صارت الآن

عجوزاً جداً، لا تفعل شيئاً سوى انتظار غياب الشمس حتى يزورها شبح طفلها المقتول. هل تقصد

تلك السرايا فعلاً؟

تلعثم سامي، وقال:

- بيتي، قريب جداً منها.

- هكذا، أستطيع أن أفهمك.

- أنت تعرف قصة السرايا؟

- رهيبة. لا بد أنك تعرفها.

هز سامي رأسه نفيًا، وأخذ الرجل يُحدِّق به متحيرًا، ثم سأله:

- اشترىتم البيت مؤخرًا؟

- ورثته عن أبي.

- آه، ميراث! ولم تره من قبل؟

- كان مغلقًا. حتى أبي لم يكن يأتي إلى هنا.

- هكذا إذن! على كل. الحكاية برمتها غريبة. كل هذه الأرض على الجهتين استصلحها واحد من

باشاوات زمان، ونزعتها منه الثورة، لكنه كان قد كتب السرايا لفتاة فلاحه حملت منه. تمكّنت الفتاة

من إخفاء حملها حتى وضعت في السر. وعندما عرف شقيقها أراد أن يقتلها ويقتل طفلها. رأى أن يذبح الطفل أمامها لتتعذب قبل أن يقتلها، لكن الرعب تملكه عندما فصل رأس الغلام عن جسمه؛ فأصيب بالجنون، وبقيت الفتاة في السرايا، ولم تغادرها.

تبددت الابتسامة من وجه سامي، دون أن يقول شيئاً. عاود النظر إلى الخارج يراقب انسحاب اللون الأخضر، وقد أصبحت المزارع متناثرة، ثم ساد اللون الأصفر على امتداد البصر تحت الغيم. يتموج السائق بالأتوبيس كما لو كان يقود دراجة. ترتفع أصوات بعض الزكّاب مستنكرة، بينما يستعيد سامي إثارة عربات التصادم في ملاهي الطفولة. ولم تعد زخات دخان الأتوبيس نفاذة إلى الحد الذي يستفز الأنف، وسرعان ما ذابت بدخان المركبات الأخرى في زحام مدخل القاهرة.

كان أبو شفيق مستلقياً على كنبته خلف باب العمارة. توجه إليه سامي وجلس إلى جواره، وتناول يده يصفحها. ثم نهض متوجهاً إلى السلم. أخذت القطط تلم أطرافها عن طريقه دون أن تغادر أماكنها. وقف أمام شقته. انتبه إلى أن الورقة التي كان قد ألصقها على الباب مغبرة جداً، ومع ذلك لم تنزل مقروعة. سافرت إلى الإسكندرية، سأنصل عندما أعود. التقطها وسحقها تحت قدمه. يتذكّر تماماً أنه كتبها بعد عشرة أيام من اختبائه لأن فريدة بدت عازمة على الاستمرار في البحث عنه. ألح عليه الشوق إليها، مثقلاً بالذنب، لأنه كان يتركها تطرق الباب حتى تياس وتنسحب يوماً بعد يوم. أدار المفتاح في الباب، مواسياً نفسه.

هي كذبتك الوحيدة عليها، رغم فظاعتها.

دخل وأغلق الباب وأضاء طريقه إلى الشرفة. فتح بابها فانساب منه هواء ما بعد المطر، ومنعه البلبل في أرضيتها من التقدم. كان زوج من الدوري يتغازل بنفض الأجنحة والقفز من غصن إلى غصن في رأس الشجرة بساحة عائشة التيمورية. دقق النظر على جدار العمارة المقابلة المضاء بشعاع قوس قزح، ولم ير تحت الضوء الملون نملة على الجدار، كما كان يدّعي في طفولته.

عاد إلى الداخل وأخذ يتفقد الشقة. فتح كل الشبائيك، ليترد أثر الهواء المحبوس برائحة الخوف. دخل إلى الحمام، ألقى على وجهه جفنة ماء، وخرج دون أن يغير ملابسه. توجه إلى فرع شركة تليفونات قريب. اشترى جهازاً وتعاقد على خط. عاد، يشاغل نفسه بنفض الغبار عن الفرش في الصالة، ثم استلقى على الكنب التي طالما احتضنته مع فريدة ينتظر دبيب الحياة في الهاتف.

ضرب رقمها الذي تحفظه أصابعه، لكنها لم ترد. تابع محاولاته مستبسلاً حتى ظفر بجواب.

- النمرة غلط.

- أليس هذا رقم فريدة طنطاوي؟

- لا أحد هنا بهذا الاسم.

أخذ يستعيد الصوت، ويحلل ذبذباته الغاضبة. هل يكون صوت حماتها؟ لكنه ليس صوت عجوز.
لعلها استغنت عن رقمها وأعدت الشركة بيعه كما يجري دائماً.
تعرف الطريق إلى بيتها، وليكن لديك بعضاً من إصرارها.

ذهب إلى امبابة في الصباح، لم يقاوم التطلع من شباك التاكسي نحو المبنى الغامض الذي اقتيد إلى داخله يوم عيد ميلاده. أصابته رجفة، وأشاح بوجهه إلى جهة النيل السجين خلف أسيجة من شجيرات الفيكس والسلك الشائك وجدران متفسخة من الصفيح. نظر في الموبايل واكتشف أنه كان أمام ذلك المبنى في التوقيت ذاته يوم عيد ميلاده. كان قد اتفق مع فريدة على أن يحتفل بعيد ميلاده معها في شقتها التي سيدخلها للمرة الأولى. وهياً نفسه لعيد الميلاد الأسعد في حياته، وبينما ينتظر اتصالها لكي يتسلل إليها بعيداً عن عيون الجيران، أخذ يتمشى فرأى ذلك المبنى، ولمح داخل فناءه الواسع القط والقطعة يتزواجان، ورأى أن يصورهما لفريدة، فأوقفوه وفتشوا تليفونه وحذفوا الصور بعد تحقيق حطّم أعصابه، فلم يكمل طريقه إلى حبيبته، ولم يرد على اتصالاتها، ثم حطّم الشريحة.

سَتَقْدِرُ لَكَ أَنَّكَ كُنْتَ خَائِفًا عَلَيْهَا مِنَ التَّصَنُّتِ أَكْثَرَ مِنْ خَوْفِكَ عَلَى نَفْسِكَ.

ترجّل على الكورنيش وسار على قدميه صوب منزل فريدة. أخذت الكلاب تتقاطر، فيحبيها، ثم انتظمت حوله مبتهجة تهز ذيولها. مرّ أمام منزلها متجاهلاً نظرات الاستطلاع في عيون الميكانيكية الذين يتركون مفكاتهم والبقالين الواقفين أمام دكاكينهم والمارة الذين يتوقفون لتأمل شاب مبتسم لا يعرفونه بينما تعرفه كلابهم وتمضي حوله بسعادة. رمق بلكونة شقتها بنظرة بدت عفوية. لم ير أحداً. نظر إلى مدخل البيت دون أن يُغيّر خطوه. ثم انعطف عند أول تقاطع، قطع مسافة مناسبة في الشارع الآخر، دون أن يكمل إلى النيل كما فعل في يوم عيد ميلاده. لَوَّح للكلاب بالشكر فتفرقت عنه واستدار من أجل جولة ثانية أمام البيت.

قبل أن يتحول الفضول الصامت بشأنه إلى أسئلة واستجابات كف عن الطواف حول بيتها، وعاد إلى شقته. طلبها مجدداً، ولم يظفر بجواب. في المحاولة الثانية وجد التليفون مغلقاً. استغرب أنه لم يعرف رقمًا لأبيها أو لأي من أخويها أو أي من صاحباتها. عرف الكثير عن حولها، عرفهم أسماءً وقصصًا لا أكثر.

أخذ يتردد على امبابة يوميًا، ولم تعد الكلاب تعتبره ضيفًا. الواقف يتشممه ويهز ذيله وتنصرف، أو يحببه بتمريغ رأسه على ربله ساقه، والمستلقي يرحب بإيماءة ثم يعود إلى إغماض عينيه. ولم يعد الناس يعتبرونه غريبًا، لكنهم ينتبعونه بأنظارهم ليروا أي بيت يسكن. ثم يفقدونه عند منعطف فيعودون إلى الانشغال بشؤونهم. يمضي بخطو متزن كأنه يعرف وجهته، دون أن يتمادى في النظر نحو بلكونتها.

ماذا تستفيد إن وجدتها وأفقدتها إلحاحك حضانة طفلتها؟

أكمل ما تبقى من نهارات ديسمبر متجولاً في امبابة ولم تظهر فريدة. وقضى ليلة رأس السنة مستوحشاً في سكون شقته. فرضت صور العائلة على الجدران ونياشين الجد والكتب والأثاث نفسها، بدا حضور سالم باشا يعقوب في الشقة طاغياً، بعكس حضوره في السرايا رغم أنه ينام على سريره هناك. وعادت ذكريات موت صبري ويوسف بكل أساها، وهجمت رائحة الخوف التي طالما تنفسها بين جدران هذه الشقة.

في الصباح سحب نقوداً من البنك، وعاد يحزم أشياءه؛ ما يلزم من الملابس، الشراشف، المناشف، الكتب، أدوات مطبخ، فرش أسنان ومعجون، حتى ماكينة الحلاقة الكهربائية، والتلفزيون وغلاية الشاي، رغم عدم وجود كهرباء في السرايا. واستأجر عربة نقل صغيرة تشبه عربة صلاح. جلس في الكابينة إلى جوار السائق، بينما امتلأ الصندوق بالأمثلة. في الطريق طلب من السائق التوقف أمام محال أثاث البامبو في شارع رمسيس. اشترى ثمانية كراسي جديدة وطاولتين، حُمّلت فوق الأمثلة.

وصل قبل غروب اليوم الأول في السنة الجديدة بنحو ساعة، كانت أم الغلام واقفة تستطلع، عندما توقفت العربة، وترجّل منها، أخذت تتطلع إليه عاتبة.

- إجراءات يا جدتي. تغيير المكان ليس سهلاً.

- شغلنتي. ولا صلاح يعرف بيتك، ولا سالم طواعني يرجع لك.

قَبْلَ رأسها، وراح يتلقف الحقائب والصناديق من الرجل ويضعها كيفما اتفق. بعد انصراف السائق، شرع ينقل أشياءه. ما يجب حمله إلى الأعلى قبل حلول الظلام، وما يجب أن يظل مغلقاً لحين تجديد المطبخ. فتح صندوقي الكتب ورصّها في المكتبة بجوار كتب الجد، كما فتح أول حقيبة وأسكن ملابسها غُلاقات ورفوف الدولاب. رغم التعب إلا أنه أحس براحة الاستقرار، وشعر أن كل كتاب استقر على رف المكتبة وكل قطعة ملابس في الدولاب بمثابة جذر من جذوره يمتد في تربة البستان.

حلت العتمة فتدبّر طريقه على السلم هابطاً. نظّم كراسي البامبو في الفرندا مع الطاولتين، وأخذ يتأملها. سمع صوت عربة صلاح. في لحظات كان قد وصل وترجّل حاملاً طبقاً مغطى برغيف خبز بيتي كبير مثل مفرش. هتف عندما رأى سامي:

- حمدًا لله على السلامة. فوزية طلبت مني أنادي عليك في ميكروفون الجامع.

قال سامي:

- توفى إلى رحمة الله المغفور له سامي يعقوب؟

- لا يا ابني، بعد الشر، كنت سأقول عيل تايه يا أولاد الحلال!

وضع الطبق على الطاولة، ثم جلس على الكرسي، يجربه وقال:

- مبروك. طقم ملوكي!

نهض، وانحنى على أم الغلام الجالسة على الحصيرة، وأخذ بيدها:

- قومي يا فوزية، اقعدي معنا على الكراسي.

أخذت يدها تتلمص من يده، وقالت:

- أنا مرتاحة هكذا.

- يا فوزية، دوري مع الزمن، الآن معك خواجة، ولا بد أن تتعودي على قعدة الكراسي والأكل بالشوكة والسكين.

- بعد أن وصلت لعمر نوح؟! دُر أنت.

لم تستطع التخلص منه. مضى بها نحو كرسيٍّ ووضعها. بقيت على طرفه، وشرعت تتحسس مخدعيه الخيزران على الجانبين بحذر. قال صلاح ضاحكًا:

- خذي راحتك، ليس من الزجاج.

حملها بالكرسيٍّ ضاحكًا، وأماله للخلف وأخذ يهزه بها، حتى انزلقت إلى عمقه؛ فحطَّ الكرسيُّ. ضغطت ظهرها، وهتفت معجبة:

- الله! عقبال فرش العروسة يا سامي.

رفع صلاح رغيف الخبز فظهر الطبق المقرب ممثلًا بمحشي الكرنب وعلى قمته ورك دجاجة. قال كالمعتد:

- لم أعرف أنك ستعود.

قال سامي:

- الطبق كبير جدًّا، ولم يزل يدجن.

- نعمة أصرت أن أحمل عشاء جدتها قبل أن نأكل. ليصلها ساخنًا.

- كل معنا.

- نعمة تنتظرنني.

نهض مودعًا. وقف سامي يصافحه وقال:

- الفلوس جاهزة، ومتحمس للبناء.
- اترك لي الموضوع. سأنتفح مع بناء جيد هنا.
- فور أن غادر، قالت أم الغلام:
- حبيبي يا صلاح، الناس مناظر. ربنا يقويه على جملة.
- حدق بها سامي ليفهم، قالت:
- كل يا حبيبي، بسم الله.
- من نعمة يا جدتي؟
- حفيدته.
- عندما أخذني إلى المحطة مررنا ببيته رأيت فتاة.
- هي نعمة، ابنة محمود الله يرجعه إن كان عايشًا ويرحمه إن كان ميتًا.
- أين؟
- سافر بالبحر، وغرقت المركب. ومن عشر سنين، لا وصل إيطاليا ولا رجعت له جثة. كانت نعمة صغيرة.
- وأين أمها؟
- تزوجت. وتركتها لصلاح ومراته، بعد كم سنة ربنا افكر الولية. وكمل لوحده تربية البنت.
- هممت أن تضيف شيئاً ثم تراجعته. وبعد أن تناولوا الطعام قامت تُطعم الكلاب، وليث سامي مستغرفاً، إلى حد أنه لم يهش البعوض الذي حط على وجهه.
- في الصباح جاء صلاح، ومعه مراهق في نحو الثامنة عشرة.
- المعلم بركات.
- سأله سامي:
- جاء نيابة عن أبيه؟
- رفع الفتى رأسه مثل حصان عنيد بابتسامة ساخرة على وجهه. قال صلاح:
- بركات هو المعلم، بنى كل معالم المنطقة.
- انطلق الشاب مع صلاح لمعاينة موقع البناء. لحق بهما سامي مع أم الغلام. جلس بركات القرفصاء، يخطُّ تصوره على التراب بغصن جاف. رسم الإطار الخارجي لمربع. وراح يُفسر ما يخطه. رسم بابين متقابلين من جهتي الشرق والغرب، ثم خطَّ داخله خطاً طوليًا يقسم المربع إلى مستطيلين. ليكون أحدهما العنبر المسقوف، بناوذه جهة الشمال، وباب منتصف الجدار الداخلي

يفتح على المستطيل الآخر الذي سيكون ساحة مكشوفة. وفي ركن من تلك الساحة خطط مخزن علف وغرفة ومطبخًا ودورة مياه لعامل. ثم نهضًا لتطبيق المخطط على الطبيعة.

مدَّ بركات شريط القياس بينه وبين صلاح، وقدَّرا المساحة المطلوبة حسب الماكيت، بعشرين في عشرين مترًا. قال سامي:

- ليكن في الجهة الخالية من الشجر.

قالت أم الغلام:

- أريد عشة للطيور.

ردَّ بركات:

- غلط يا جدتي، لا أحد يضع عشة للطيور في معلق.

- ليه يا مفعوص؟!!

ضحك وأجابها:

- كلام الدكاترة والله. لو بلع العجل ريشة طير ينتفخ ويموت.

- طول عمرنا طيورنا تحت بهائمنا.

نزلوا على رأيها، ورُسمت حدودُ عشة الطيور موازية لصف الغرف، فأصبح التخطيط عبارة عن ثلاثة شرائح: العنبر المغطى جهة الشمال بعرض ثمانية أمتار، ساحة مكشوفة في الوسط بعرض ثمانية أمتار، مقتطع منها صف غرف وعشش على طول الجدار الجنوبي بعرض أربعة أمتار.

أخذ بركات يتناقش مع صلاح في تقدير كميات مواد البناء المطلوبة، واتفقا على موعد بدء العمل، بينما يُنصت سامي مندهشًا وسعيدًا. أحس أن هذه الخطوة ستجعله جزءًا من عالم لم يتوقعه أبدًا. برز رأس سحلية من تحت الأحجار، تلفتت في كل الاتجاهات، مرقت من بينهم ثم سكنت تحت الشمس بقربهم.

قبل شروق اليوم الأول للعمل استيقظ على كلاكسات وهدير صاخب. نظر من النافذة، رأى صلاح في عربته يتجاوز السرايا إلى موقع البناء وخلفه عربة رمل. قاوم لذة نوم تلك الساعة المبكرة وهرول هابطًا. وجد أم الغلام قد سبقته إلى الموقع. لاحظ مبتهجًا طبقة الندى تجلج أوراق الشجر والحشائش والبرسيم والنعناع في المروى الصغير الرطب.

قلب الجرار حمولته في المكان الذي حدده صلاح. وبعد قليل حضر بركات على موتوسيكل يجر

خلفه صندوقاً يجلس فيه ستة من العمال. ترجلوا بمعداتهم، قدّم بركات أحدهم:
- المعلم حسن، أبي.

صافحه سامي، وأخذ يتأمله. لا يوحي الرجل بأي قدر من الثقة التي يمتلكها الولد، جسده النحيل ملموم، كأنه يريد أن يختفي. فتح بركات شريط القياس، استل الطرف، وأوقف أباه بالبكرة ومضى بطرف الشريط إلى الجهة الأخرى راسماً خط الطول الذي تصوره عند المعاينة. تحددت الأضلاع الأربعة للبناء بعصيٍ عند الزوايا بينها خيوط، وشرع العمال يحفرون الأساس استرشاداً بخطوط الدوارة. عندما ارتفعت الشمس كانت معجنة الإسمنت جاهزة، وبدأ بركات يضع سطر الأحجار الأول.

في نحو العاشرة جاء رجلان. في يد كل منهما دفتر. رحّب بهما صلاح وتولى مهمة التعريف بينهما وبين سامي:

- الباشمهندس فتوح الحساوي مشرف حماية الأراضي، والباشمهندس شحاتة عسل مشرف الزراعة.

انشغل سامي بالتفكير في سؤالهما عن الفرق بين الوظيفتين؛ فنسي اسميهما. سأل أحدهما أم الغلام:

- ماذا تفعلون يا أمي؟

- كما ترى، نعيد بناء المعلف.

- أي معلف؟

- كان هنا وانهدّ.

- متى كان ذلك؟

- ربما قبل أن تولد.

- يلزمك ترخيص يا أمي؟

قال صلاح:

- نحن لم نتوسع يا باشمهندس، المعلف في مكانه.

- حتى لو كان معلفاً في السابق يا حاج صلاح. كان يلزمكم ترخيص إحلال وتجديد.

أشاحت أم الغلام بيدها. وكان سامي يترقب اللحظة التي سينطق فيها صلاح اسم المهندس الذي يتكلم، بينما يتأمل الرجلين معاً، مثلما كان يتأمل فراشتين مستريحتين على العشب ليكتشف الفروق

بينهما؛ فلم يعرف أضحك أم يبكي من نفسه.

أنت عبيط حقًا؛ لا سبيل إلى الخلط أصلًا!

أحدهما طويل أسمر مثل سمكة رنجة مدخنة، له نظرة ذكية ساخرة، والآخر قصير أبيض يلمع وجهه تحت طبقة من الجلوسرين، وله ضحكة سمجة مستجدية. انتحى صلاح بالرجلين دقيقة، وعاد ليهمس في أذن سامي:

- أحضر ألفي جنيه.

عندما عاد بالنقود وجدهما منهمكين في الكتابة. سألهما عما يكتبان. رد النحيف:

- محضر مخالفة.

- مخالفة؟!!

لم يرد الرجل، وواصل الكتابة. انتبه سامي إلى زبية في منتصف جبهته، والآخر لديه زبيبتان يسار ويمين الجبهة مثل عينين إضافيتين فوق عينيه. انتهى الطويل من الكتابة، ولمح سامي توقيع. أخذ يُنَبِّئ الاسم على الشخص في ذهنه: صاحب الزبيبة الواحدة شحاتة عسل. ظل القصير يكتب كأنه لن ينتهي أبدًا، بينما طوى الطويل دفتره، وقال:

- لا تقلق. هذا إجراء لحمايتنا فقط، سيحتفظ به كل منا في درج مكتبه، لن يخرج إلا إذا جاء

تفتيش، لا قدر الله، من جهة عليا.

اتسعت عينا سامي، فبادره المهندس:

- لا تخف. ذلك التفتيش لا يأتي أبدًا.

لا ينقصك تهديد جديد!

تذكّر عبارة المحقق النحيل بعد استجوابه صباح عيد ميلاده: خذ بالك، عليك حكم في قضية تبديد بالفيوم، في أية مصادفة قد يخرج هذا الحكم. مرر المبلغ لصلاح، فمرره إلى صاحب الزبيبتين. فور انصرافهما تساءل:

- من يضمن ألا يعودا مجددًا؟

كان في قرارة نفسه يريد أن يعرف إن كان سيلقاها مرة أخرى ويضطر لتمييز أحدهما عن الآخر. أجابه صلاح:

- سيعودان، لكننا سندفع ألفًا في المرة القادمة، ثم خمسمئة في كل مرور جديد. ونحن وشطارتنا

في الانتهاء من البناء.

تجاوز المبنى سطح الأرض بقليل. وواصل العمال انهماكهم؛ أحدهم يناول بركات الحجارة، الآخر يعجن المونة ويملأ القصعة للثالث الذي يضعها على الجدار في متناول البناء الشاب، بينما يجلس المعلم حسن مقرصاً قبالة ركية النار، يكوم الجمر حول الكنكة الكبيرة، يزودهم بالشاي باستمرار. يبتعد بركات عن الجدار بين الحين والحين لينظر إلى استقامته، بفخر قائد يقف على أبواب مدينة استسلمت له. ثم يخطو عائداً إلى مكانه من الجدار يوجه أتباعه لإنجاز مهامهم بسرعة، لأنه يفكر بالمدينة التالية.

راح سامي ينظر إلى السرايا. وقد تمكّنت منها الشمس. وتخيل أن جده كان ذات يوم في الموقف نفسه، يتابع ارتفاع بناء السرايا قبل ثلاثة أرباع قرن.

أي بركات بناها؟ بأي شغف؟ ماذا كان شعور سالم باشا يعقوب عندما رأى البناء يرتفع أو عندما رأى الأرض حولها تنهياً وتستقبل الشتلات الصغيرة؟

اكتمل البناء في ستة أيام، جاء خلالها المهندسان أربع مرات. في كل مرة يسأل سامي عن اسميهما، ثم اكتفى بكونهما شحاتة وفتوح. لكن زيارتهما لا تتركه دون توتر، إذ يتذكر شبح التفثيش الذي قد يأتي كما قال أحدهما. ولم ينقطع الزائرون. يقترب الرجل ببطء، يلقي بالسلام، ويقف يتأمل، لا يقول خيراً أو شراً، ثم يجلس فوق كومة أحجار، أو يتقرفص على الأرض، يخطط بإصبعه، وربما يقوم فيناول بركات حجراً. يصب حسن الشاي للزائر، الذي يبتلع رشفته الأولى ثم ينطق بكلمته الأولى، التي قد تكون نكتة، أو هزاً مع أحد العمال، أو ملحوظة حول البناء. وبعد أن ينصرف يسأل سامي عن هويته، فيعرف أنه ليس سوى متطفل من الجوار، جاء ليشرب شايًا أو يرضي فضوله بمعرفة ما يجري.

خلال أسبوعين، صار المعلق جاهزاً ببوابات من الحديد عليها أقفال؛ فانتقلت أصيلة بولديها إلى بيتهما الفسيح الجديد. واستقرت الدجاجات في العشة.

لم تكن ليلة أصيلة الأولى بعيداً عن السرايا سهلة على أم الغلام. ظلّت تؤخر لحظة إدخالها إلى ما بعد آذان العشاء. رافقها صلاح. سحب المعزة إلى العنبر المسقوف، ودفع بولديها خلفها، وردّ الباب وراءها. وأم الغلام صامتة لا تقول شيئاً ولا تتحرك. وضع يده تحت إبطها وقادها إلى الخارج. أغلق البوابة الخارجية ووضع عليها الرتاج والقفل وأغلقه. وقفت تتطلع إلى الباب بحزن، تمشي خطوة وتعود عنها، تدقق في الباب بحثاً عن ثغرة يتسلل منها نظرها لتلقي نظرة على معزتها. قال صلاح:

- ليست مسافرة إلى الخارج يا فوزية.

لحق بهما سامي وأخذ يُكلمها عن مميزات هذا الانتقال للمعزة نفسها، عن المساحة الواسعة للمعلف، والهواء والشمس في ساحته. كان متلعثماً ومحرجاً، كأنه يُقنع أمًا بأن ابنها الميت صار في مكان أفضل. وكزته بالعصا في بطنه برفق، وقالت:

- اسكت أنت يا خواجه!

سمع بركات كلام سامي وصلاح عن تجديد السرايا فتصدى للمهمة. أحضر سباًً ونجاراً وكهربائياً عاينوا المطلوب، وبعد يومين بدأ العمل. استيقظ سامي على ضربات المطارق مبكراً. طرقات آمنة أليفة رغم قوتها. فتح شباك غرفته، رأى الجهنمية المبتهجة، وخلفها العمال يركبون السقالات. تأمل خط النخيل بعد تقليمه فرأى قممه مثل رؤوس بشرية قامت لتوها من تحت يد الحلاق. أخذ يتخيل إحساس فريدة بالمكان. وتذكر طفليها هند وإشراق، واثقاً أنهما سنتسليان كثيراً.

لكن أين فريدة؟!

عندما نزل وجد العمال في الطابق الأول ينظفون روث الماعز ويخرجونه ويضعوه أكواماً صغيرة تحت جذوع الأشجار. أحس سامي بالحرّج من إحضار العمال لطعامهم عندما صاروا بالسرايا نفسها؛ فذهب مع صلاح إلى سراب، وعادا ببوتاجاز، وضعه بالفرنّدا، في حمى الجدار ليقبه من الريح. أخذت أم الغلام تتفحصه بسعادة.

أخذ سامي يقسم وقته بين العناية بالعمال والخروج بالماعز مع أم الغلام. لاحظ بركات شغفه فجاء بمعزة مع ولديها. وقفت أم الغلام أمام صندوق الموتوسيكل تفحص الحيوانات، وقالت:

- عندنا كلاب فوق طاقتنا. رجّعها لأصحابها.

قال بركات:

- المعزة آخر حلاوة، لكنها جائعة.

- من صاحبها يا ولد؟

- فكيهة، دارها قريبة من هنا على ترعة التل.

ولما أبدت عدم معرفة، قال:

- فكيهة العمشا.

- يووه، قطيعة!

قبلت الصفقة على مضض. ووعده بأن يكون للمعزة شأن آخر مع وفرة الأكل. لم ينتبه سامي إلى حوار البناء والعجوز. كان متلهلاً، يداعب الحيوانات الثلاثة المسكينة. في صباح اليوم التالي جاء بركات بنعجة فرح بها سامي وأخذ يلاعبها. وبعد انصرافه من العمل عاد قرب العشاء بعجل؛ فطلبت منه أم الغلام بحسم أن يعود به من حيث أتى. ثم قالت لسامي:

- الولد عجبته السمسرة أريح من شقاء البناية!

في الصباح كانت تجلس أمام قصعة النار، بينما وقف سامي أمام البوتاجاز يعد بيضًا. وصل صلاح ينادي أحدًا وراءه:

- تعالي يا فوزية.

تطلع سامي بفضول. وظهرت نعمة.

صافحها ولم يترك يدها إلا بعد أن استلثها من يده. لاحظ أن صلاح يتطلع نحوهما، فأحس بالخرج. وأشار إليها لتجلس على كرسي. أخذ يسترق إليها النظر بطرف عينه، كأن شيئًا يفوته كلما التفت عنها.

قال صلاح:

- كنا ذاهبين لعمل توكيل للمحامي. قلنا نمرُّ قد تحتاجون شيئًا من سراب.

قالت أم الغلام:

- شوف حد كويس يا صلاح يقعد بينكم وتخلّصوا بالمعروف، المحاكم حبالها طويلة.

- لما يكون خصمك بني آدم.

سأله سامي:

- خيرًا يا عم صلاح، هل هناك مشكلة؟

- أبدأ، سنرفع قضية لطلاق نعمة.

أخذ سامي يتأملها بدهشة. كانت هادئة كأن شيئًا لا يعنيهها. أعجبته طفولة حاجبيها العريضين ولمع الزغب الخفيف على وجهها بلون ذهبي.

هذه الطفلة متزوجة وستطلق؟!!

بينما يهم صلاح بالانصراف، أعاد سؤاله عما يريدون من السوق، فقال سامي:

- نريد خضارًا ولحمًا.

جاء طلب الطعام إلهام اللحظة، الذي سيجعل نعمة تعود مرة أخرى. وبينما تستدير وتمضي وراء جدها احتواها بعينيه. لم تبدُ الطفلة التي رأى زغب وجهها، ولا بدت المرأة التي أربكته جاذبيتها في المرة الأولى. ركبت إلى جوار جدها، ودهست السيارة العشب واستدارت مغادرة. عاد مستأنفًا إعداد الإفطار معتبطًا لأن نعمة ستعود. هيأت أم الغلام الجمر وشرعت في تقمير الخبز. وقالت:

- كان صلاح يقول إننا تأخرنا في رش المانجة.

- نرش، يمكن أن يُزيل المرض.

- فلوس نرميها في الأرض. الناس بدأت تقتلع الشجر وتزرع فراولة أو محاصيل.

- الشجر جميل. نحاول العلاج.

بينما يتكلم مع العجوز كانت حركة نعمة في عباؤها السوداء الفضفاضة لا تزال تخايله كتموج غض مورق.

كيف استطاع رجل أن يستغني عن جسدها الفائض بالنعمة؟

عندما عادا استقبلهما عند العربة. أخذ صلاح يناوله الأكياس، وترجّلت نعمة من الكابينة تحمل الكيس الأخير. سار أمامها بابتسامة أوسع من خطوته. دخل صلاح يستطلع العمل، ووضع سامي الأكياس على طاولة وجلست نعمة أمامها. أخذت تطلب منه السكاكين والأواني. فينطلق إلى الداخل، يفتح الصناديق وينقل إليها الأحجام الكبيرة التي تتسع لطبخ من أجل عشرة أفراد.

تجمع العمال للغداء ووقفت نعمة تغرف الطعام. وبينما يأخذ العمال أطباقهم ويبتعدون للجلوس على سور الفرندا، بقي بركات واقفاً بالقرب منها، يهمس لها بين الحين والحين. وترد عليه مبتسمة. توتر سامي. بعد الغداء ذهب إلى أم الغلام حيث تجلس بجوار المعزتين والنعجة. وجد كومة يانعة من البرسيم أمام أصيلة وولديها، والقليل أمام النعجة، بينما تقف المعزة الجديدة في بقعة قاحلة بلا عشب أو برسيم:

- أنتِ لا تحبين هذه المسكينة يا جدتي.

- مخلوق ضعيف، لماذا أكرهها؟

التقط من أمام أصيلة قبضة من البرسيم، وضعها أمام المعزة الضعيفة، أخذت تتلفت يميناً ويساراً بقلق قبل أن تلتقط عوداً منه وتمضغه بعجلة بينما ينقوس جسمها كله، دون أن تكف عن التلفت.

- رأيت؟ تربية جوع. متعتها في السرقة.

أخذ يُرَبّت ظهر المعزة، فتقافزت ثم استكانت ليده، ولوت رأسها تتشممه. رأى شيئاً من التعاطف في عيني العجوز، فتشجع واقترح:

- لماذا لا نُطلقهم، يرعون بحرية يا جدة؟

- ليست لي قوة لأجرى وراء الحرامية إن شردت. إن كان فيك الله يعطيك.

- سأجرب.

بدأ بإفلات حبل أصيلة؛ فظلت واقفة تأكل من كومتها، وتركت النعجة كومتها الصغيرة واتجهت إلى كومة أصيلة تزامها عليها، وعندما فكَّ وثاق المعزة الضعيفة شردت بكل قوتها. أخذت تناور بين جذوع الشجر وخلفها يجري طفلها الضعيفان. جري وراءها وساعده الكلاب على محاصرتها حتى أمسك بها.

قالت أم الغلام:

- ها، شفت؟ الطبع طبّاع.

- الخوف يا جدتي، أفضع لعنة.

ربط المعزة، وسط عشب غض، مطيلاً لها الحبل، فأخذت تدهس العشب يميناً ويساراً وتتطلع إلى كل الجهات.

مسكينة، تحرسه من المنافسين بدلاً من أن تأكل.

أحس أن «مسكينة» اسم مناسب، بدلاً من «حرامية» الذي تُطلقه عليها أم الغلام. وشجعه الجو المشمس على تجربة شيء مختلف، بعيداً عن البستان وورشة الإصلاحات بالسرايا. قرر أن يذهب إلى المدينة. وحين شرع في الخروج، وجد رجلاً يقف على المدق أمام السرايا. حيّاه الرجل وقال:

- أنا قاصدك في خدمة ياباشا.

- تحت أمرك.

- عندي عملية، والفلوس ناقصة مئة جنيه.

- أية عملية؟

- جراحة يا باشا. عندي ثقب، لا مؤاخذه، في القضيب يُسرّب الحيوانات المنوية، ولا أستطيع الزواج دون إجراء الجراحة.

بدا الرجل فوق الخمسين. ليست له هيئة متسول، بل مزارعاً من الجوار. بنيته قوية. جلبابه الأزرق باهت اللون لكنه نظيف. أخرج ثلاثمئة جنيه. التقطها الرجل ورفع صوته بالدعاء. زعقت أم الغلام من مكانها:

- فارس يا ناقص. لا تعطه شيئاً يا سامي.

هرول الرجل هارباً. قبل أن تصل أم الغلام. بصقت خلفه، وقالت:

- الرخيص عديم الحياء، استغفلك. من يومه يشحت على ثقب السخام.

قضى نهاره يتجول في سراب. وتعزز انطباعه بتداعي المدينة. يمضي من شارع ضيق يتراكم

على جانبيه التراب إلى شارع أضيق معتم بأكوام قمامة ننتة. وفجأة رأى السماء واسعة زرقاء مشرقة وصارت الأرض فسيحة كالسما. اكتشف أنه وصل إلى الغابة التي كانت تعج بالمتنزهين، بأشجارها المتنوعة من الكافور والفيكس والبونسيانا والتين الكاوتشوكي بجذوعه الضخمة التي فتنته في طفولته.

اخترق الغابة، حتى وجد نفسه على شاطئ البحيرة، ومضى على الرصيف الفسيح المظلل، وتعلقت عيناه بقمم الأشجار وتشكيلات الغمام الصافي التي تمضي في عكس اتجاهه، برأس مرفوع استغرق في مراقبة السرعة التي يفترقان بها هو والسحاب. وفجأة انتصب أمامه حاجز معدني يسد طريقه. لمح لافتة على حصن شاهق. مديرية أمن سراب. أحس أن المبنى يُحَدِّقُ به ويرى ما تحت ملابسه؛ فنقلص جسده واحدودب ظهره، وأخذ يقاوم خوار ساقيه. تلفت ليرى إن كان هناك بشر غيره في مثل موقفه فلم يجد أحدًا. أجبره الحاجز على النزول إلى حارة وحيدة متبقية من بحر الشارع تمرق منها السيارات مسرعة، بينما احتجزت الأسيجة الحديدية بقية عرض الشارع الفسيح جهة سور المبنى. أخذ يُنْقَلُ قدمين لا يحس أنهما تتصلان بجسده ولا يشعر بدبيبهما على الأرض. كاد يبكي لأنه غادر جنته الهادئة.

بعد أن تجاوز المبنى وحواجزه عادت السماء والأرض واسعتين، وعاد السحاب يجري بتلقائية، لكن كل ذلك لم يعد يعنيه. كان يريد أن يعود إلى السرايا بأسرع ما يمكن. أشار إلى أول تاكسي. توقف له. فتح الباب وجلس إلى جوار السائق وأخذ نفسًا عميقًا. سأله السائق عن وجهته، انتظر ثوان قبل أن يجيبه:
- سوق السمك لو سمحت.

أخذ ينظر إلى السائق، الذي بدا غاضبًا ربما من تأخر سامي في إخباره عن وجهته، وربما لأن طريق سوق السمك صعب. ولم يقل له سامي إن السوق لم يكن وجهته، وإنه لم يكن قد فكّر بشراء السمك.

عاد من المدينة في غبشة الغروب، لكن العتمة استحكمت بمجرد أن انعطفت السيارة وصارت على المدق. في ضوء كشاف السيارة العالي، رأى أم الغلام واقفة مثل علامة استفهام نحيلة. عندما ترجل حاملاً مشتراواته أشاحت بوجهها عنه. كانت قلقة وغازبية. اعتذر عن التأخير واستبقها إلى الداخل. احتاج إلى بعض الوقت لكي يطوح بثقل سراب وراء ظهره، ويفكّر بإعداد وجبة حلوة، يُقنع بها أم الغلام أنه يجيد شيئًا. أعد سلطة خضراء، ثم شرع في تنبيل السمكتين الكبيرتين اللتين أحضرهما. حشا بطنيهما نعناعًا وقليلًا من الفلفل الأسود والملح والليمون. ولفَّ كل واحدة في دثار

من أوراق الليمون والمانجو، وربط عليها بسلك رفيع.

بينما كان يوقد النار، أطل رأس صغير أبيض الشعر كالتلج، وتلقت كراس ثعبان يستطلع، قبل أن يدفع بصدرة النحيف، ثم ظهر باقي الرجل. كان يعرج وأخذ يدفع بجذعه إلى الأمام في موجات، ثم وقف مرهقاً تتلاحق أنفاسه. رفعت أم الغلام نظرها إليه، وهتفت:

- يا قاعدين يكفيكم شر الجايين!

- أهكذا تقدميني إلى سعادة الباشا يا نجف؟

كان سامي قد نهض ومد له يده مصافحاً. قال الرجل معرّفاً بنفسه:

- كامل بدوي.

قرّب له كرسيّاً بجوارهما أمام النار. جلس. وبعد أن استعاد إيقاع تنفسه قال بصوت استعراضي متعمداً أن تسمعه أم الغلام:

- أخيراً جاءنا إنسان! إنسان من المجتمع الراقى.

ابتسم سامي في حرج، وقال:

- لا أعتقد أن هناك مجتمعاً راقياً وآخر غير راق.

- دعني إذن أقولها بشكل أكثر تحديداً. هناك بشر وهناك مخلوقات.

وأشار إلى أم الغلام التي أضاف وهج النار إلى وجهها حيوية وشباباً، وقال:

- هذه مثلاً، مخلوقة!

قالت:

- اسكت يا ناقص.

ابتسم، وسأل سامي:

- ماذا تشوي يا صاحب السعادة؟

- سمك.

- بهذه الأناقة؟ فهمت يا نجف، لماذا أمدح الذوق الراقى؟

أحس سامي بالإطراء فتمددت ابتسامته، وقال:

- هذا شيء بسيط.

- قد يكون بسيطاً لكنه يقول كل شيء. تعرف يا سامي باشا؟ أحب أن أعرف الإنسان بأنه حيوان

يطبخ. هل قرأت تعريفاً كهذا من قبل؟

لم ينتبه سامي المشغول بتقليب الشواء؛ فردّ:

- نعم، نعم.

- نعم؟! في أي كتاب، قل لي، سيكون على كل حال توارد أفكار ظريف.

قال سامي:

- نعم، لا.. ماذا كنت تقول؟

- سألتك عن تعريفي للإنسان كحيوان يطبخ، هل قرأت فكرة كهذه من قبل؟

- لا، لم أقرأ، وهي فكرة مثيرة حقًا. أنا أيضًا أحب الطبخ.

وتطَّلع إلى وجه كامل باهتمام، اكتشف شقخته المبرقشة بنمش وثاليل بنية بحجم حبات العدس، ولحية نابذة بشعرات متناثرة، بيضاء مثل شعر رأسه القصير الأجد. هسَّ كامل بعوضة متذمرًا، فعادت بإلحاح. لطمها على وجهه ثم سحبها فصنع دمها خطأ على خده. ومد يده إلى صينية الشاي على الطاولة، عدل الكوبين المقلوبين فوقها، ثم أخرج من سيالة جلبابه زمزية. وقال قبل أن يسكب:

- قليل من النبيذ يا باشا؟

شكره سامي معنذرًا ببسط كفه على صدره. سكب كامل لنفسه. جرع وممص شفثيه مستحسنًا.

ثم تأمل بقايا البعوضة في يده، وسأله:

- هل تؤمن بالله يا صاحب السعادة؟

تحير سامي، وقالت أم الغلام:

- الله، الله! بدأنا شغل المجانين!

- لا تهتم بهذه المرأة، الأمر مربك حتى بالنسبة لي أنا الذي عشت ورأيت، لا تؤاخذني، أنت أكبر مني مقامًا. وجود البعوض والذباب يجعلني أميل إلى أن الله غير موجود، وأن الطبيعة تلقي علينا بالنقم كما تلقي إلينا بالنعيم، بشكل عشوائي تمامًا. أما لو كان موجودًا فالوضع أكثر إرباكًا؛ لماذا يخلق حشرات شريرة كهذه؟!

قال سامي:

- مثلما يخلق شرًا أكبر لنعرف به الخير ونرضى بالشر الصغير.

بدأ كامل يجرع بسرعة أكبر، وقال:

- الخير والشر، من أكثر الكلمات غموضًا بالنسبة لي.

قالت أم الغلام:

- ربنا خلقك أعرجٍ لتتعظ، لكنك فرعون.
- ليس بي دماغ لأم الغلام هذه الليلة يا سامي باشاء، دعني أسألك..
- أحست أم الغلام بالضيق، فقاطعته:
- بدل الهلطقة، اعمل شيئاً ينفع وأصلح البنت مع زوجها.
- غُلبت يا نجف، الولد مجروح من الكلام الفارغ الذي قالته البنت بحقه.
- قال سامي:
- أي بنت؟
- نعمة حفيدة صلاح، زوجة ابني آدم.
- سكت سامي وبدأ يتطلع إليه، كأنه يحاول أن يستوعب. قال كامل:
- أردت التشرف بزيارتك منذ عرفت بوجودك، لكن ترددت خوفاً من الاحتكاك بصلاح هنا.
- نقل سامي السمك من النار إلى الطاولة، ثم كشف طبق السلطة، وقالت أم الغلام:
- انكتم يا كامل وقرب من الأكل.
- لست جائعاً، لكن أمرك لا يُرد.
- صبَّ كأساً ثانية وقال:
- من يُقدِّر الطعام الجيد لا غنى له عن النبيذ، إنه سلوك رفيع، هل سمعت يوماً عن حمار يشرب نبيذاً مع العليقة؟
- شرع سامي في فتح اللفافتين ففاحت الرائحة. هتف كامل:
- الله أكبر!
- قالت أم الغلام:
- الآن، أمنت بالله يا وسخ؟!!
- الله بداخلنا يا نجف، أنا فقط عندي أسئلة.
- أخذ أول قطعة من السمكة ووضعها في فمه، وهتف.
- الله! الله! لم أكل سمكاً بهذه النعومة والسخاء.
- بدأت أم الغلام تتذوق مترددة، ثم أخذت تأكل باستمتاع.
- بعد الأكل، جمعت البقايا بينما تنادي الكلبة. حذرها سامي:
- بقايا السمك ليست جيدة للكلاب.
- كلابنا بنت شقاء مثلنا، تأكل الحديد.

أخذت الكلبة تتشمم بينما ينتظر الأبناء قرارها، ثم انصرفت محبطة. قال كامل:
- جئت لأنقذك من خطة هذه السحلية، لا تؤاخذني، فأنا لا أعرف إلا الصراحة.

قالت أم الغلام:

- سحلية يا ابن تفيده الهبله؟!!

تجاهلها، مستمرًا في مخاطبة سامي:

- المعلف شغل فلاحين ليس لك.

قالت أم الغلام:

- نبي مصنع خمرة؟!!

ابتسم كامل، وقال:

- يا سلام يا نجف! تبقي عملت حسنة واحدة في حياتك.

ثم التفت إلى سامي:

- العجوز لا تريدني أن أقلبك ضد خطتها.

قال سامي:

- أظن أن جدتي تريد أن تستريح الآن.

حمل كامل زمزميته قائلاً:

- في المرة القادمة تتذوق طبخي.

- ممتاز. ما رأيك لو أتيت غدًا لنطبخ غداء للعمال؟

- عمال؟! عفواً، تريدني أن ألقى باللؤلؤ للبهائم؟!!

تبددت ابتسامة سامي، وقبل أن ينطق استدرك كامل:

- لا تزعل مني، هم أنفسهم يعرفون أنهم بهائم ولا يزعلون.

واصل سامي صمته، بينما هزَّ كامل يده بقوة، ثم قال يسترضيه:

- لم لا، سأطبخ لهم، هم في النهاية من مخلوقات الله.

وشرع يحجل مغادرًا، ملفيًا بظهره للوراء؛ فكان أول ما انصرف منه ساقاه.

في أوقات الخوف والحزن أدرك سامي كيف تصبح اللحظة دهرًا. لكنه اكتشف أخيرًا أن الأوقات السعيدة، كذلك، بوسعها أن تتمدد.

اكتملت أعمال الترميم، وصنع جريان الماء في الصنابير فارقًا كبيرًا في الحياة، بعد تركيب خط ماء جديد بدلًا من ذلك الذي أكله الصدأ وأخرج العمال مفتتًا. ولم يتبق سوى إدخال الكهرباء التي لم تدخل السرايا من قبل. لكن عدم وجودها لم يشكل عقبة كبيرة، بل جعله يدور مع إيقاع الطبيعة، يستيقظ مع أول شمس، ولا يسهر في الليل كثيرًا.

أخذ فرصته للقراءة والاسترخاء، مثل سباح مستلقٍ على سطح الماء مستمتعًا بهدهدة الموج. وصارت هناك سبع غرف بخلاف المكتبة صالحة للاستخدام، وبات يحتال على المنغصات الصغيرة. وأسوأها البعوض، صار لا يفتح في النهار سوى المكتبة، ويستخدم لنومه ثلاث غرف بالتبادل ليلة بعد أخرى لمرأوعة الحشرة الدموية. يقضي ليله في إحداها، وعندما يستيقظ يغادرها ويغلق خلفه بابها بسرعة قبل أن تتسلل حشرة، ولا يدخلها مرة أخرى إلا بعد ليلتين.

بين ليلة وأخرى يأتي كامل، يثرثران ويستمعان إلى الموسيقى، ثم ينام سامي حتى يشبع، دون أن يجد ضرورة لمعرفة اليوم عندما يستيقظ. يدرك الوقت من خلال ما يعتريه ويعتري جنته الصغيرة من تغيرات. وقد أخذ النهار ينمو يومًا بعد يوم، ومعه يزيد الدفاء؛ فشرعت غصون العنب والكمثرى والبرقوق تستيقظ. دبَّت فيها العصارة ذاهبة بلونها نحو الاخضرار، قبل أن تنبتق منها براعم جديدة مثل حب شباب، أخذ يفتح عن وريقات صغيرة. وبدأ نعناع قنوات الماء يدفع ببراعم جديدة سرعان ما تصبح أوراقًا ينطلق فوحها مع كل هبة هواء، وصارت خضرتها أفتح وأكثر إشراقًا. وبعد رش المانجو بالمبيد القوي اختفى البعوض يومين، ثم شرعت الأشجار ترسل بأغصان جديدة وعناقيد زهر. لكن أم الغلام بدت منطفئة، سارحة. سألتها سامي:

- ماذا بك يا جدة؟ آخذك للطبيب؟

- ابن يومين ما يعيش ثلاثة.

همس صلاح:

- لا تخف. هي دائمًا هكذا في ذكرى موت سالم.

قالت:

- موت من حيا، ننقل الحيازة باسمك يا خواجه.

اتفقت مع صلاح. قاد بهما عبر طريق مرصوف على ترعة كبيرة، وتوقف أمام مبنى يحمل لافتة «الجمعية الزراعية لناحية تل المساخيط». مضى أمامهما داخل ساحة فسيحة للمبنى تتكسد فيها شكاثر السماد وجراكن المبيدات، وصعد سلمًا إلى الطابق الثاني، ثم توقف أمام باب، وألقى بالتحية:

- صباح الخير يا باشمهندس شحاتة.

التفت الرجل، ووقف مُرَجَّبًا. ودعاهم للدخول. بينما يصفحه، حدَّق سامي بزبيبته، حتى تحسسها الرجل النحيف تلقائيًا. أجلس أم الغلام على الكرسي المتاح بغرفته، وخرج وعاد بكرسيين آخرين. بدا المكتب الحديدي الصديء الذي يجلس خلفه مثل مفارقة ساخرة مع الغرفة الفسيحة ذات السقف العالي.

لم يستغرق تقديم الطلب دقائق. وبعد شهر صارت الحيازة بيد سامي، وبدأت إجراءات إدخال الكهرباء. وأخذت شكل الملحمة؛ فليس هناك من أوراق للسرايا غير عقد الهبة والحيازة الزراعية للأرض التي تقع ضمنها. يجلس في كابينة العربة إلى جوار صلاح وينطلقان في رحلات إلى الإدارة بمدينة تل المساخيط القريبة، تربيكه شوارعها التي تتداخل فيها الموتوسيكلات مع السيارات والتكاتك وعربات الجر، ولا يزيد ميدانها الرئيسي على مساحة غرفة تتوسطها نافورة قبيحة من السيراميك جافة يحيط بها سياج من قضبان حديد. تطلب الأمر الحصول على موافقات الإدارة الأعلى في سراب، وبدا ذلك مستحيلًا، لكن صلاح استطاع أن يتدبر الأمر بهمسات مع الموظفين، تنتهي بابتسامات تتفاوت تكلفتها المالية حسب سلطة كل منهم. بالنهاية. تم مد الكهرباء فوق أعمدة انتصبت على طول المدق حتى السرايا، حملت مصابيح أصابت أم الغلام بالقلق. لكنها وقعت في غرام الأجهزة المنزلية.

وكثر تردد نعمة على السرايا. يُقلها جدها في الصباح. يحييها سامي عند تلاقيهما أمام السيارة. ترد بصوتها المراهق، وتنظر إليه بملء عينيها المشرقتين بغبطتهما الخاصة، ثم تهزول راقصة مثل طائر الفلامنجو لتمكث مع أم الغلام. ويجلس مكانها قبل أن يتبدد دفء الموضع الذي تركته على كرسي العربة. يرقب تأودها حتى تتعطف إلى الفرندا، وتعترى وجنتيه حمرة عندما يرى أن صلاح يتأمل تحديقه بها. وعندما تستوي العربة على الطريق السريع يكون قد اعتاد موضعه على الكرسي. وتبدأ سيطرته على نفسه. يُحاول تقييم الوضع كله. لا يتوصل إلى شيء. ويُفكر بفريدة. يخرج صلاح من فوضى أحاسيسه بملاحظة على سيارة تجاوزته بطريقة خطيرة أو يطلب منه تذكيره بإحضار شيء طلبته أم الغلام، وقد تحسنت. وعادت تناقش أمور المستقبل. أبدت رغبتها

في شراء قليل من البهائم تناسب حجم المعلف وما أنفق فيه، وأخبرها صلاح بضرورة الإسراع إذا كانت النية موجودة، لأن الأسعار في تزايد، وجلس سامي صامتًا، لا يفهم الحاجة إلى بهائم أخرى. وقال صلاح:

- سنحتاج إلى عامل يا فوزية.

دلّه نور مختار الحدّاد الذي صنع أبواب المعلف على شاب من أسوان، خدم من قبل في مزرعة بالجواري. وشرعوا في تأثيث غرفة العامل في المعلف بسرير ودولاب ملابس وثلاجة وبوتاجاز وبضعة أوانٍ لمطبخه الصغير، حتى يعد لنفسه إفطارًا أو وجبة إذا جاع في الليل.

لم يعرف سامي ما تقصده أم الغلام بـ «حتتين بهائم» لكنه أحب الماعز ويريدها دون غيرها. اكتشف أنه حيوان، رشيق، ونظيف، رغم أنه لا يمنح الأمان بعكس الكلاب.

لو كانت الكلاب تُذبح لأصابها القلق ذاته.

صار إحساسه بقلق الماعز سببًا إضافيًا لتعاطفه معه، والإعجاب بذكائه. عندما يقترب من معزة تنظر في عينيه، وتعرف نيته بدقة، إن كان مروره عابرًا بالفعل، أم يمكر ويتظاهر بعدم الاهتمام ليتمكن من الإمساك بها. بدوافع بعضها اللعب، وبعضها الحب وبعضها حس العدالة. بدأ يمنح الماعز الأخرى أسماء. ابن أصيلة المبتهج دائمًا أسماء «سعيد» الآخر الذي اكتشف أنها بنت تبدو متفكرة أسماها «فهيمة». وفكّر في تسمية المعزة الجديدة «المسكينة» فلم يعجبه. فكر في «القلقة» ثم استقر على «الحائرة» وسمى ولديها المتخاصمين دومًا على ضرعها الجاف «ناقِر» و«نقير» وأطلق على النعجة اسم «ابتهال» لأنها لا تكف عن رفع رأسها نحو السماء.

أرضاه مبدئيًا أن الحيوانات تألفت مع الحرية كما توقع. ترعى راضية بالحدود التي وضعتها الكلاب. لكنها لم تكثرث للأسماء التي سمّاها، ولم يلمس من أم الغلام استعدادًا لمناداة حيوان غير أصيلة باسمه. زاده ذلك عنادًا وإصرارًا. في صباح صاف بلا ريح ولا غبار، جلس بجوار العجوز خلف القطيع، يسألها عن أسمائهم؛ فأشاحت بيدها:

- أنا عندي دماغ يا خواجة؟!!

- لكنك تنادين أصيلة باسمها دائمًا.

- كفاية أخذتها من حضني؟

- حضنك؟!!

- أنت نفسك ستنيهما في حضنك لو كان بينك وبينها ما بيني وبينها.

ظهر في السماء قوس أحمر أخذ يقترب، فميّز الطيور الوردية التي لم تلبث أن حطت على مقربة منهما، في بقعة خالية من الأشجار، وأخذت في تنظيم نفسها متضامة في شكل مربع منتظم الأضلاع، كأنما هناك سياج غير مرئي ألزمها بحدود هرولتها الراقصة.

- انظري يا جدة! طائر فلانجور.

- الله! الوز الأحمر. لم يظهر في نواحيننا من زمان. كيف عرفته خواجه؟

- من التليفزيون.

أخذ يتأمل الطيور الرشيقة التي رآها من قبل في قناة ناشونال جيوغرافيك، وتركت في نفسه رغبة مؤجلة في السفر إلى كينيا ليراها في موطنها بالقرب من بحيرة ناكورو. وملاه رقصها أمامه بالبهجة، بينما كان متشككًا أمام الشاشة في واقعية الطائر الذي يتمتع بساقين طويلتين وعنق انسيابي نبيل. عرف أن عددًا قليلًا منه كان يمر بمصر خلال مسار هجرته السنوية، لكن زيارته لمصر تباطأت وصارت تقتصر على بحيرة البردويل وأحيانًا محمية الجميل. ولم يتوقع أبدًا أن يراه بعينه.

بدأت المناقير السوداء المعقوفة والأعناق الجميلة تتلامس وتتهاوش؛ فبدت مثل حقل من عصفور الجنة تداعب الريح ورداته. وعندما بدا أن كل طائر قد وقع على حبيبه، أخذ السرب يفسح فراغات بين الصفوف، فتوسعت مساحة حلبة الرقص، ثم انطلقت الطيور تجري في البرسيم؛ شوط ذهاب، ثم شوط عودة. هبّت أم الغلام بعصاها تلاحقها حتى لا تُفسد الزرع، فشرعت تحلّق متمهلة دون فزع، وارتفعت في السماء متناغمة مثل سرب طائرات يقدم استعراضًا تدرب عليه طياروه طويلًا.

لولا لدغة نملة نبّهته لاعتقد أنه في حلم أو أنه يشاهد مسلسل أطفال بألوان رسومه الخيالية المفرحة، حيث تلونت السماء أمامه بلون مربى الفراولة التي يحبها، وأخذ السرب يبتعد حتى صار الأحمر نقطة بعيدة، وعادت للسماء زرقنتها. غمغمت أم الغلام كأنها تحدث نفسها:

- غريب. في عمري كله لم أره إلا مرة واحدة من قبل.

- متى يا جدة؟

- السنة التي تزوجت فيها. سنتزوج هذه السنة يا خواجه. نعمة سننطق من العيّل الخايب

وتنزوجها.

- نعمة؟ ... أنا لا أفكر في الزواج.

- عبيطة أنا يا ولد؟ لا ترى نفسك، عندما تظهر!

وأخذت تحرك يديها في الهواء تشرح حركته وارتابكه، ثم همست:
- وصلاح فرحان قوي.

- كنت تتكلمين عما بينك وبين أصيلة يا جدة.

- شاطر. تغير الموضوع. لن أريحك.

لم يعرف ماذا يقول، تحول ببصره إلى المدق حيث ظهر شخص طويل نحيف يلبس جلبابًا قصيرًا، ويحمل فأسًا على كتفه. تطلع الرجل نحوهما ولم يقل شيئًا. سألتها عنه، قالت:

- الحافي، عبد السلام، الابن الوسطاني للمجروح.

عندما صار الرجل محاذيًا لهما؛ بدت قدماه حافيتين بالفعل. ترك المدق واختفى داخل بستانهم، التفت سامي وأم الغلام إلى الماعز، فاكتشف كلاهما أن الحائرة غير موجودة. هروا يبحث عنها هنا وهناك داخل البستان دون أن يعثر لها على أثر. نهضت العجوز وقالت:

- رجّع البقية للمعلف.

مضت في أثر المعزة، سألت عنها الجيران، وعادت بعد مدة طويلة، تضرب كفًا بكف:

- يمكن وصلت الطريق السريع وسهكتها عربة؟

سألها سامي:

- هل توجد هنا ذئاب؟

- أين الذئب الذي يقبل جيفة كهذه؟!

لم يرد، وأخذ يفكر في ناقر ونقير اللذين سيصبحان يتيمين.

بعد العصر لم يخرج الماعز لوجبة آخر النهار، واستأنفا البحث حتى تددت الشمس بحذاء رؤوس النخيل. ظهر على الأرض ظل ضخم يتقدم على المدق. نظر سامي، فأعشت الشمس عينيه ولم ير الشخص القادم، فبدأ الظل في زحفه على الأرض مخلوقًا خرافيًا

لا أصل له. عندما وصل الرأس إلى المعلف، ظهر صاحب الظل أمام سامي. ألقى بالتحية. تقدم منه سامي وصافحه، ووقف للحظات يتأمل الشاب الفارع كعود الزان؛ البشرة الأبنوسية، جلباب الصوف الأسود بقلم أبيض دقيق، ومن قبله يظهر قفطان من الحرير الأبيض مقلّمًا بالأسود. كان يضع على كتفيه شالًا صوفيًا أخضر تزيينه رسوم لحيوانات خرافية، يحمل في إحدى يديه حقيبة كبيرة وبالأخرى يمسك بعصا خيزران غليظة. بسطة جسمه تمنحه مظهر رجل تجاوز الأربعين، لكن وجهه الأمرد الغض يقول إنه لم يبلغ العشرين.

- أنا حمادة.

قالت أم الغلام:

- من طرف نور مختار؟

- نعم، زوج أختي.

- لم يقل إنه زوج أختك!

سار سامي أمامه، وسارت خلفهما أم الغلام وصعدوا إلى الفرندا. وضع الفتى حقيبته على الأرض، وأسند عصاه على الدرايزين. دعاه سامي إلى الجلوس؛ فلملم أطراف طبقات أثوابه، وجلس. قالت أم الغلام:

- تأكل أم تشرب شايًا؟

- شاي يا حاجة.

أخرج علبة تبغ وشرع في لف سيجارة. قال سامي:

- حقًا، لا تريد أن تأكل؟

- أكلت من ساعة عند أختي. وصلت عندها من كوم أمبو أمس.

أنت من أسوان نفسها؟

- من «الجنينة والشباك» واحدة من قرى التهجير النوبية في كوم أمبو.

تهلل سامي، وقال:

- زرتها عام 2006 بصحبة أبي، مع رحلة للنادي النوبي في القاهرة. وذهبنا إلى بحيرة ناصر والسد العالي.

أخذت أم الغلام تنفّس حمادة، الذي يتم على هندامه بين لحظة وأخرى، وهمست لسامي:

- من الذي سيخدم هذا العُمدة يا خواجه؟

سمع حمادة همسها. لم يبتسم أو يعبس. أغلق علبة التبغ وأعادها إلى جيب قفطانه تحت الجلاب، ثم أشعل السيجارة. وقال بهدوء:

- لا يا حاجة. أنا اشتغلت سنين هنا في تل المساخيط.

تناول منها الكوب ووضع على الطاولة أمامه. وشرع يبادل بين نفس من السيجارة ورشفة شاي. ضاعف الصمت من صوت رشفاته. انتظرت أم الغلام أن يضع الكوب الفارغ أمامه. وقالت لسامي:

- قم، خذه إلى غرفته.

وكما لو أنها انتبهت إلى رقة اسمه فجأة، سألته:

- حمادة؟! اسمك عند الحكومة حمادة!؟

- اسمي الحقيقي باسم، لكنني أستحي منه، وجعلتهم ينادونني حمادة.

ضحكت حتى ظهر حلقها في ظلام فمها، وقالت:

- معك حق، حمادة أحشم من باسم!

رغم اقتناع سامي بحجج أم الغلام وصلاح حول وجوب سكن العامل في المعلف، ورغم أنه أثنى غرفته بما يلبي راحته. شعر بالحرج بينما يقتاده إلى هناك. عندما دخلا أخذ حمادة يتفقد الغرفة، دون أن يبدي انزعاجًا أو إعجابًا. لم يجد سامي الكثير ليشرحه له. وقال:

- استرح ساعة، ثم تعال إلى البيت لنتناول العشاء.

وقبل أن يستدير لينصرف عبرت أمامه صورة خاطفة مريعة لحمادة، رآه يلقي بنفسه من فوق جسم السد العالي. أحس بقشعريرة وهمٌّ باحتضانه ففرع الفتى، ثم مدَّ يَدًا متصلبة. صافحه سامي وظل يتفرّس فيه بإشفاق ذاهل. ثم تمالك نفسه وعاد إلى تذكيره بالعشاء، وخرج جاذبًا خلفه الباب بكمد. عندما عاد إلى الفرندا، وجد كامل وقد جلس ووضع زمزمية نبيذه على الطاولة وبدأ مشاغبته مع أم الغلام. سأله سامي:

- كيف نُعدُّ عشاءً لذيذًا احتفالًا بضيف يا شِف؟

ابتسم كامل، وفي عينيه نظرة المماحكة الساخرة التي بات سامي يعرفها؛ فقطع عليه الطريق:

- أرجوك، لا تقل شيئًا الليلة عن المستويات.

لكن كامل لم يفوت الفرصة:

- لماذا لا تُصدق أن إظهار طعام الخاصة للعوام فتنة.

بات سامي يعرف أنه يبدأ بالممانعة، لكنه لا يستغني عن الرضا الذي يغمره عندما يجد تقديرًا لطبخه. وفهم أن ذمه لمن يسميهم العامة، ليس حقيقيًا، لكنه وليد الإحباط من استخفاف زوجته وأبنائه بطبخه. أخذ يستميله ويضعه في جو الفخامة الذي يعشقه:

- لدينا ضيف واحد، يا سيد كامل، سفير الجنية والشباك في تل المساخيط؛ فماذا تقترح أن نُقدِّم

له؟

- صينية من اللازانيا مع الـ House wine يا سيدي.

- اللازانيا فكرة ممتازة، لكن لا داعي للنبذ؛ فسعادة السفير يبدو حشاشًا يا صاحب السعادة!

انطلق في اللحظة ذاتها غناء. أشارت أم الغلام إليهما ليُنصتا. قال كامل:

- من أين يأتي هذا الصوت؟

أشار سامي جهة المعلق:

- يبدو من عند حمادة.

قالت أم الغلام:

- ولا كلمة فاهماها.

قال سامي:

- الصوت قادم عكس الريح.

قال كامل:

- أي ريح يا صاحب السعادة؟ هذا غناء نوبي.

ونهض بالزمزية في يده، فتبعه سامي إلى المطبخ. صبَّ كأسين، بينما يقول:

- لنتشارك النبيذ والعمل!

بينما يعملان أعاد ملء كأسه، بينما كان سامي يناوله ما يطلب، ثم يمتص جزءًا قطرة من سائل

أقرب للخل منه إلى النبيذ. نضجت الطبخة لكن جاءه استدعاء من البيت فلم يبقَ للعشاء. عندما عاد

حمادة من المعلق بدأ سامي يخرج الأطباق. قالت أم الغلام:

- قم يا شاطر، ساعد الباشا.

انتظر حمادة لحظات ثم شرع بالوقوف. أشار إليه سامي:

- لا تقم. أنت اليوم ضيف.

عاد إلى جلسته المستريحة يدخن، متحاشيًا النظر إلى أم الغلام، بينما تتوالى الأغنيات التي تركها

مفتوحة في المعلق، تصل إلى الفرندا منهكة بفعل الريح. طلب منه سامي أن يغنيها؛ فغنى:

صندلنجا صندلنجا

صندلنجا وصندلي

صندلنجا صندلنجا

صندلنجا سنجو بالا

ثم سحق السجارة تحت حذائه، وشرع يأكل متأنياً دون أن يبدي أي تعليق أو يظهر على وجهه

المحايد أي تعبير. بدأ سامي يراقب صمته. في لحظة يحس بأنه يزرع تحت عبء حزن ثقيل، مرة

يبدو متكبراً، مرة خجولاً، ثم يتراجع عن كل تصور للفتى الذي يجلس واثقاً محايداً كحجر. أخيراً

اعتبره من الموهوبين في الصمت. أكل حمادة قليلاً، ثم أشعل سجارة جديدة. وسأل أم الغلام:

- عندك شاي يا حاجة؟

أشارت إلى الكنكة:

- صُبَّ لنفسك.

شرعت تسأله، ويجب متأنياً في حدود السؤال. قال إن المزرعة التي خدم بها في هذه الناحية كانت فيلا وحولها مساحة صغيرة من أشجار الزينة، وإن مهمته خلال سنوات كانت حراسة الفيلا وفتح الموتور لري الشجر، وزراعة حوض صغير من الخضراوات، لنفسه وللمالك الذي يأتي بين فترة وأخرى من القاهرة مع بعض أصدقائه لقضاء بضع ساعات.

- يعني لم تخدم بهائم؟!!

- لدينا بهائم في الجينة والشباك يا حاجة.

أشاحت أم الغلام برأسها، وعمّ الصمت. أخذ سامي يتذكر مشهد قفز حمادة من فوق جسم السد وابتلاع الماء المندفَع له، ثم ينظر إليه بإشفاق. انتظره حتى وضع كوب الشاي من يده، وقال:

- نترك جدتي الآن.

شعر بشيء من الحرج بعد أن قال ذلك. نهض حمادة ومضى. ودون أن تنتظر ابتعاده، قالت:

- الولد قليل الذوق.

- صغير يا جدتي.

أزاح الصيفُ الربيعَ بوقاحة، وتقدّم النهار مقلّصًا من مساحة الليل، لكن ذلك لم يؤثر على تسجيلات حمادة. لا ينقطع الغناء نهارًا أو ليلاً فصار غلافًا موسيقيًا يغطي كل ما عداه من الأصوات، خفّف من مباغئات نفثة البومة، وخرخشات مكبر الصوت لحظة فتحه في المسجد. أحب سامي إيقاعات الموسيقى، الحزين منها والمبتهج، دون أن يشغل نفسه بمعرفة الكلمات. وفي ليالي الأرق يبدو الجهل بالكلمات نعمة؛ يهرب من أفكاره وذكرياته إلى محاولة تخمين معان لما يسمعه. لكن هذه الحيلة لا تنجح في كل مرة.

كان قد أمضى سهرة لطيفة مع كامل، منح نفسه فيها حرية البوح عن فريدة. وعندما وضع رأسه على الوسادة أخذت الاحتمالات تحاصره. ما الذي جرى بعد أن صدمها باختفائه المباغت؟ هل رضخت أخيرًا وتزوجت أحد أخوة المرحوم كما أرادت حماتها التي حذرتها من أي ارتباط آخر. لن نسمح بأن يدخل رجل غريب على بناتنا. أخذ يتقلب بين المخاوف والأشواق، ثم تذكّر أمنيته المستحيلة بأن يكون يوسف قد رآها، ولم يلبث أن غرق في الحزن على أخيه، الذي فاته رؤية الكثير، كهذه السرايا مثلاً. وأخذ يعيد بناء الماضي على هواه؛ أن تكون رصاصة القناص قد استقرت في جبهته هو. وأن يكون يوسف قد عاد إلى حياته بألمانيا.

هل كان بوسع الصبي سالم أن يصل إليه هناك ليطلب منه العودة لتسلم السرايا؟ وهل كان ليستجيب ويعود ليعيش هذه الحياة؟

ذكرى تجر فكرة؛ وتندفع موجات الذكريات والأفكار إلى بئر الندم المظلمة، حتى أدركته رحمة النوم مع صمت البومة بعد الفجر. ولم يستيقظ إلا على يد أم الغلام:

- قم يا خواجه، تصرف في هذه البلوى.

- أية بلوى؟

- العمدة الذي بلانا به نور مختار، لم يستيقظ الآن. التربة امتلأت. والري المبكر أفضل للزرع.

- الساعة الآن العاشرة.

- الساعة للخواجات والعمد. الشمس ساعتنا هنا.

نهض سامي وتبعها إلى المعلف، لم يستيقظ حمادة على طرقات عصا العجوز للباب، اضطر سامي للالتفاف والطرق على شباك الغرفة. استيقظ، وفتح لهما الباب وعاد إلى غرفته، جلس على حرف السرير نصف نائم. طلبت منه أم الغلام الإسراع بتشغيل ماكينة الري. ومضت إلى العنبر

المغلق، فتحته وأطلقت الماعز، ثم فتحت لها الباب الخارجي، ومضت خلفها. حاول سامي أن يعتذر له عن لهجة أم الغلام، قال حمادة:

- ولا يهملك يا باشا. ست كبيرة مثل جدتي. تشرب معي قهوة خضراء؟
- لم نفطر بعد.
- لا أستطيع أن أفتح عينيّ قبل أن أشرب القهوة.

دخل سامي إلى مخزن العلف، ملأ مكيالاً من الذرة الصفراء المجروشة ومضى إلى عشة الدجاج. تجمعت الدجاجات، على الطعام، وحمل أنيتي الماء لتنظيفهما وملئهما. وجلس حمادة أمام غرفته، يدق شيئاً في هاون نحاسي صغير مجنزر، أخذ يتأمل، فبادره:

- أشترى البن حبوباً. وأدق بقدر التلقيمة. هكذا يكون الطعم والرائحة أفضل جداً.

توسعت ابتسامة سامي، سعيداً بالثغرة التي انفتحت بينه وبين حمادة، قلقاً في الوقت ذاته أن تعود أم الغلام وتوبخه على التأخير. أخذت الدجاجات تتصارع على الحَب والماء النظيف. وككل اللحظات المميزة، التي تجعل يده تتحرق إلى التصوير. التقط الصور، وتذكر فريدة وصور القطين المشؤومة، ملأ صدره بالهواء مغتبطاً بالأمان، ثم خرج. ابتعد بما يكفي عن صوت الغناء، وضرب رقم فريدة، فوجده محظوراً عليه. أحس بالإحباط، دون أن يفقد الأمل.

لم يزل هناك احتمال أن يكون الرقم رقمها.

أخذ يُقَلِّب الاحتمالات. يمكن أن تكون هي التي حظرته أو ربما الغربية التي صار الخط ملكها وردّت عليه بغضب. تذكر تطبيق تروكولر بدهشة وابتهاج كأنه اكتشف سر بداية الكون. كتب الرقم بالتطبيق وضغط زر البحث، وجد الخط مسجلاً بأغرب اسم حركي: كان بي حفيّاً.

فكر أن يعود إلى حمادة ويحاول الاتصال من تليفونه. لكن أم الغلام نادته فمضى إليها. كانت لا تزال غاضبة:

- كان ناقصنا عجل نعلفه من غير شغلة ولا مشغلة؟

- لم يكمل أسبوعاً يا جدة.

- اطلب لي صلاح.

بمجرد أن أمسكت بالتليفون، هبّت في الرجل:

- اسمع. من أول سوق تشتروا أي بهيمة أو كام معزة زيادة.

أجابها صلاح:

- اهْدأي. سوق التل الكبير بعد بكرة.

في المساء قال حمادة:

- البهائم في أسوان رخيصة بتراب الفلوس. ممكن نروح ونملأ عربة من هناك.

قال سامي:

- العدد لا يستحق المشوار. لديك خبرة في الشراء؟

- طبعًا.

يوم السوق استيقظ سامي مبتهجًا بأنه سيرى سوق الماشية. جاء صلاح بعد الفجر بقليل. نظر

إلى حمادة المتأنق، وقال:

- أنت رايح فرح؟

قبل أن تطلع الشمس وصلوا السوق على تخوم مدينة التل الكبير. تقدمهما حمادة يشق زحام المتسوقين. بدا بجلبابه البلدي وعصاه المهيبة قائدًا لهما. حاول صلاح أن يتقدم، لكن ضيق الممر المكتظ بالبشر بين مرابط الحيوانات منعه، وظل حمادة في المقدمة يخفي خلفه صلاح، ومضى سامي خلفهما مثل طفل يقتني أثر والديه، وكلما وجد فرصة يلتقط صورة.

أخذ البائعون يحيون حمادة ويستوقفونه ليتفقد عجولهم، فيلقي نظرة على عجل أو يمسك بكتف آخر. يحاول صلاح أن يُطل من ورائه لينبههم إلى أن حمادة ليس صاحب القرار. فلا يلتقطون تلميحاته وسط الصخب. أخذ يدفعه بضيق كلما توقف:

- امش يا بني. لم نأت لشراء عجول.

تجاوزوا قطاع العجول، ولاح الضأن في مساحة أكبر. على تخومها وقف رجل بنعجة حمراء مجزوزة الفروة. تَلَقَّف الرجل حمادة، وعرضها عليه:

- بالصلاة على النبي، قل كلمة يا عمدة.

انحنى حمادة ووضع يده تحت بطن النعجة، محاولاً رفعها لتخمين وزنها، وقال: ألف وثلاثمئة؟

وقف صلاح مغتاظًا، لا يدري ما يقول، بينما أجاب البائع:

- لا، لا، بعيد، أنت شاطر جدًّا يا عمدة.

- ألف وأربعمئة.

التقط الرجل يد حمادة مصافحًا:

- الله يبارك لك.

لم يعرف صلاح ماذا يفعل في صفقة انعقدت بغتة. همس لسامي:

- الولد قليل الأدب وعبيط. النعجة عجوز وعجفاء!

قال سامي:

- مسكينة!

- مسكينة؟! المعلف ليس مأوى عجزة يا خواجة!

- خلاص يا عمي. لا داعي لإحراج حمادة.

اضطر صلاح الذي يحمل النقود أن يعد الثمن للرجل حابسًا ضيقه، وسحب حمادة النعجة بصعوبة كأنه يجر جثة؛ فأعافت حركته ومكّنت صلاح من التقدم أمامه. كان البائع التالي يقف بخروفين وحملين صغيرين. قلب صلاح فيهما، بينما اندفع سامي ملهوفًا إلى الحملين. تحسس فروتهما الناعمة ناصعة البياض، وأخذ ينظر يتأمل عيونهما السوداء الجميلة.

لو رسم الطيَّار عيون الخروف بهذا الجمال لأرضى الأمير الصغير من أول نموذج رسمه.

أخذ يصوّر الصغيرين؛ فزجره صلاح بنظرة، وسأل البائع:

- أين أمهما؟

قال الرجل:

- ماتت. وهذان أخواهما الكبيران.

قال صلاح:

- ماشاء الله. تعرف قصة حياتهم!

- لست تاجرًا. هذه تربية يدي.

تقلصت ابتسامة سامي وأخذ يُرَبِّت على الحملين اليتيمين بأسف. وعاد صلاح إلى فحص الحيوانات بتشدد عندما رأى أن التاجر لاحظ إعجاب سامي. عرض خمسة آلاف جنيه. ابتسم التاجر وردّ ساخرًا:

- شطارتك بلا مثيل. قل كلمة تصلح للبيع والشراء يا رجل.

قال صلاح:

- خمسة ومئتان.

وتظاهر بالانصراف، ليوحى بأن ما عرضه هو الكلمة الأخيرة. أحس سامي بالأسف كأنه طفل

يصرفه أبوه عن لعبة بعد أن حملها. وقال الرجل ساخرًا من صلاح:

- كنت تشاشرت على النصاب الذي بلاكم بهذه الحيفة.
نظر صلاح إلى النعجة بيد حمادة، ولم يقل شيئاً، فاستأنف الرجل:
- لم تنتبه إلى أنه كان يحبس النعجة بين ساقيه.
ودفع النعجة من الخلف فدارت حول نفسها بدلاً من أن تجري للأمام، قال متشفياً:
- هكذا تُختبر الغنم.

بدا الضيق على صلاح وأخذ يتلفت بحثاً عن البائع الذي غشهم.
قال الرجل:

- أنت طيب. هل كان لينتظرك؟!!

وأحس أنه أحرز سلطة على صلاح الذي أخذ يرفع السعر مئة بعد مئة حتى وصل السعر إلى خمسة آلاف وخمسمئة؛ فبارك له الرجل. ساق الخراف الأربعة أمامه. وترك لحمادة النعجة الدوارة يحملها تارة ويجرها أخرى حتى وصلوا إلى العربية.

كانت أم الغلام بالمعلف تنتظر. شرعت تعاین الوافدين الجدد. بدأت بالنعجة الحمراء التي هزمت أكثر مما كانت في السوق. أمسكت ظهرها بين سبابتها وإبهامها، ثم أمسكت برأسها، ورفعت جفنيها واحداً بعد الآخر. حركت يدها أمامها؛ فلم ترمش. هتفت:

- وعمياء يا صلاح؟!!

انتقلت إلى الخراف الأربعة المتداخلة في وقفقتها، أخذت تفحصها واحداً فواحداً، تجذب الواحد وتبدأ من رأسه ثم تديره وترفع لفته لترى ما تحتها. اكتشفت أن الصغيرين لديهما إسهال. قالت:
- إن عاشت العجوز العمياء لن يعيش الصغيران.

بدا الحملان ذابلين بخلاف ما كانا في السوق تماماً، كأن أحداً استبدلها في الطريق. ضرب صلاح كفاً بكف. التفتت إليه أم الغلام، وهتفت به:
- يمكن عميت!!

لم يرد، أخذ ينشق ويزفر بغیظ كأنه لا يجد الهواء الكافي ليتنفس. بعد أن تطاول الصمت، قال:
- اليوم كان واضحاً من أوله، لما تقدمنا بوز الكلب هذا!
نظر إليه حمادة ولم يُعَلِّق. وبعد لحظات قال:
- شاي؟

ردت أم الغلام ساخطة:

-إجرت هات حبة برسيم لنرى جلبتكم السوءاء.

انسحب إلى غرفته، استبدل ملابسه، وخرج إلى الحقل. جلست أم الغلام القرفصاء أمام النعجة الحمراء. قال صلاح:

- لم تكن بهذا الهزال.

قالت أم الغلام:

- كانت منفوخة بالماء ياروح أمك.

عاد حمادة بحضن برسيم، ألقاه في الطوالة. هروا الخروفان الشابان نحو الطعام، وبقي الحملان والنعجة الحمراء بلا حراك. حاول صلاح دفع النعجة جهة البرسيم فتحركات متخبطة في دوائر حتى اصطدمت بجدار غرفة حمادة وانهارت لصقه. التقط سامي قبضة من البرسيم، وقربها من فمها فأخذت عودًا ثم نسيتها بين شذقيها. وبدت بثبات عينيها كأنها تحلم. أخذ حمادة يروح ويجيء بأدوات الشاي.

قالت أم الغلام:

- هذا الولد تيس، بلا إحساس.

تأفقت سامي بحثًا عن صلاح فلم يجده. استغرب أنه لم يسمع حتى صوت انصراف السيارة. أخذت أم الغلام تتأهب للنهوض، ساعدها، ومضى خلفها. أخذت تدب بعصاها في كل خطوة كأنها تعاقب أحدًا. جلسا في الفرندا ساكنين، يأتيهما صوت الغناء من المعلف. فتح تليفونه وأخذ يُقَلِّب الصور التي التقطها في السوق، وتملكته رغبة في أن يجرب إرسالها إلى رقم حمادة ثم يرسلها من عنده إلى رقم فريدة الذي صار باسم «كان بي حفيًا».

هل يمكن أن يكون رقمها؟ هل تغيرت في بضعة أشهر لتُسمى نفسها هكذا!؟

جاء صلاح قبل الغروب وخلفه سيارة أخرى ترجل منها شاب قصير برميلي الجسم، تصل منابت شعره إلى ما فوق حاجبيه بقليل. قدّمه صلاح:

- الدكتور طارق المنزلاوي. أجدع نطاسي بهائم في تل المساخيط.

التقط الطبيب من المقعد الخلفي لسيارته حقيبة فايبر تشبه ثلاجة الرحلات، وساروا إلى المعلف. بينما يفحص الطبيب النعجة. سأله سامي عن طبيعة مرضها.

- طفيل يصيب الجهاز العصبي، تستوطن يرقاته المخ وتضغط على مراكزه، فتضرب بعضها.

غالبًا تصاب النعجة بالعمى والعجز عن الحركة وبالطبع افتقاد الشهية، ثم بالسلامة، فرصة سعيدة.

- يعني لا أمل؟

- ربما ببعض الحقن القوية تستعيد شهيتها، فتحمل بعض اللحم، ولن يعيها العمى كثيرًا عند بيعها للذبح.

جزع سامي لكلمة الذبح، بينما ارتدى الطبيب قفازين وأعد حقنة غرسها في كتفها. ثم التفت يُقَلِّب في الحملين. وأخرج زجاجة دواء، سحب منها بمحقن دون إبرة، وأمسك بأحدهما، باعد بين شذقيه، وأفرغ المحقن في بلعومه ثم أطبق الفكين وأبقى الرأس مرفوعًا ليجبره على البلع. هز الصغير رأسه جزعًا من طعم الدواء. وبينما يسحب المحلول للثاني أشار إلى حمادة:
- راقبني يا كابتن، لأنك ستفعل ذلك بنفسك مرتين في اليوم، إلى أن يتوقف الإسهال.

وأخذ يُريه عمليًا مقدار الجرعة على مؤشر المحقن. أحس سامي بحزن يعتصره على طفلين لا يستطيعان وصف آلامهما. أغلق الطبيب زجاجة الدواء، وناولها لحمادة مع المحقن، وأعاد عليه تعليمات العناية بالصغيرين، وقال:
- سأمركل ثلاثة أيام لأحقن العجوز.

لم يأت كامل في تلك الليلة؛ فأحس سامي بالارتياح. كان بحاجة إلى شيء من السكينة وصمت يؤهله لاستيعاب ما حدث. أحضر فرعي مانجو جافين وشرع في تكسيرهما. بنى هرم النار كما تعلمه من أم الغلام. وأشعل النار، ودخل إلى المطبخ وعاد يحمل بيضًا وجبناً، وطماطم ولفلًا، وبانجان ليشوييه، والخبز الذي صار يُفضله على أي شيء بعد تحميصه. بعد أن جلس بجوارها، قالت أم الغلام:

- حكمتك يارب! الناس كثرت مثل النمل، ومع ذلك تأكلون أفضل مما كنا نأكل.

نظر سامي إلى الأشياء، وقال:

- لكنه عشاء بسيط!

- بسيط؟! زمان أول ما اشتغلنا عند الباشا جدك، كنا نأكل في الغداء حبة طماطم، نغمس كل قضمة منها في الملح مع اللقمة. كنا لا نرى اللحم إلا في العيد.

- والطيور التي تربونها؟

- نبيعها. حتى البيض نبيعه. كنا فقراء فوق ما تتصور.

- وعندما أصبحت الأرض ملككم؟

- أصبحنا فقراء من أصحاب الملك. الأرض تأخذ ما تعطيه.

- ولماذا لم تبيعوها؟

- لأن أرواحنا فيها.
- ولماذا حرصت أن أرتك يا جدتي؟
- قرصته من ذراعه وأجابت:
- لأن روحي فيك يا خواجة.
- غامت عيناه بدمع بينما يُقشّر الباذنجان الخارج لتوه من النار. أخذت أم الغلام تتابع يديه، وقالت:
- لم تذق طبخي يا ولدي، أبوك ذاقه، وجدك، والهائم جدتك كانت تأتي للسرايا خصوصًا لتأكل البط ومحشي الكرنب على الكانون. وفي الآخر لم أسلم من أذاها!
- كيف يا جدتي؟
- يوه، الله يرحم العباد. أذاها ولا شيء جنب أذى سلفي ناجي.
- لماذا قتل سالم؟
- بعد موت صابر، بقي يلاحقني ويلح أن يتزوجني. رفضته. قال لي كلمة بشعة قوي.
- تفتحت عينا سامي وسكنت أم الغلام لحظات ثم وجدت الكلمة المناسبة. قالت:
- قال لي، ما معناه إني تعودت الشيء بتاع الباشا. بالكلمة الوحشة. سمعه سالم. مسكه من قبة جلبابه وبرك عليه. قام المجرم يجري وراءه، وطعنه في رقبته. من الخلف، هنا.
- أشارت إلى الموضوع في قفاها. سألتها سامي:
- ولم تكن هناك فرصة لإنقاذه؟
- شلال دم انفتح، وفرفر حبيب أمه تحت عيني.
- وعمه؟ ألم يُسجن؟!
- أبدًا. لم أتهمه بشيء ليُسجن.
- سكت سامي متحيرًا. قالت:
- يعني، أتهمه ويحسبونها مشاجرة، يخرج بعد سنتين، ثلاث؟!!
- وكيف حصلت على شهادة وفاة سالم؟
- دفناه من غير شهادة. هنا لا يرانا إلا الله.
- يعني، سالم حي في أوراق الحكومة؟!
- ليس كما هو حي عندي.
- ومتى مات ناجي؟
- انقبر، ما أعرف من عشرة أو عشرين سنة.

- قضاء وقدر؟

- كل شيء مُقدَّر حتى عمل أيدينا.

لَقَّهَما الصمت، وأخذ سامي يحدِّق في أثر الدخان على خشب تعريشة العنب. سمع خرخشة فوقها، وفجأة سقط فأر ضخم بالقرب منهما، واعتدل في لمح البصر وقفز فوق سور الفرندا واختفى في الظلام تحت الأشجار. أخذ صوت تنفس العجوز يرتفع، ثم قالت:

- تاريخ أسود بعيد عنك. لما تنازل لهم الباشا عن أرضه. يفرحوا؟ لا، دقت فيهم النار لأنه أعطانا قطعة السرايا.

- مَيِّزكم.

- كنا نخدمه بإخلاص. كنت نضيفه وحلوة يا خواجه.

بعد أن قالت ذلك اعتراها خجل، أزال من عمرها عقودًا، واستطاع سامي للحظة أن يتخيل وجه الشابة التي كانت. مدت يدها تُقَلِّب النار. ثم سألته:

- تشتاق إلى يوسف يا سامي؟

- جدًّا يا جدة.

- أقول لسالم يبحث لك عنه؟

- لا تتعبيه.

- لا تعب ولا حاجة. هم هناك لا عندهم شغلة ولا مشغلة. على أرائك متقابلين، مثلنا أنا وأنت،

هكذا.

استيقظ بعد الفجر بقليل. لبث يتأمل السقف، يحاول أن يتبين في أية غرفة نام. وبدأ يستجمع وعيه لحظة بعد لحظة. تذكر مرضى المعلف. وانتظر حتى رأى أول نور الصباح فنهض. مضى ومضت الكلاب حوله تلاعبه. كانت أم الغلام قد سبقته إلى هناك. وكانت تجلس مقرفة أمام الحملين الصغيرين. خرج حمادة من الحمام مبلل الوجه. وعاد إلى غرفته.

قرفص سامي بجوار العجوز، وأخذ يتلمس الحملين، وقد وقفا مستسلمين، بعيون مترعة بانكسار اليتيم والمرض؛ فغمره إحساس بالعجز. أخذ يُتمتم في سره بالدعاء. وانتبه إلى أنه لا يشعر بالأسى ذاته تجاه النعجة العمياء.

طبيعي أن يكون تعاطفك مع عجوز شبت من الدنيا أقل من تعاطفك مع طفل لم يتذوقها بعد.

حدّقت أم الغلام في وجهه الممتنع وقالت:

- قلبك رهيف يا ابني. ظلمتك يا حبيبي، سامحني.

- أي ظلم يا جدة؟

- حياتنا صعبة عليك.

- كان الصغيران أفضل بالأمس.

- يجرّعون البهائم الماء غصبًا، ويحقنون المريضة بأدوية قوية قبل البيع.

تذهّب الأفق بأشعة الشمس الأولى، وأبدت العجوز يأسها. استندت على يديها ونهضت. بينما تشير إلى غرفة حمادة:

- الجدع رجع نام؟ ناده يخرج لي الماعز.

طرق عليه الباب، فخرج حمادة منكوش الشعر أحمر العينين. فتح الباب الداخلي والخارجي، وانطلقت الكلاب تتقدم القطيع، ومضت أم الغلام وراءه. رفع سامي حملاً وأخذ يهدده. قال حمادة:

- عقبال ما تشيل أطفالك يا باشا.

جاء صلاح عند الظهر، وبدا أن مزاجه السيء لم يغادره. لم تستمر زيارته للمعلف سوى دقائق، منحته موجة غم جديدة وانصرف. وظل سامي يتردد بين السرايا والمعلف قَلْبًا على الصغيرين. بلغا وقت الغروب بحال أسوأ. كان أحد الصغيرين واقفًا يتشمم أخاه المستلقي كأنما يستنهضه. عينا المستلقي ثابتتين، وكان خط إفرازات مخاطي يخرج من منخاريه سائلًا إلى شذقيه، أخذت حركة دخول وخروج النفس الواهن في الجسم الضئيل تتباطأ، بينما يتابع سامي عاجزًا

هروب الروح وارتخاء الجسم الصغير للحمل الذي لم يعد يعي وجوده. وفجأة سكن الحمل تمامًا؛ فامتلات عينا سامي بالبكاء.

الموت أقسى ما في الوجود، إنسانًا كان الميت أو خروفاً.

كفَّ الحمل الآخر عن تشمم شقيقه، ووقف واهنًا شاردًا. وعندما رأى سامي يحمل الجثمان سار وراءه متخبطًا. بعد خطوات قليلة توقف وتداعى إلى الأرض. نظر سامي إلى حمادة الذي كان يبحث في تليفونه عن أغنية جديدة يُشغِّلها. وأمره بغضب:
- هات فأسك واتبعني.

في فرجة بين شجرتي برتقال، أخذ حمادة يحفر. وجاءت أم الغلام. كلما توقف الشاب تطلب منه أن يحفر أعمق حتى لا تأتي الكلاب الضالة وتنش القبر في الليل. عند العمق الذي توقعت العجوز أن يحقق الأمان للصغير، أشارت لحمادة كي يتوقف عن الحفر ومضت. أنزل سامي الخروف بلطف. كان شعاع أخير من الشمس الغاربة ينفذ كسهم من بين غصون الشجر، يضيء الحفرة، ويُذهِّب الجثمان الأبيض الذي استقر في القاع. أخذ سامي يراقب حمادة بينما يهيل الردم على الجثمان. أحس برغبة عارمة في الذهاب لقطف بعض الزهور وإلقائها على جثة الصغير، لكنه تذكَّر سخرية حمادة منذ قليل.

ابتسامه هذا الصبي الوحيدة كانت سخرية منك. بدا كأنه يقول لك إنك أبله، وتظاهرت بعدم الفهم؛ فلا تمنحه مزيدًا من الفرص.

بعد أن أعاد حمادة كل الردم إلى الحفرة، وقف يدك قبر الصغير بقدميه. بينما يحاول سامي أن يكتم جزعه. وعاد إلى السرايا، كانت أم الغلام قد أعادت القطيع، وجلست تنتظره.
- لا تحزن يا سامي، لا بد أن تتوقع الخسارة.

أوما لها وقد اكتست ابتسامته أسى عميقًا. ثم جلس بجوارها. ظلا صامتين يراقبان الريح إذ تكنس البلاط وتؤجج النار أمامها. أحس بالفراغ، وبأنه بحاجة إلى مواساة. قال:

- حتى كامل لم يأت من أيام!

أشاحت بيدها، وبرطمت بكلام لم يتبينه. كان الوقت لا يزال مبكرًا على النوم، لكنه سعد ليختلي بنفسه. متشجعًا بالريح التي جرفت في طريقها البعوض وطوّحت بغناء المعلف إلى الجهة الأخرى، شغَّل سيمفونية بيتهوفن التاسعة على الفونوغراف القديم بغرفة المكتبة. قرر أن يجلس في الفرندا. ورفع الصوت ليكون مسموعًا هناك. أضاء نورها. وجلس يستمع بعد أن أضيفت للأوركسترا آلة

جديدة: صراصير الحقل التي بدت وكأنها أصيلة في السيمفونية. أرسل نظره إلى الأضواء المتناثرة على مسافات متفاوتة وسط ظلام الأشجار، وشرع يتخيل أشكال الحياة في تلك البيوت، ويحاول تخمين الطرق والمدقات التي تؤدي إليها وسط الغابة المظلمة.

انتهت السيمفونية فظهر عزف الصراصير منفردًا. عاد إلى الغرفة التي سينام فيها. لم يكن يشعر برغبة في النوم، لكنه استلقى ليستريح. حاصرته الأفكار، وتلاحقت في رأسه الصور. بدت له حياته طويلة جدًا جدًّا، وبدت طفولته شديدة النأي تتقلب في خياله باهتة. سمع صوت مصراعي باب الشرفة ينفتحان كأنما بفعل الريح، ثم سمع طرقتين خفيفتين على بابه، نظر فوجد أكرة الباب تدور. انتفض جالسًا. وسمع من يخاطبه:

- لا تخف يا أخي. أنا يوسف.

تحت بصيص ضوء القمر الراشح من الشبَّاك تحقق من ملامح شقيقه الذي اجتاز الباب. اعتدل جالسًا على السرير ليستوعب.

- لم تتغير يا يوسف.

وبقفة صار واقفًا في مواجهته رافعًا ذراعيه ليحتضنه، ثم توقف إذ باغته اعتقاد بهشاشة أخيه، رغم مظهره المفعم بالقوة. أخذ يتأمله ليرى ما عساه تغير فيه خلال سبع سنوات. لمح في مقدمة جبهته الهوة الصغيرة التي صنعتها رصاصة القنَّاص. محيطها الأسود المحترق كما كان عندما طالع وجهه في المستشفى الميدانيصباحيوم 3 فبراير 2011. أحس بجزع. وفهم يوسف ما يفكر فيه شقيقه؛ فرفع يده وضغط جبهته. وقال:

- لا تخف يا أخي، لم تعد تؤلم.

وأشار إليه ليعود إلى سريره، فاستجاب سامي وتقهقر حتى جلس على حرف السرير. بدا الارتياح على يوسف، وقال:

- تريد الصدق يا سامي؟ أنا القلق عليك طوال الوقت.

- أنا بخير يا أخي.

- لست بخير يا سامي. الحرق في جبهتي، لكن ألمه في قلبك أنت.

ومد إصبعه في ثقب جبهته وأداره فيه مرة أخرى، وقال ضاحكًا:

-انظر! هذا بركاني الصغير، أنظفه كل يوم بلا تعب أو ألم.

هتف سامي:

- أنقرأ «الأمير الصغير» هناك يا أخي؟

- ليس كما تقرأ أنت.
- كيف إذن؟
- لا أعرف كيف أشرح لك. شيء كالخيال، كالذكرى. كل ما نشتهي نتخيله فنحس بأننا حصلنا عليه، كتابًا كان أو طعامًا أو...
- سكت لحظة، وسأل سامي:
- ما أخبار حبيبة القلب؟
- فريدة؟
أوما يوسف تأكيدًا؛ فعاد سامي يسأله:
- كيف عرفتها؟ لم ألتق بها إلا بعد...
- نعم. بعد عبوري الحاجز. وكنت تتمنى أن تعقد تعارفًا بيننا.
- فعلاً، فعلاً..!
- كنت سعيدًا لكما، وطوال الوقت كنت أتمنى أن تعرف ذلك. وتأسفت لأنك تركتها بهذه الطريقة.
- كنت خائفًا عليها يا أخي.
- والآن، لماذا لا تسعى إليها مجددًا؟
- سعيت.
- ليس بما فيه الكفاية.
همّ سامي أن يقول شيئًا، لكنه تراجع، وبعد صمت سأله:
- قل لي يا أخي، ألم تتألم ولو لثانية؟ عندما اخترقت الرصاصة رأسك؟
- لا أتذكر. كانت لحظة خاطفة. أحسست أنني عبرت من حاجز زجاج شفاف. وفي غمضة عين صرت على الجهة الأخرى. وكنت أناديك لأطمئنك عليّ ولم تكن تسمعني.
قال سامي:
- لم أنس تلك الليلة ولم أتجاوزها أبدًا، هل تتذكرها هناك؟
- أتذكرها، وأعيد تفاصيلها مع زملائي، لكن ليس كما تتذكرونها أنتم. ليس لدينا هناك سوى السكينة، لم نعد نأسف على شيء. وأريدك أن تتجاوز كل هذا.
- وماذا بيدي لأفعل؟
- لا تفعل شيئًا. عش حياتك فحسب.
- أنت لم تعد هنا، ولا بابا ولا ماما.

- ما جرى لنا يجري كل يوم للأخريين. انس واغنم حياتك يا أخي. الزمن عندكم خاطف.
- أليس الأجل أن ينتهي؟ انظر إلى نفسك، أنت كما كنت. تتذكر يا يوسف أنك كنت تكبرني
بثلاث سنوات ونصف؟ الآن أنا أكبر منك بأربع!
- وصار لديك الكثير من الماضي، أي الكثير من الأحمال. لا تنتظر خلفك كثيرًا يا سامي.
- أحاول يا يوسف، وهنا تغيرت حياتي. هل تعيش أنت وزملاؤك التسعة والثلاثون معًا؟
- لسنا تسعة وثلاثين.

- هذا ما قيل عن عددكم.
- لا، لا، العدد أكثر كثيرًا. ولم نكن كلنا ثوارًا. بيننا مخبرون، وبلطجية، بيننا حتى قناصة تمت
تصفيتهم بعد أن أدوا مهامهم. وعبر معنا في تلك الليلة رجل وامرأتان عجائز من سكان العمارات
المحيطة بالميدان، صعدوا آمنين من أسرّتهم بينما كانت تجري أمام نوافذهم جريمة لم يعرفوا بها
إلا هناك. كل من عبروا الحاجز من المنطقة في تلك الليلة يعيشون معًا.
- تعيشون مع البلطجية والقناصة وجهًا لوجه؟
- نراهم، كأننا نلتقي للمرة الأولى.

سامي الذي لم يعرف بوجود الشر إلا عندما صار شابًا، فتح فمه دهشة، ولم ينطق. استأنف
يوسف:

- قلت لك ليس هناك سوى السكينة. والمعرفة تريح. وقد صارت الصورة واضحة لنا الآن.
- لم تتضح هنا، لم نعرف شيئًا عن أسرار تلك الليلة.
- ولا الليالي الدامية بعدها. أفضل ألا تعرف. هذه الأسرار، لا يحتملها إلا الذين عبروا.
تعلّقت عينا سامي بأخيه مذعورًا؛ فقال يوسف:
- وهبك الله نعمة التنبؤ يا أخي، وقد تكون نعمته الآن أن يحرمك منها؛ فالقادم سيء جدًا.
وفجأة صار مرحًا، وقال:

- كنت أريد أن أجيئك في عيد ميلادي، لكن ها أنا معك.
- مرّ شهران على 18 فبراير يا أخي.
- عيد ميلادي صار 3 فبراير يا سامي. وبالنسبة لنا 3 و18 فبراير كانا منذ لحظة. تمّن لي عامًا
سعيدًا.

هَبَّ سامي واقفًا وقفز من فوق السرير متجهًا نحوه فاردًا ذراعيه. رفع يوسف يده مؤشرًا لسامي
ليلزم مكانه؛ فرأى إحباطه. قال يسترضيه:

- ألا يكفي أننا معًا؟

تجاوز سامي الموقف واستعاد مرحه، وهتف:

- هل تتذكر أعياد ميلادنا؟ والباشاوات المتعصبين لجدك الذين كانوا يحضرون ويتشاجرون بسبب اختلاف حول واقعة تخصه؟ أم الغلام متحمسة له مثل حماسة أصدقائه؛ تراه ملاكًا. رد يوسف باسمًا:

- الحقيقة ليست بهذه النصاعة يا أخي، لكن لا بأس، هو جدنا.

تظاهر سامي بعدم الانتباه، وهتف:

- تعال، تعال يا أخي أريك السرايا. كانت متداعية، رمتها ودبت فيها الروح.

افسح له يوسف ليتقدمه، وقال برفق:

- لا تفتح نورًا. هذا كاف لأرى.

فتح سامي أول غرفة، وشرع يشرح له بحماسة. لم يكمل جملته الأولى حتى تذكر أنه عاش تلك اللحظة من قبل، عندما عاد يوسف من ألمانيا يوم أول فبراير 2011 وشرع يُطلعه بفخر على التجديدات التي أدخلها على شقة جاردن سيتي. تذكر كلماته في ذلك الوقت؛ فأحس بأنه يعيد تمثيل المشهد ذاته. سكت للحظات، ثم استأنف شرحه بلا دافع كبير.

قال يوسف:

- لا تفتح كل الغرف، ستمتلئ بعوضًا، ولن تجد غرفة تنام فيها.

ردّ سامي، بينما يفتح له باب الحمام الكبير:

- لا تهتم. انظر!

أراه كيف احتفظ ببانيو جده القديم بقوائم الأسد النحاسية التي ترفعه. ثم دخلا المكتبة التي تشبه غرفة مكتبة والده في الشقة. من رف الاسطوانات التقط اسطوانة محمد فوزي للأطفال وضعها في الفونوغراف. وأخذ يدوران مع صوته المرح، يرفرفان بذراعيهما مع الأغنيات التي طبعت طفولتهما. وعرفا فيما بعد أنه المطرب الوحيد الذي احتفظ أبوهما بكل اسطواناته مرتبة. كان يعشقه ويثني عليه باعتباره رجلًا صلبًا، ومظلومًا مثل والده سالم باشا يعقوب.

أحس سامي بحفيف أصابع يوسف تلامس أنامله، ولم يحاول أن يقترب أو يبتعد أكثر. توقفت الأغنية، فالتقط اسطوانة أخرى، ليضعها في الجهاز. لكن يوسف بادره:

- تأخر الوقت يا سامي.

غادر المكتب وخطا في الممر ملوحًا. هرول سامي خلفه هاتفًا:

- ابقَ معي، خمس دقائق أخرى، فقط خمس دقائق.

استدار يوسف مبتسماً، وقال:

- تريدني أن أنيمك؟

هز سامي رأسه ببراءة، واستنقه إلى غرفة غير التي كان نائماً فيها. مضى إلى السرير، واستلقى تحت اللحاف. اندس يوسف بجواره. استشعر سامي السكينة ذاتها، التي كانت تغمره عندما كان يغادر سريره ويندس في حوض يوسف عقب حلم مخيف. لبث صامتاً تتحرق ذراعه لاحتضان أخيه. وبينما يداعب النعاس جفنيه مد ذراعه، ولم يمهل النوم لِيُمَيِّزَ إن كان قد احتضن أخاه أم الفراغ.

غبطته بزيارة يوسف في الليل صارت في الصباح مثل حجر ثقيل على صدره. رنّت في أذنه كلمات فريدة. الأحبة لا يموتون! اعتصره الشوق إليها. جرّب البحث عن «كان بي حفيا» في قائمة "واتساب"، عثر عليه. هتف سعيدًا: رُفِع الحظر!

كتب صباح الخير. ظلت الكلمة غير مقروءة لساعات. تخيّر مجموعة من أجمل الصور، وأرسلها. وتعلقت عيناه بالصفحة ينتظر تحول لون علامتي الرسالة إلى الأزرق. طال الانتظار؛ فنهض وتوجه إلى المعلق. كانت النعجة الحمراء مستلقية بجوار جدار غرفة حمادة، لكن الحَمَل كان بحال أفضل. وجده هشًا كظل، لكنه واقف ينتشم كومة البرسيم أمامه ثم يختار منها عودًا، ويبدأ بتذوقه. قدّم للدجاج وجبة الإفطار، وجمع البيض، وعاد إلى السرايا. بين دقيقة وأخرى يتفقد الصور حتى رأى العلامة الزرقاء عند الظهر. فأشرق وجهه، وأخذ ينتظر إجابة لم تأت ولم يياس.

لو كان الرقم بحوزة غريب، لدفعه الفضول وسألك: من أنت؟

انتبهت أم الغلام إلى غبطته، فقالت:

- ربنا يبسطك يا خواجة.

تطلعا إلى امرأة تقترب ساحبة الحائرة خلفها. بادرتها أم الغلام:

- لماذا انتظرت كل هذا الوقت لترديها يا فكيهة؟

- جاءتني من ساعة.

- لكنها شردت من شهر.

- كانت في المراح. عند غنّام قريب من داري، اعتادت تروح له بنفسها كل ما تعوز تعشّر.

وتفضل عنده قد ما تفضل وترجع. ويجي الرجل وراها، يطلب أجر التيس وخدمتها.

أعطاها سامي فوق ما دفعته للغنّام، وتناول حبل المعزة من يدها.

قالت أم الغلام:

- اربطها.

- قالت المرأة:

- لا تخافي، لن تهرب إلا إذا احتاجت التيس مرة ثانية. إن راحت لا تدفعي، المرة الثانية على

الغنّام.

أسعدته عودة المعزة الضعيفة، وأخذت الحيوانات تنظر إليها بما فيها ولداها اللذان التفنا عنها

وأخذا يلعبان. أزاحهما نحوها؛ فأخذا يَتَشَمَّمَانِهَا، ثم بدأ الصغير يشمشمها ويبحث عن ضرعها؛ فهدأت ثورتها وباعدت له بين فخذيهما. عاد سامي يتابع التليفون، دون أن يجد الرد الذي ينتظره. أرسل بصورة جديدة، لاحظ أنها شوهدت فوراً دون رد. كتب كلمات من قاموس فريدة، لا يمكن لغريب أن يُعدها تحرشاً، لكنها تعني أشياء بالنسبة لها. يوم الورد. الوحوش ليست خالدة. واعتبر انعدام فضول الطرف الآخر خبراً سعيداً، صار شبه متأكد أنها هي.

بينما يعد العشاء أحس بحاجته إلى التواصل، لكن حمادة المغلق على أسرارهِ تعشى وانصرف، وذهبت أم الغلام إلى الدغل المظلم وسط البستان، مثلما تفعل بين ليلة وأخرى. جلس وحيداً يغذي النار بقطع من الأغصان ويتشمم إن كان سيميز رائحة دخان الليمون من رائحة دخان المانجو. أحس بأحدهم يقف خلفه، التفت إليه وهتف:

- أوو! كأنني ناديتك!

لا يدري كم بقي كامل واقفاً خلفه صامتاً:

نهض وصافحه. وضع كامل على الطاولة كيساً بلاستيكيّاً أسودَ بداخله زجاجة وجلس. مدَّ يده داخل الكيس وأخرج الزجاجة في كيس آخر مربوط فوق عنقها، فأخذ يفكه بتأن واستمتع، ولمعت عيناه عندما أمسك أخيراً بالزجاجة، ورفعها أمام عيني سامي:

- لأجلك اشتريتها. أنت لستَ صحبة مع الـ House Wine.

أحضر سامي كأسين يليقان بالزجاجة التي يتوقع أنها كلفت كامل غالياً. بعد أن شربا النخب. قال كامل:

- شوف يا سامي. من كثرة ما ندمت على ما لم أقله في وقته. أحب أن أقول لك الآن، إنك صديق رائع.

تمتم بالشكر. وقال كامل:

- لا أخفيك أنني في بداية تعارفنا كنت مشوشاً. ابتسامتك الدائمة حيرتني، ولم أعرف كيف أُصنِّفك. عبيط، طيب، ساخر، أو متعال.

- والآن؟

- اكتشفت أنها ليست ثابتة تماماً، وصرت أميز عشرين ظلاً لهذه الابتسامة.

أراد سامي أن يخبره بما يحبه فيه، لولا أنه يكره المبادلات. وبدا كامل راغباً في الكلام. استأنف:

- في عائلة مختلفة لم يكن لكامل بدوي أن يُعد معوقاً. ما يعانيه حقيقة محض التواء في قدمه اليمنى يجعل وجهها مائلاً جهة الأرض من الخارج، بينما يتطلع باطنها للأعلى.

كشفت عن قدمه، واستأنفت:

- كما ترى! لا يستطيع كامل لعب الكرة، لكنه يمشي على حد القدم دون صعوبة كبيرة. مع ذلك استمرأ التدايل. كان آخر عنقود والديه، جاء بعد سنوات طويلة من مولد أصغر أخوته السبعة.

قال سامي:

- ماذا عن الحب؟

- مشكلة صاحبك مع النساء، أنه كان يحب المرأة الأجل في أي مكان يكون فيه. بدأ يُمَيِّز خصوصية مشاعر الحب صغيراً جداً. لن تتصور متى!

قال سامي:

- في الحضانة؟

- قبل. أول كلمة ينطق بها، كانت اسم عروس في بيت جيرانه. لكن تجربة غرامه التي لا تُنسى بدأت في الصف الأول بالمدرسة. كان يراها فيبتهج ويضطرب ويصبيه الخرس. وفي غيابها يفكر بأنه سيصارحها في المرة القادمة، يتخير الكلمات التي سيقولها، ويظل يغيّر ويعدل، ثم تظهر فلا يستطيع أن ينطق، وهكذا.

أطرق، ونظر إلى كأس سامي، هتف به:

- اشرب، لماذا لا تشرب؟

صبّ لنفسه، وسحب من كأسه متلذذاً، ثم أشعل سيجارة، وقال:

- كانت رؤيتها الدافع الوحيد للذهاب إلى المدرسة. كانت الأجل بين الجميع. وأخذ ينتقلان من صف لصف. وبينما كانا يكبران معاً، كان غرامه وحده الذي يكبر؛ فأخذ الجانب الأيسر من صدره ينتفخ بالحب. وكان لا ينقصه سوى ساقين سليميتين لكي يصارح حورية، رغم أنها كانت تبتسم له، لكنه لم يعرف أبداً هل كانت ابتسامة حب أم إشفاق.

أخذ سامي يتابعه مندهشاً من حديثه عن نفسه كما لو كان شخصاً آخر. وصمت كامل قليلاً، ثم استقطر ضحكة صغيرة ساخرة:

- تخيل! كان يظنها لا تخرأ مثلنا.

ضحك مجدداً:

- نعم إلى هذا الحد! كان يراها ملاكاً من السماء، وكان مرتاحاً إلى أنها موجودة بالقرب منه فحسب. جحيمه كان الإجازة الصيفية التي لن يراها فيها، وكان يقطع المسافات الطويلة على قدميه أحياناً، وأحياناً راكباً حماراً يتوغل بين الجنائن، ليطوف بالقرب من بيتها. لم تكن تخرج أبداً،

فيشرع في التطلع إلى السماء، فربما كانت تعود إلى موطنها في الأعالي خلال شهور الحر التي تحيلها رطوبة الأشجار والبحيرة إلى مكان خائق للملائكة. عرف روايات المنفلوطي وكاتب جديد وقتها اسمه محمد عبدالحليم عبدالله، وبكى كثيرًا، وكان ما يغيبه أن ثل المساخيط بها الكثير من الأشجار المثمرة وغير المثمرة باستثناء أشجار الزيزفون التي تنمو في روايات الحب.
قال سامي:

- لكن الحب لا يحتاج كل هذا الصبر، ويمكن أن ينمو تحت نوع آخر من الأشجار. أعرف واحدًا أحب في لحظة مصافحة بسرادق عزاء.

- هذه معجزتك يا صديقي. لكن كامل كان بلا معجزات. ظل يحفظ عبارات الحب، ويجري بروفات مواجهة الحبيبة بإلقاء خطابات البوح الصعبة على جذع شجرة مانجا. لكن لحظة العرض أمام حورية لم تحدث أبدًا حتى افترقا في الثانوية العامة. دخلت طب أسنان الإسكندرية، بينما ذهب كامل إلى جامعة القاهرة لدراسة الحقوق، ولدهشته تخلى قلبه عن الفتاة التي منحت صدره شكل تجويفه، وأحب أخرى!

جرع سامي من كأسه وشرع يممص شفثيه مستطبيًا النبيذ، وقال:

- طبعي، كان قد نضج.

- يبدو أنه كان يعشق الجمال كقيمة، لأن كل ما يجمع هالة فوزي بحورية السيد أنها الأجل بين كل زميلاته. تشجّع وصارح هالة، رغم أنه يراها طول الوقت مع زميل آخر. بعد مرافقته الطويلة أصدرت حكمها بالرفض، وحكت لفتاها، الذي لم يكف عن التتمر عليه. كان من أبناء محدثي الثروة الذين ظهروا مع السادات، يركب المرسيديس ويرتدي موضة السبعينيات السخيفة، بينما يتعثر كامل في عرجه وملابسه البسيطة. نفر من الكلية بكل ما فيها، وعرف طريقه إلى بارات المدينة ومقاهيها الأدبية.

بدا الفضول الشديد على سامي، وسأله:

- تعرفت على أدباء مشهورين؟

- رأى نجيب محفوظ، واظب على حضور ندوته يوم الجمعة، صامتًا على الطرف، لكنه تعرف على الأدباء الشباب حوله، صاروا نجومًا فيما بعد، بعضهم في منتهى اللطف وبعضهم لا يطاق. لكن دعك من هذا. اتسعت حياة كامل جدًا، وتصالح مع الجامعة، وحاول أن يجد الحب مرة أخرى، ببعض التواضع، استهدف فتيات في مستوى وصيفات هالة فوزي ولم يوفق. ثم رأى من رسمت مصيره. ولم تكن طالبة، بل ممثلة شابة لم تدرس في الجامعة أصلًا، لكنها دخلتها لتمثيل مشاهد في

فيلم. سارت بين الطلاب المسافة بين الباب الرئيسي لجامعة القاهرة وقاعة الاحتفالات الكبرى التي كانت قُبَّتْها أيقونة أفلام تلك الفترة. أمام الحضور الرهيب للممثلة الشابة نسي هالة فوزي. ذبلت فينوس بجمالها المحسوب على معايير الفن الكلاسيكي أمام حتحور، إلهة الخصب الممثلة ذات القامة الفارعة التي لم تحتضن الكتب على صدرها إلا لُتْطِرَ عقل كامل. كل شيء فيها كان يبدو وكأنه نما على هواه. العيون، الشفاه، الأنف، الصدر، حتى طابع الحسن في ذقنها غائر مثل سُرَّة جميلة. كل شيء فيها كبير إذا ما طالعته وحده؛ كبير بطريقة ذكورية حتى. لكن كل هذا يتناغم مع بعضه البعض ويدوّخ من يراها. أنشبت جمالها الوحشي مخالفه في أحشاء كامل، هكذا!

جمع أصابعه كالمخالب وأنشبهها في بطنه. ضحك سامي وقال:

- ياه، إلى هذا الحد؟!

- للأمانة يا سامي، تعبير مسكة الأحشاء، ليس لي بل لعملك خميس، صاحب محل براويش متواضع في سراب. ذهبت إليه بمستنسخات من لوحات لجورجيا أوكيف، تأمل الزهرة المثيرة متحيرًا، ثم قال: لا أفهم هذا الرسم، لكنه يُمسك بالواحد منا هكذا. جمع عم خميس قبضته وأشار إلى بطنه كما فعلت للتو. لو عاشت جورجيا أوكيف ورأت حماسة عمك خميس لاعتبرت ما قاله أهم نقد تلقته لوحاتها.

شرد سامي لحظة، يطالع "واتساب"، لم يسمع كل ما قاله كامل، لكنه حاول أن يُثبت انتباهه:

- والممثلة، أمسكت بأحشائك هكذا؟

- أه! أمسكت بصاحبك من مصارينه. لم يهدأ حتى توصلَ إلى عنوانها ورقم هاتفها، وبدأ يكتب إليها ويطلبها في التليفون. وافقت على مقابلته، ومنحته موعدًا في كافيتيريا الفندق المطل على ميدان التحرير، كان له تراس واسع يطل على الميدان ويرى حديقة المتحف، يجلس فيه السياح والممثلون والمخرجون وأغنياء الكُتَّاب. ذهب كامل قبل الموعد، وجلس ينتظرها. وصلت متأخرة، ترتدي فستانًا كحلّيًا أنيقًا. وكانت تضع نظارة سوداء كبيرة لكنه ميّزها من طابع الحسن في ذقنها وأرنبية الأنف الكبيرة والشففتين الممثلتين. شفاه أورجانيك قبل اختراع النفخ. ألقت نظرة وجلست تنتظر، وأخذت تُنْقَلُ بصرها بين القادمين وساعة يدها. وجلس صاحبك يطالعها، وبدأت تتأفف من نظرات شخص نحيل يبدو ريفيًا من بدلته الواسعة، ثم رمقته باحتقار وقامت لتتصرف. ماذا لو أنه يطلع في مشيته أو اكتشفت انبعاث قفصه الصدري؟! انتظر دقائق تكفي لابتعادها تمامًا، وتظاهر بالذهاب إلى الحمام، وخرج من باب الفندق الثاني على النيل. لم يكن بوسعه أن يدفع ثمن ثلاث زجاجات بيرة في فندق خمس نجوم. لم يترك كافيتيريا الفندق فحسب، بل الجامعة والقاهرة

كلها. وعاد إلى أكثر مكان كرهه في العالم.

دون أن يتخلى سامي عن ابتسامه، سأله:

- هذه جنة، كيف تقول ذلك؟

- لأنها جنة، فلا شيء يحدث فيها. خمول يُصدئ القلب والعقل.

- لأوافقك، جرّب مراقبة شجرة واحدة، ستري كل يوم براعم تُولد وأوراق تشيخ وتسقط، زهرة

تنطفئ، ثم تخرج من تحتها ثمرة.

- الطبيعة تمضي ضمن نظامها، لا تكثرث بكامل أو سامي، لا ينزل المطر في وقت يريدك كامل،

ولا يأتي الحر لأن سامي زهد البرد.

- وهل تكثرث بنا المدينة؟

- لهذا لا أعرف الراحة إلا في الكتب.

- ألم تحاول الكتابة؟

- لدي بضع قصائد وصفحات من رواية، وصفحات من بحث في فلسفة القانون، لكنني انصرفت

عن هذه المحاولات وعدت قارئاً، وطبّأخاً.

- هل كان حبك للطبخ انسحاباً من مواجهة شيء أكبر؟

- الطبخ ليس شيئاً بسيطاً يا صاحب السعادة. ماذا لو نجحت في تعليم هؤلاء الناس تذوق ما

يأكلون؟ هل كانوا ليقبلوا بهذا المستوى من الهوان؟!

بدأ سامي يشعر بشيء من الخفة في رأسه، لكنه لم يفقد تركيزه، وأثار فضوله أن كامل ينتقل في

الحديث عن نفسه بضمير الغائب، عند الاعترافات المحرجة. وأراد أن يُعلّق، لكنه فضّل مسابرة،

فقال:

- لكنهم لم يتعلموا. وظلوا يسخرون من طبخه.

وكأنه نكش جرحاً. صمت كامل طويلاً. ثم زاد الكأسين، وأشعل سيجارة، وقال:

- خطأ كامل الأكبر كان الزواج من أقبح امرأة في العالم. ابنة جوع، مثل معزتك الفقيرة. هل

تتصور أن الحائرة يمكن أن تتذوق طبخك؟!

سأله سامي:

- إذا لم تكن أحببتها يوماً، لماذا تزوجتها؟

- خطبت أختها ليلي. قالوا مخطوبة. وعرضوا أختها فقبلت، بسبب ما يمكن أن تسميه الاستنارة

التي وصلت إليها بعد رؤية الممثلة.

- كيف يتذكر كامل الممثلة الآن؟

- تابعها حتى اعتزالها. صارت نجمة وتربعت على عرش الإغراء في سنوات قليلة، وكان يدخل فيلمها أكثر من مرة. في كل أفلامها هناك رجال يؤدون إليها خدمات ويطلبون الثمن، وكان التأفف يبدو في عينيها الواسعتين، عندما تدخل سرير أحدهم لتدفع. الغريب أن حياتها كانت تشبه أفلامها. تزوجت تسع مرات، ويقال اثنتي عشرة مرة، وكانت تدفع في الواقع كما في الأفلام. تستطيع أن تقول إن خمسًا من المرات الست التي أتت بأولاد كامل كانت انتقائمًا من حتحور، في مناسبات خمس من أفلامها وزيجاتها. ثم قرر الخروج من السباق. لكن آدم، آخر العنقود جاء في ظروف غامضة.

بمجرد انصرافه التقط سامي التليفون وكتب: وجدتك يا ريذا. كفاية أرجوك. رُدي. ازرققت الرسالة دون رد. تشجّع، وضرب الرقم. وتابع مضطربًا الرنين حتى انقطع. بعناد الكحول وشجاعته، طلب مرة، مرتين، وثلاثًا. انفتح الخط وسمع الصوت الذي طالما بدد حزنه في الليل.

- نعم!

أخذ شهيقًا عميقًا، ومع ذلك خرج رده واهنًا خجلًا:

- أ.. أنا... آسف يا ريذا.

بسخرية قاسية لم يتصور أن تقابله بها، قالت:

- شرّفت!

وصلته أنفاسها الغاضبة، فتبخر الكحول من رأسه، وأخذ يتهته:

- أنتِ عارفة أن... ونظرًا لتاريخ... خفت عليك منهم... ولم أنس أن حمائك...

- لا أفهم شيئًا مما تقول. ولا شيء يبرر اختفاءك الغريب.

أخذ يتعرق، وبدأ يشرح لها من البداية، ومع كل تقدم في الحديث يشعر بأنه يخسر قضيته أمامها. امتدت فواصل الصمت، ثم طلبت منه إنهاء المكالمة، لأن إشراق بجوارها وبدأت تتلمل في نومها. أنهى المكالمة مثخنًا بالجراح وراضيًا.

جعله تضارب أحاسيسه يضع غضبه في حمادة، الذي خرج ولم يعد حتى الآن ليطلب المفتاح. ظل يعاود النظر في الساعة كل دقيقة، حتى اخترق صوت موتوسيكل السكون؛ فخرج إلى الفرندا ليستطلع. استدار الموتوسيكل الذي أقل حمادة وانصرف مسرعًا بفرقعات تهز سكون الليل، وتركه واقفًا لا يريد أن ينادي. أحضر سامي المفاتيح ربط عليها كيس بلاستيكي وألقى به إلى الشاب.

استيقظ في الصباح متأخرًا. رأى أثر بلل مطر خفيف على المدق، يبدو أنه سقط عند الفجر. ذهب إلى أم الغلام وراء القطيع، وأسعده أن يرى الحمل المريض بحالة أفضل. لم يغادره الوهن تمامًا، حتى أن هبة هواء بسيطة هزته، لكن عينيه بدتا مشرقتين. ولاحظ براعم غضة على أغصان شجرة كمثرى سارحة بين المانجو. قال:

- تأخرت هذه الشجرة كثيرًا.

تطلعت أم الغلام، وقالت:

- من تأخيرها، قُلت ماتت.

أخرج التليفون يصور لفريدة البراعم الصغيرة؛ فلمح عنقود مانجو من ثلاث حبات في حجم بيض الدجاج. أخذ يحتال ليصورها من بين كثافة الأوراق. وجد صلاح ونعمة أمامه. رحبت أم الغلام بنعمة:

- تعالي يا حلوة في حضن ستك.

بدا على سامي الارتباك، وأدرك ارتبائه فارتبك أكثر.

هذا ليس أفضل توقيت تأتيا فيه.

لم يستعد فريدة بعد. يؤمن بأنها قدره منذ عرفها. وصار يعرف أن القدر يحتاج أكثر من التمني.

أراد أن يهتف: وجدتها! وجدت فريدة!

عندما تختفي نعمة عن عينيه يمتلك إرادته الكاملة، ويرى استحالة ارتباطه بها بأي شكل كان، لكنها تظهر وتنتشر طاقتها البدائية حولها دون أن تفعل شيئًا. ما يغيظه الآن أنها لا تفعل شيئًا. ولا تقصد شيئًا، بريئة كالنار. لكن أم الغلام أجبرتها على أن تتحني لتقبّلها؛ ففاح عطرها كغصن برتقال مزهر هزته الريح تحت المطر. استدار عن الصبية فأحس ببعض الهدوء. انحنى صلاح على الحمل، لامس ظهره، ودفعه برفق، ثم جلس بجوار أم الغلام، وقال:

- القضية تأجلت.

قالت أم الغلام لسامي:

- عجزت يا خواجه تحلها مع المجنون صاحبك؟!

احمرّت أذناه، ولم يقل شيئًا. وقال صلاح:

- أين حمادة؟ أراكما ترعيان الأغنام، لم يتغير عليكما شيء بوجوده.

قالت أم الغلام:

- لا تغير. بقى عندنا عجل نحتار في علفه!

قال سامي:

- يا جدتي. ري الأرض وتنظيف المعلف، ليس بالقليل.

قال صلاح:

- ري؟ الشجر لا يحتاج أحدًا على رأسه بينما يشرب. كنت أمر الصبح أشغل الماكينة، وأروح لحاجاتي، وأرجع أطفئها عند العصر.

قالت أم الغلام:

- أنت يا صلاح رجعت قرفان من التل الكبير. وتركتنا قاعدين على معزتين وخروفين وحمادة!

قال صلاح:

- نجرب سوق الجبلية؟

قال سامي:

- نشتري ماغز، لم أحب الأغنام.

أحس سامي بأنه كسب جولة، لم يكره الأغنام كما قال، ولا يريد المزيد من الحيوانات، لكنه انخرط في الكلام ليمسك بزمام انفعالاته. كانت نعمة تستمع إليهم باهتمام، وأخذت نارها في الهمود، وترمّد سطحها. أحس برغبة في أن يصورها لفريضة، ليرى إن كانت ستراها جمرًا أم رمادًا.

توهّجت ابتسامته للفكرة، وصارت له لمعة عيني طفل يدرك الغلط، ويحاول أن يُقدم عليه، متظاهرًا بالبراءة.

البائعون في سوق الجبلية كانوا أكثر من المشتريين، وأكثر منهم معًا السماسرة الذين تدافعوا نحو سامي، يجذبونه من ملابسه. باشا، يا باشا، تعال لأريك ما لدى أخي. باشا، ماذا تريد. سعادة البية، ألق نظرة، هذا الواقف هناك أبي، معنا جدي أوزي، ستأكل لوزًا يا باشا.. بينهم من يرتدي جلبابًا، وبينهم المحشور في "تي شيرت" عليه رسوم وعبارات إنجليزية مع بنطلون جينز، معظمهم حليقو الرؤوس. تذكر سامي حصار بلطجية الميدان ليلة معركة الجمل. رأى صلاح توتره، وأخذ يبعدهم عنه بخشونة، فتطاول أحدهم عليه. غضب صلاح، وجذب الشاب من قبة الـ "تي شيرت"، وأخذ سامي يتوسل إليه ليتركه. انتبه تاجر شاب إلى ضيق سامي، فسأله:

- مزرعتكم قريبة؟ يمكنني أن أمر عليكم بعد ساعتين.

وصف له صلاح المكان، وأعطاه رقم تليفونه، وسأله:

- باسم من أسجلك؟

- محمد الشرقية، أو محمد غنم.

أمسك صلاح بسامي من يده، وشقا الطريق بين الزحام عائدين. في انصرافهما مرا بقسم للطيور. قال سامي:

- لماذا لا نشترى دجاجًا؟

اشترى خمسين فرخًا، الواحد منها يملأ اليد. ربطها البائع من أرجلها في مجموعات. ما أن لامست صندوق العربة حتى أخذت تنتفض وتزحف، تتعارض الإيرادات في كل مجموعة فتتألم كلها وتصرخ. جلس سامي في الكابينة ملتفتًا إلى الخلف قلقًا يتابع الدجاج في الصندوق، بين لحظة وأخرى يرى نفضة جناح فيشعر بالارتياح. عندما وصلوا اكتشف أن أربعة أفراخ ماتت في الطريق. تكدر، وواسته أم الغلام بثنائها على فكرته. وقالت إن فراخها العتافي يمكن أن تؤدي هذه البرابر. دخل صلاح إلى مخزن العلف وعاد بلفافة شبك معدني، وأقام حاجزًا يقسم العشة من الداخل. دبّ النشاط في أم الغلام، طلبت من حمادة حزمة برسيم، وشرعت تفرمها بسكين. بعد الانتهاء من تسكين الضيوف الجدد، ووضع البرسيم المفروم أمامهم وسقايات الماء، جلس الثلاثة أمام باب المعلف الخارجي. وصل محمد غنم وتوقف بعربته أمامهم.

قبلوا من الماعز التي أنزلها وعرضها عليهم أربع عشرة معزة، بينها واحدة بيضاء تمامًا بعينين زرقاوين، خلفها طفل يشبهها تمامًا. سأله سامي:

- هذه شامية؟

أجابه غنم بحماسة:

- نعم، ما شاء الله عليك!

قال صلاح:

- بكّاش يا غنم.

والتفت إلى سامي ضاحكًا:

- شاميات الماعز لسن بيضاوات يا خواجه.

رد غنم:

- الباشا أحبها، وهي جميلة. تأمل طولها؟! والعريس الصغير بعد شهرين أو ثلاثة سيُعشّر ويملاً

لكم المعلف بنتاجه.

قال صلاح:

- نريد تيسًا جاهزًا الآن.

أشار غنم إلى شقيقه الواقف بصندوق العربة:

- ناولني الحصان.

تلقف من أخيه جدبًا مقرنًا أبلق تتوزع بقعه السوداء والبيضاء في نسق جميل، شعره ناعم مسترسل، يبدو على رقبتة عُرف حصان، ومفروق على طول ظهره. طويل ممشوق على قوائم عالية.

- جدع زرايبي معتبر، سيغير لكم نتاج المزرعة.

قال صلاح:

- صغير.

- لكنه بالغ، الزمن قدّامه. انفرج عليه بعد شهر واحد.

وأخذ يربّت ظهر الجدي ويديره ليروه من كل جهاته. والجدي لم يجر يمينًا أو شمالًا كباقي الماعز بل كان يستدير باعتزاز. وعندما توقف غنم عن التقليل فيه، وقف في مكانه وبدأ يتطلع يمينًا ويسارًا. بعد انصراف التاجر الشاب، دفعوا بالقطيع الجديد وحده تحت الأشجار ليختبروا حيويته، اكتشفوا دموعًا في عيون معزة، وبدت ذابلة. تحسست أم الغلام تحت عينيها واكتشفت مسارين للشعر الملتصق المقدد بالدمع الجاف من تحت العينين إلى أسفل الفك. قالت:

- الدمع قديم. اطلبه اثبت الحالة يا صلاح.

سأله الشاب:

- أية معزة؟

- أنت عارف يا غنم. الرصاصية.

- هذا لا شيء، حبتين ريفو يخلوها فل الفل.

- نجرب. وإذا لم تتحسن، لك معزتك ولنا فلوسنا.

بعد أن أغلق صلاح التليفون التفت إلى أم الغلام يشاكسها:

- هذه بالذات اختياريك يا ناصحة!

- الولد أربكنا. خذ، خذ. الله يرحم أيام ما كنا نساوم على المعزة أسبوعًا، ثم نأخذها على فُرجة، وفي الآخر نردها لصاحبها.

قال صلاح:

- في كل الأحوال، لن يدخل الجنة تاجر معيز واحد.

واصلت المعزة الذبول. دون أن تتوقف دموعها عن الانسكاب. يُعرض عليها البرسيم فتأكل متضررة، مثل مريض يأكل إكرامًا لذويه. وعندما بدأت تعزل نفسها استدعوا طارق. جسها ووجد حرارتها عالية جدًا. طلب من حمادة الإمساك بالماعز واحدة فواحدة لفحصها. توقف عند البيضاء ذات العينين الزرقاوين، قال:

- علاوة على كبر سنها، انظر! أحد فلقتي ضرعها ميتة.

رأى إحباط سامي؛ فأثنى على الجدي الأبلق.

رد سامي متقمصًا محمد غنم:

- جدع زرايبي، حلو.

تمهل الطبيب، قبل أن يجيبه:

- ي.. ي.. يعني. ليس زرايبيًا، هو مخلط، لكنه حلو.

نعجة دوارة ومعزة باكية، وثلاثة بفلقة ثدي واحدة. لكن القطيع صار كبيرًا، وأصبح لدى سامي تنوعًا من الشخصيات يستغرق في تأمله والتعرف عليه، وتدريب الكلاب على قيادتهم. وأضفى صخب الأفراخ الصغيرة التي لم تقع بينها حالات موت روحًا طيبة على المعلق. واكتشفت أم الغلام معزة تقترب من الولادة، فأحست بالارتياح، وابتهج سامي، وأخذ يفكر بأنها ستكون أول حالة ولادة يشهدها في حياته.

أخذت أم الغلام تراقبها، وتوصي حمادة بأن يتفقدتها في الليل. وأصبحت صور المعزة وكل التفاصيل حولها القصة الجديدة التي يصورها سامي ويحكىها لفريده.

رأت فريدة الصور ولم تُعلّق. أخذ يطررها بالصور القديمة والجديدة. في المساء ليلاً أعادت إليه إحدى الصور بعد أن حددت بقلم فسفوري جزءاً في طرف الصورة. وسألته: من هذه؟ دقق فعرف ثوب نعمة. وابتهج لغيرتها، وأحس أنه كسب أرضاً عليه أن يحافظ عليها. فلم يرد. كتبت: اطلبني. كتب: مشغول. وأرسل بابتسامة كبيرة، ثم طلبها. أطلعها على حياته حتى اللحظة، وكان بوسعه أن يميّز اختلاجات التسامح في إنصاتها. ثم أخبرته بموت حماتها.

سألها ملهوقاً:

- متى، كيف؟!

- منتصف يناير.

- الله يرحمها. الآن نستطيع أن نتزوج؟

- ليس بالسهل هكذا، اطلب، وأنا أفكر.

- طالب من أول لحظة رأيتك فيها.

- لا بد أن تطلب كل يوم، إلى أن أستجيب.

أخذ يدير في رأسه خبر موت حماتها سعيداً، هتف:

- جد! حماتك ماتت؟ وانتهت مشاريعها لتزويجك من أحد إخوة المرحوم؟

- تحرروا وتحررت. الأعزب خطب. والمتزوجان لا يجروان على السؤال عنا، خوفاً من

زوجتيهما.

- ممتاز!

- ليس قبل أن أوافق عليك.

اندفع في الكلام، وبعد اكتمال ساعة انغلق الخط فجدد الطلب، حتى انتبه إلى أنها قد نامت.

في الصباح الباكر وجدت أم الغلام المولودين تحت المعزة التي كانت تترقب ولادتها، كانا مبللين فوق كيس المشيمة التي لم تزل متصلة بالأم. كانا ولدًا وبنثًا، لهما لون أمهما الذهبي. وجاء محمد غنم وأخذ المعزة الدامعة. ووعد برد ثمنها يوم السوق القادم.

بدأ سامي يتحرق للسفر إلى القاهرة، لكن فريدة طلبت منه انتظار فترة الامتحانات، وبدأ يلمس بنفسه بطء حمادة، وعدم اكترائه إلا بالغناء والشاي والقهوة، وأصبح القطيع أكبر، وهناك مواليد جدد ومرضى. النعجة الدوارة لا تموت ولا تحيا. تحتاج إلى من يحملها حملاً ويوقفها في الشمس لصق جدار. تقف على سيقان مهتزة. يمسك بوزها بنفسه ويجعله يلامس العلف، فتلتقط بعض قشور الفول الهشة وتترك مكونات العليقة الصلبة، ثم تنهار لاهثة وتُطرق بعينيها الخاليتين من

التعبير، كأنها تفكر بأنها صارت عبئًا. على غير انتظار وجدها سامي مينة ومقددة في ساحة المعلف. تقبل الأمر بالتسليم، بل بشيء من غبطة من يرى الجانب المشرق في موت عجوز بالعائلة؛ فلم يزل الشباب والأطفال الذين تُرجى سلامتهم بخير. وقد زاد عدد الماعز اثنين، وصار المولودان يحجلان وراء أمهما، وأضفت الصأصة الهنية لسنة وأربعين فرحًا بلديًا بهجة على المعلف. تنطلق موسيقى نداءاتها للطعام في الصباح مشرقة تنافس تسجيلات حمادة.

بعد أن ترتفع الشمس وتجفف الندى عن الحشائش، يُخرج القطيع. صار وقت الرعي متعة. يستغرق في مراقبة طريقة كل حيوان في الأكل والتعامل مع رفقائه. هناك من يرعى في صمت، من يحمله التنافس إلى التناطح وافتعال المشكلات، وهناك من يأكله الحسد فيقضي وقته في مراقبة غيره، بينما لا يكف الجدي المتفاخر عن إدهاشه.

أسماء «الغندور». حريص على نظافته مهما تراكم الروث في عنبر المبيت. المساحات البيضاء من شعره الناعم ناصعة على الدوام، لا ينحني للحشائش الوفيرة تحت أظلافه، بل يرفع رأسه ويلتقط بتأن أوراق الليمون الصغيرة التي لا يمكن أن تُشبع، مستحبًا مرارتها وعطرها. يراقبه سامي كل يوم منتظرًا الوقت الذي يملُ فيه طريقته غير المجدية في الرعي، ويتربح اللحظة التي سيتواضع فيها ويُنزل رأسه ليأكل. لكنه لا يفعل. عندما يسأم من وخز شوك الليمون ينصرف إلى النط على أي شيء يتحرك. معزة، جدي، نعجة، ناشرًا رائحة الشبق. أخذ يصور فكاهاته الإيروتيكية لفريدة؛ فتعلّق: أكيد تحسده.

عندما تشبع الحيوانات وتشرع في الاستلقاء تحت الظل. يضرب سامي الأرض بعصاه ليعيدها إلى المعلف، وتتلقف الكلاب الإشارة فتحاوط القطيع تستعجله، تبدأ الحيوانات بالجري، ويمضي الغندور متمهلاً، يتظاهر جرو بعضضته، وبدلاً من أن يخاف ويجري، يتوقف متأهبًا للنطح، ينصرف عنه الكلب فيقف شاردًا كأنما يُفكر إن كانت العودة تناسبه أم لا. وبعد أن يصبح القطيع على بعد عدة أمتار منه يتلفت يمينًا ويسارًا مودعًا أشجار البستان، ويتحرك للعودة بخطو منتظم. يدخل المعلف وحيدًا بعد أن يكون سامي قد أدخل القطيع إلى العنبر المسقوف وأغلقه خلفه. يستبقه في الخارج ويقدم له حفنة من العلف الجاف في مقطف، يأكلها على مهل.

يرعى القطيع الحشائش في النهار، ويبيت حمادة أمامه وجبة من البرسيم بالليل، لا تستهلك شيئًا من حقل البرسيم الممتد. طلب صلاح منه أن يحش البرسيم ويرفعه ليحف فوق السقف.

قالت أم الغلام:

- لماذا لا نشترى عجولاً؟

قال سامي:

- زرعتم البرسيم، ولم يكن عندك سوى أصيلة يا جدة، فماذا كنتم تتوون أن تفعلوا به؟

- كنا سنبيعه. لكن أصبح عندنا معلف.

قال صلاح:

- الجمال أفضل، نادراً ما تمرض.

أخذ صلاح وأم الغلام يتباريان في ذكر فضائل العجول والجمال، بينما يفكر سامي بفريضة. بدأ يكتب لها عن النقاش، وترسل إيموجي ضحكات. وكتبت: وأنت، ماذا تريد؟ كتب: سأختار الديناصورات، من أجل هند وإشراق عندما تأتيان. والله شكلك أنت الفرحان، كأنك عيل في رحلة عند أقاربه في الريف.

حسم صلاح الجدل بينه وبين أم الغلام:

- سنذهب إلى السوق ونرى.

التفت إلى سامي، وقال:

- لنجرب سوق بلبيس هذه المرة.

- هل سنأخذ حمادة معنا؟

- لا حاجة إليه، دعه مع الغنم.

- متى؟

- الخميس.

كتب سامي لفريضة: سوق بلبيس، بعد يومين، ووضع إيموجي حيوانات.

لم يشتروا من السوق. خلال جولة الاستطلاع الأولى تعرّف صلاح على تاجر عرفهما بنفسه وعرض أن يأخذهما إلى بيته. لديه خيارات كثيرة من العجول، ولدى جاره جمال جيدة. سأله سامي عن بلده، قال:

- قرية شلشلمون.

قال صلاح:

- يااه! سوقها السبت كما هو؟

- لم يتغير. من أين أنت؟

- الأصل، الأصل؟ من ميت سهيل.

سار جاد زعلوك بعربته أمامهما حتى وصلوا إلى حوش أمام بيته. ترك لأبنائه مهمة إنزال العجول التي عاد بها، ومضى أمام الضيفين إلى غرفة واسعة مفروشة بالحصير، وبعد قليل دخل شاب بصينية إفطار، عليها أطباق بيض وجبن وعسل وبطاطس مقلية، ثم جاءت قصعة جمر صاف عليها كنكة قهوة وكنكة شاي. قال صلاح:

- لا، لا، هذا الكرم سيجعلنا نسكن عندكم.

رد جاد:

- بيتكم ومطرحكم.

بدا سامي مستريحًا للرجل الأسمر ولأولاده الذين يتوالى دخولهم لتلبية طلبات الأب. بينما يشربون الشاي، بدأ ذكر العائلات والأنساب في قرى منيا القمح، وعدّد جاد لصلاح زبائنه من ميت سهيل. قال صلاح إنه لا يعرف إلا عائلته، لأنه نزع مع أبويه عندما كان طفلاً. كان أبي بلا ملك. ثم أشار إلى سامي، وقال:

- جده الباشا جعل منا أصحاب أملاك. وزع علينا أرضه.

قال جاد:

- لم يكن من الضروري أن تهاجروا لتلتقوا بخواجة. الخواجات في مركز منيا القمح فعلوا الشيء نفسه.

قال صلاح:

- جده لم يكن خواجة. كان وزيرًا وفديًا.

التفت جاد إلى سامي وقال:

- لكن الأستاذ يبدو خواجة.

ضحك سامي:

- الخواجة كانت أمي. ألمانية.

من بين العجول المستلقية تحت الشمس في الساحة الواسعة أمام البيت اختار صلاح سبعة عجول. وأخذوا أربعة جمال شابة من عند الجار. لاحظ سامي أن تُجَار العجول والجمال لا يكثرون من القسم كتجار الماعز، ونادرًا ما يحلفون بالطلاق، بل بالمصحف، بالله، باللقمة في أيديهم، أو بشبكة الأصابع العشرة في الكفين المتصافحتين، وأحيانًا بالنار: «وحياة هذه النار، وإلا أحترق فيها...». كان من الضروري أن يصحبهما جاد بعربته الكبيرة، لحمل البهائم والعودة بثمنها.

أعطت العربة ظهرها لتل من الروث الجاف داخل الحوش، وبدأوا بقيادة القعدان واحدًا فواحدًا إلى قمة التل التي تضاهي صندوق العربة، ويشد أحدهم القاعود ويدفعه الآخرون إلى الصندوق. أثارت الجمال عاصفة من الرُّغاء المُقبض للقلب. لكنها جلست في النهاية متلاصقة، بينما تفيض أعناقها الطويلة خارج العربة. بعد ذلك تم الدفع بالعجول وتركوها واقفة في المساحة المتبقية، وبعد تحزيم الحمولة، ركب سامي بجوار صلاح وانطلقا أمام عربة جاد الذي جلس بجوار ابنه السائق. طوال الطريق يُفكّر سامي بمعضلة إنزال الحيوانات من تلك العربة العالية ومخاطر تعرض إحداها للكسور.

أمام المعطف استطلع التاجر المكان، بحثًا عن تل شبيه بتل الروث في شلشلمون، ثم قال:
- بسيطة.

وجّه ابنه ليقرب بمؤخرة العربة من بقايا رمل البناء، وطلب إلقاء بالات تبين فوقها، رتبها حتى صارت مصطبة متينة متداخلة البناء، وبدأت عملية إنزال الحيوانات بالجهد ذاته، وبدون خسائر. عاين العنبر المسقوف، وفاجأه وجود الضأن، قال:

- لم أعرف أن لديكم ماعز. لا يمكن أن أقتنيه ولو كانوا يوزعونه مجانًا.

ونصح بقسمة العنبر بين العجول والماعز بفاصل مرتفع، مع الإبقاء على الجمال مربوطة إلى طوالة الساحة المكثوفة. بدا سامي مبتهجًا بقدم السكان الجدد. فور دخولها أرسلت أم الغلام حمادة ليحش برسيمًا يكفي هذه البهائم.

أخذ سامي يصور لفريضة الجمال في الساحة، وفي الخلفية كان صوت الغناء:

صبرييه صبرييه صبرييه ووه انا" آه" صبرييه.

هاربوس كا تاكا ما اسارى هاتيووس اول آرى..

ام ماليجو ام ماليجو ام ماليجو ألومييه..

جاءه ردها: الله! لما آجي أخلي حمادة يعلمني نوبي، مثلما تعلمك نعمة الطبخ. وأتبعته عبارتها
بايموجي مكابدة.

كان يتصور أنه لن يحب بعدُ الماعز، لكنه فتح باب المعلف في الصباح، فنهضت الديناصورات الصغيرة كأنها تحييه. مدّت أعناقها الطويلة باتجاهه، إلى الحد الذي تتيحه أرسانها. اقترب بحذر، رأى الطيبة في العيون السوداء الكحيلية بأهدابها الطويلة الناعسة. تقدّم حتى صار على بعد خطوة. مدّ الجمل الأقرب رأسه متمسحاً فيه كأنه يصافحه. في اللقطة الخاطفة من الجمل رأى أنفه الشامخ ومشفره العريضين اللذين يوحيان بالطيبة. أحس بسحر النظر إلى كائن واقعي وخيالي في الوقت ذاته.

بدأت الجمال الأربعة تدور في أماكنها. عيونها تطلب المساعدة. مضى نحو كومة البرسيم المبيّنة من الأمس بجوار غرفة حمادة، وحضن منها قدر اتساع ذراعيه، ألقاه أمامها. بدأت تلتقم الطعام، وترفع به رأسها فيحاذي سطح العنبر المسقوف، تتساقط من بين أشداقها أعواد البرسيم وتسقط، مثلما تتدلى خيوط المكرونة الاسباجيتي من شوكة متذوق فوضوي، مستمتع بمذاق المكرونة وضرب قواعد اللياقة.

أخذ يُصورها ويرسل إلى فريدة. بروفايل جماعي للأربعة بأفواههم الملتهمة، بروفايل للقاعود للأقرب منه، ثم لقطة قريبة تبرز عينه وأذنه.

طرق باب حمادة حتى يوقظه قبل أن تصل أم الغلام وتوبخه. خرج الشاب متثاقلاً، منشفته على كتفه. حيا بإشارة من يده ومضى إلى الحَمَام. وغاب بالداخل. وأخرج سامي قطيع الماعز ومضى في إثره. جلس وراءه يتطلع إلى تليفونه بين الحين والحين. لم ترَ فريدة الصور؛ فبدأ يصور لها مقاطع فيديو لتقافز المولودين الصغيرين حول أمهما وتناطحهما، ثم تحرشات الغندور بالماعز والأغنام. وكتب إليها: سننجب ولداً نوثياً كهذا. شرعت تكتب: ونتركه يلهو وراء الماعز في فانلة على اللحم، دون شيء من تحت. كتب: وماذا نسميه. كتبت: دقدق. جاءت أم الغلام. جلست بجواره تتابع حركة أصابعه، ثم قالت:
- لم يأت صلاح. كان واعدي هو ونعمة بأكلة محشي تعملها هنا.

ظهر على المدق من بعيد الأخوة الثلاثة، مصطفى في المقدمة، ووراءه عبد السلام الحافي، والثالث هارون الملتحي الذي لم يره سامي من قبل. انعطفوا تجاه سامي وأم الغلام، حتى صاروا أمامهما. قال مصطفى:

- ماذا تفعل هنا؟

لم يفهم سامي السؤال، وتوسعت ابتسامته لأن صوت الرجل المسرع لا يتناسب مع ضخامته.
لكنه أعاد السؤال فرداً سامي:

- تعرفون من أنا.

تقدّم الحافي، وقال:

- ونحن ورثة هذه العجوز المجنونة.

قالت أم الغلام:

- أمك المجنونة يا حافي.

لم تتخل الابتسامة عن سامي؛ فبدا عليهم شيء من الارتباك، فابتسم أكثر سعيداً بأن ابتسامته
استعادت سحرها القديم. وقال مصطفى بنبرة أقل عدوانية:

- كلامنا معك أنت. وأنت شاب طيب.

ترىّث سامي يبحث عن الرد، ثم قال:

- اكتشفتهم وجودي بعد ستة أشهر؟

قال عبد السلام:

- ليس معنا ما نرمم به السرايا أو نشترى به هذه البهائم، فقلنا نتركك تفعل ذلك.

قالت أم الغلام:

- غوروا من قدّامي يا حثالة.

خطا عبد السلام الحافي نحوها فأمسك به نوح، ودفعه إلى الخلف:

- اعقل يا عبده.

ضربه الحافي على يده:

- ابعد أنت يا شيخ هارون، لا توسخ ملابسك. قلنا لك لا تأت معنا.

ظهر صوت عربة صلاح، وبعد لحظات توقفت أمام السرايا. وهرول باتجاههم. كان مصطفى

يسرع:

- بالذوق، بالقوة، هذه أرضنا.

قال صلاح:

- ماذا يجري هنا؟

ردّ عبد السلام:

- شيء لا يخصك.

- لست أنت يا عبد السلام من يحدد لي ما يخصني.
 - حقا طبعًا. انفتحت لك طاقة القدر. كم كسبت من سمسرتك على الخواجة؟
 - ماذا قلت يا حافي؟!
 - أقول ألم تشبع؟ البستان امتلأ بجثث الحيوانات النافقة التي اشتريتها لهذا الشاب الطيب.
 - قال صلاح:
 - ولم يزل به مكان لجثتك يا حافي.
 - أنت ديوث، تأتي بحفيدتك إلى رجل أعزب.
 - والله لأدفنك هنا يا ابن المجرم!
- جرى نحو السيارة وعاد بقضيب حديدي. صرخت أم الغلام، وجاوبتها نعمة بصويت عال فتجمع الرجال من البساتين المجاورة، فصلوا بينه وبين الأخوة. ساعد هارون الرجال في دفع أخويه إلى خارج البستان، لكن مصطفى راوغهم وعاد مترجرجًا:
- ابن المجرم؟ ستدفع ثمن هذا يا عرص.
 - نط صلاح وخطف حديدته من يد حاملها، وجرى وراءه:
 - لو كنت رجلًا ابق في مكانك يا ثور.
 - نجح الجيران مجددًا في التحجيز بينهم. وقال رجل كبير:
 - خذ أخويك وامش يا مصطفى، أنتم المعتدون. وأنت يا صلاح على بيتك. سنجلس فيما بعد وكل من قال كلمة يحاسب عليها.
- مضت أم الغلام وراء الرجال الذين أخذوا صلاح إلى الفرندا.
- وجهت أم الغلام حديثها إلى رجل ملتج يبدو قريبًا من سنها:
 - رأيت ما فعله أولاد أختك يا صالح؟
 - سنرى يا نجفة، ومن له حق سيأخذه.
 - حق؟ التهجم علينا محتاج تحقيق؟
 - لست أنت التي ستحكمين. كلام الأولاد له وجهة.
- وقفت أم الغلام وقالت:
- شرفت يا شيخ طالح. من غير مطرود.
- انخرط الرجال يناقشون ما قاله الشيخ صالح، وبدأت الخلافات بينهم. وأخذوا يتكلمون في وقت واحد، وفي النهاية توافقوا على عقد جلسة صلح بعد أسبوع.

قالت أم الغلام:

- قعدة بشأن ماذا؟

قال الشيخ صالح:

- لحل كل شيء، كل من عنده كلمة منكم يقولها، والرجال يحكمون.

- لا أنا ولا سامي عندنا مشكلة مع أحد.

- أنتم أهل وجيران ولا بد من تصفية الجو.

- لو شردت ثلاثة ثيران ودخلت أرضك يا شيخ صالح ستحقق معها؟!!

- والغلط الذي حصل؟

- إن أراد صلاح أن يجلس بسبب الغلط في حقه، هو حر.

أنهى صلاح الجدل، ووعد الشيخ صالح برد خلال أيام. وانصرف الرجال. دخلت أم الغلام إلى المطبخ، وخرجت بصحبة نعمة تحمل صينية عليها خلطة أرز وأوراق كرنب مسلوقة، بينما تقنعها:

- هنا يا حبيبتي، تشتغلي في نور ربنا، وأنت قاعدة معنا.

قال صلاح:

- كانت مكسوفة يوم أرسلت طبقًا واحدًا.

قال سامي:

- لم تكوني تعرفين أنني عائد ومع ذلك كففنا.

ابتسمت وقالت:

- لم يكن ساخنًا، حتى.

تذكر سامي، ما قاله الحافي بحقه وحق صلاح ونعمة، فأحس أنه يجب ألا يطيل الكلام معها. أخرج تليفونه، وراح يطالعه.

قال صلاح:

- ربنا يديم ابتسامتك يا سامي، أنت ولا كأن حاجة حصلت!

وضع التليفون وسأله:

- أحضرت سجانر لحمادة؟

- ها هي

ومد يده إلى جيب الصديري تحت الجلباب. أخرج العلبة مهروسة. ابتسم، وقال بينما يقذف بها

تحت الشجر:

- حمادة هذا فقره ذكر.

قال سامي:

- مسكين. أريد تشجيعه. يبدو مغمومًا. العمل كثير عليه.

- هو مغموم من ساعة ما وصل.

حاول صلاح إقناع أم الغلام بقبول جلسة التحكيم، لكنها ردت بحسم:

- أنت عبيط يا صلاح؟ نضع أنفسنا تحت ضرس ناس ضلالية؟

- لا، إذا قعدنا سنتكلم في التعدي فقط.

- أنت سمعت خالهم الملعون!

فقد سامي تركيزه، وعاد يطالع الموبايل انتظارًا لرد فريدة. وابتسم صلاح لرؤية رمقاته لنعمة والارتداد السريع لعينه اللصة المفعمة بالغبطة، ثم ظهر صوت عربة على الممر. قال صلاح:
- غنم النصاب وصل.

وقام مع أم الغلام ليقابلاه عند المعلق، تحرّج سامي من البقاء مع نعمة وحدهما، فذهب معهما.
كان محمد غنم قد فوّت عدة مواعيد مع صلاح، الذي شدّد عليه أن آخر موعد هذا الثلاثاء لرد ثمن المعزة المُسترجعة. لكنه لم يأت بنقود، وطلب منهم أن يتخيروا معزة بديلة.
- ورحمة أمي، السوق نائم، لا فيه بيع ولا شراء.

وأشار إلى شقيقه ففتح السياج الخلفي لصندوق العربة. ووقف يمنع بعصاه الحيوانات التي استدارت وتأهبت للقفز. مد يده إلى معزة سوداء طويلة بقرون وشعر يلمع بصحة جسدها القوي. سحبها، وأوقفها على الأرض:

- ماذا تقولين في هذه يا أمي، ابنة دارنا، لم أشتريها من أحد؟

حملت أم الغلام بطن المعزة فوق يديها، وأخذت تجسه. ثم مدّت يدها إلى الضرع الثقيل، ووضعت كفها تحت الحلمتين. قالت:

- ماله يا ولد صلب، حجر.

قال غنم:

- عادي يا جدتي، تستعد للولادة.

- أطلقها.

- الفرق ثلاثمئة جنيه.

- لا نريد المعزة، أعطنا الفلوس.
- يا أمي، والله ثمنها.. طيب خلاص، الله يبارك لكم ويعوض عليّ.
قال صلاح:

- أنت متزوج يا غنم؟
- يدي على كتفك. عندك عروس؟
- فهمت لماذا لا تحلف بالطلاق.

أفلت محمد غنم المعزة فجرت باتجاه القطيع الذي يرعى بالقرب من باب المعلف، يتخبط ضرعها الثقيل في ساقبها الخلفيتين. كان الغندور في استقبالها. اعتلاها؛ فاستدارت وناطحته، ثم تقاربت رأسهما في عناد، حتى تشابك قرناهما مع قرني الغندور اللذين ينموان بسرعة كبيرة. أخذوا يحاولان التخلص أحدهما من الآخر، وما إن نجحا، عاد الغندور إلى القفز عليها، فاستدارت ونطحته في بطنه بعنف. قالت أم الغلام:

- الولد ضحك علينا لثاني مرّة؟ لا يمكن أن تكون عشارًا.
قال سامي:

- قلت لي من قبل، إذا رفضت المعزة الذكر تكون عشارًا.
- هذا في البداية، لكن الملائنة وقريبة من الولادة لا تناطح، تنسحب حفاظًا على ولدها.
جاء طارق المنزلاوي وأخذ يتأمل تنوع الحيوانات، وانطلق في الضحك:
- يمكن أن تفتح هذا المعلف للزيارة برسوم دخول يا سامي.
- لماذا؟

- لأنه حديقة حيوان. في الاستثمار نختار نوعًا واحدًا.
دفعت إليه أم الغلام بالمعزة الجديدة:

- طيب يا أبو العزّيف، اكشف على هذه، وقل لي متى تلد.
أخذ طارق يعاين المعزة، وأمسك بضرعها وقال:
- لن تلد أبدًا. الضرع متحجر.

أعاد التقليل في الضرع، ووضع إصبعه على نقطة في منبته:

- انظري يا حاجة! هذا جرح قديم، أصابها بعدوى بكتيرية حجّرت الضرع.
مدّ سامي يده إلى الندبة السوداء المتكلسة. تحسسها خفيًا، وبدأ يضغط فلم تتأثر المعزة. سأله:
- هل هناك علاج؟

- هي سمينة، ما شاء الله ممكن تبيعها لجزار.

وجد سامي نفسه أمام حقيقة الاختلاف بينه وبين من حوله. ساير أم الغلام وصلاح في جلب حيوانات يريدونها أن تظل أمام عينيه طوال حياتها، لكنهم يعدونها لمصير يتعامى عنه. قال لطارق:

- لنجرب العلاج.

- نجرب. لكنه علاج متعب، والعامل عندك ليس فيه رجاء.

أخرج علبة بداخلها هلام أسود، قال. هذا مضاد حيوي، ادهن به الضرع والحلمات، وقم بتدليكها، مرة أو مرتين في اليوم، تتولد حرارة، ربما، يلين مرة بعد مرة.

جست أم الغلام الضرع. وقالت:

- كان أطرى.

قال طارق:

- أكيد التاجر ابن الحرام دلّكه قبل أن يأتاكم. أين قهوتك المميزة يا باشا.

مضى سامي أمامه إلى السرايا، وتبعتهما أم الغلام. عندما تناول طارق فنجانته تشممه بعمق، ثم

تذوق، وأبدى استحسانه، ثم سأل سامي:

-أمك ألمانية، أليس كذلك؟

- كيف عرفت؟

- يا باشا الدكتور البيطري مثل الحلاق، كل الأخبار عنده. أنا عشت في فرانكفورت ثلاث

سنوات. ذهبت في الإجازة الصيفية للجامعة، وأعجبنتني فحصلت على تأجيل من الكلية.

سأله سامي:

- ماذا كنت تعمل؟

- في شركة نظافة، كنا ننظف مقر صحيفة فرانكفورتر أجمائنه. ولاحظت صحفية هناك أنني

أخذ الصحيفة وأحاول القراءة، فعرفت أنني لست مجرد عامل نظافة أجنبي، ونشأت بيننا علاقة

حب.

فتح الموبايل، وأخذ يُطلع سامي على صورته مع شابة أطول منه بنصف قامته.

- هذه هي. سابين، كدنا نتزوج، لكنني عدت بسبب مرض أبي.

- يبدو أنك لم تكن مقتنعًا بالزواج من سابين.

- أخذ أبي يلح: أريد أن أرى أبناءك قبل أن أموت، تزوجت هنا.

- ولم تندم على سابين؟

- في البداية، لكن الآن أعتبر أن الله اختار لي الأحسن. هناك اختلاف في التقاليد.

- وأبوك لم يزل حيًّا؟

- الحمد لله، لكنه لم ير أبنائي بعد ست سنوات زواج.

- هل أجريت فحصًا؟

- أجريت فحوصًا.

انطلق جرس تليفونه. فتح الخط، حيا المتصل، وقال:

- طبعًا الليلة. لكن همتك، نخلص بدون تطاول وقلة أدب. أنا بهدلته اليوم.

لمح طارق الفضول على وجه سامي المبتسم؛ فبادره بالشرح:

- أخي، أكبر مني، تخطى الخمسين لكن فطيع. زوجته قمر خسارة في عمره، وأولاده أربعة يشرحون القلب، وفجأة عرف مطلقة أكبر منه، امرأة قبيحة المنظر وسمعتها قطران، وطوال الوقت تكايد زوجته، ومنذ أسبوع افتعلت مشاجرة معها، بهدلته وقطعت ملابسها. واللييلة جلسة تحقيق.

سأله سامي:

- ألم تطلب زوجته الأولى الطلاق؟

- أين ستذهب؟ ابنة عمنا، وليس لها غيرنا.

- يعني مضطرة، مسكينة.

- وتاركها بدون قرش. طبعًا مدرس، دخله لا يكفي أسبوعًا لبيت واحد. تقريبًا كل مسؤوليتها مع عيالها عليّ.

- طبيعي، ابنة عمك وزوجة أخيك، قريبتك من الناحيتين.

- المشكلة أن زوجتي، تأكلها الغيرة، وطالبة الطلاق.

أحس سامي أنه صار وسط فيض من تفاصيل لا تعنيه، لكنه حسد طارق الذي استطاع أن يضع حياته أمامه.

أخذ الوسطاء يترددون من أجل عقد مجلس عرفي، وتمسكت أم الغلام بالرفض. بدأ الأخوة يظهرن بشكل مكثف على المدق، وأحياناً ما يأتي الأحفاد، يصخبون في كلامهم، في استعراض مكشوف للقوة. يحدّق سامي بهم قلّقاً، ثم تنبدد عاصفة مرورهم، تحت مشاغل المعلف؛ إذ وجد نفسه في مواجهة حديقة حيوان بحاجة إلى الكثير من العمل والانتباه في كل لحظة؛ للحيوان السليم متطلباته، وللمريض متطلباته. الكبير مصدر تهديد لحياة الصغير، خصوصاً إذا اقترب من طعامه. بينما يعيش حمادة متمهلاً بملاح لا يعترئها أي انفعال. بعد قهوة الصباح ثم الإفطار ينتظم في شرب الشاي كل نصف ساعة، ويترك أي شيء في يده ليضع الشاي على البوتاجاز أو نار الخشب التي لا تكاد تنطفئ.

أخذ سامي يساعده في مختلف الأعمال، حريصاً على ألا تلاحظ أم الغلام حجم جهده، حتى لا تُصر على طرد حمادة. لا يستطيع أن يُحدّث العجوز عن نبوءته بغرق حمادة في النيل التي رآها لحظة وصوله. تلح عليه الصورة، ويعتقد أن بقاءه يبعده عن ذلك المصير. صار يتركها خلف قطيع الضأن، ويذهب إلى الجهة الأخرى من المعلف يساعده في حش البرسيم، وحمله إلى الجمال والعجول، أو يساعده في جرف الروث، حتى ظهرت فقاعات من الماء تحت جلد كفيه، تنفجر ويحتاج الجرح تحتها إلى تطهير. في لحظات التعب والألم، يقتنع بينه وبين نفسه أن أم الغلام وصالح لديهما الحق، وسرعان ما يتراجع؛ فيتذكر كلمة أخيه: كانت رؤية المستقبل ميزتك، ربما من الأفضل الآن أن تفقدها.

أرجأ سفره إلى القاهرة مرتين، فأصيبت فريدة بالإحباط. صارت تترك رسائله طوال اليوم وترد باقتضاب قبل أن تنام. لم تقبل الأعذار. صوّر لها يديه في الضمادات وتشققات كعبيه. كتبت: سلامتك. لم نكد نسد شقوق علاقتنا. أنت لست بحاجة إليّ.

لاحظت أم الغلام، تعكر مزاجه. سألته:

- مالك يا سامي؟

- لازم أنزل مصر.

- طيب، نشوف عامل بدل حمادة، وسافر أنت.

- لأجل خاطري يا جدة، لن نقطع عيشه. نبحت عن واحد آخر يساعده.

طقطقت بلسانها لعزتها، فجاءت تتمسح فيها، بسطت لها راحة يدها لتلعقها. قال:

- لم أعرف لماذا تحبين أصيلة إلى هذا الحد يا جدتي.

- صلة الدم.

- تسخرين مني يا جدة؟

- أبدأ يا خواجه. شريكتي في قتل المجحوم.

اتسعت عينا سامي، وهتف:

- أنت قتلتيه؟

- ربنا شرّع الثأر. وهو الأعلم بنار قلب الأم لما ينقتل ابنها قدامها.

- أنا لست أمًا وعرفت هذه النار. ما دور أصيلة؟

- كما ترى، الأرض تأخذ بالشمال ما تعطيه باليمين. لكن أصيلة كل ستة أشهر تعطيني اثنين من أولادها. أبيع وأدخر، لأكري شخصًا يقتل ناجي. ليست هذه. كانت أمها، ماتت حبيبتني، واستبقيت هذه من نتاجها.

- انتظرتِ عشرين سنة لتقتليه؟

- لم أكن مستعجلة. كان سالم يأتيني كل ليلة. وكان وهو رايح، يمر على المجحوم يفزعه. حرمة من النوم بالليل. خلاه ما ينام إلا في الضحى العالي، ولازم أحد يحرسه. الخوف خلاه عصاية. خفت عزرائيل يسبقني. طلبت من صلاح يدبر لي قاتلاً. قال لي. ناجي أصبح شبحًا يا فوزية، كنا عملناها من زمان. قلت له ناوي تساعدني أم لا؟ قال الموضوع لا يستحق أن نستأجر قاتلاً. لو مررت بالقرب منه بسيارتي سيقتله الهواء. ولم يُكذّب خبرًا. مر بجواره وهو عائد من صلاة الفجر وصدمة السيارة.

- العم صلاح هو الذي قتل ناجي؟

- عربته صدمت المجحوم، كما يحدث للقطط والكلاب كل ليلة على الطريق السريع. عندما تأخر عن العودة خرج العجول الثلاثة يبحثون عنه. لموه قطعًا، وطلعت عليهم الشمس وهم يبحثون عن ذراع ناقصة. لقوها على مسافة كبيرة في الحشائش تحت الأشجار.

- ألم يشك أبنائه بأن الحادث مدبر؟

- استراحوا من همّه، واعتبروا موته أثناء عودته من الصلاة دلالة على تقواه، وقسموا الميراث.

- من البداية قلت لي بينك وبين صلاح رباط دم، ولم أتصور أن هذا هو المعنى.

- الرباط بيننا أهم من دم المجحوم. صلاح ابني، راضع من صدري. أمه نجية بنت خالتي، وكنا نتزامل في الشغل. نحط العيلين في الظل. ولما نسمع عياط عيل، تجري أي واحدة فينا ترضعه. يعني صلاح وسالم أخوان.

توقفت عن الكلام تتأمله:

- لم يفترقا إلا بموت سالم، ومن بعده لم يتركني صلاح. لما ضرب المجحوم رميت عليه العشرين ألف جنيه بلفتها في المنديل. عيَّط حبيبي وزعل مني، تصور أنني أعطيه أجرًا. قلت له الفلوس للعربة وليست لك. اشتر واحدة جديدة. باع عربة الحادث واشترى أختها جديدة، هي التي معه الآن.

سرفت المعزة لترعى، واقتربت منه:

- مالك يا سامي؟ حسيت نفسك وسط قتلة.

هذه المرأة تضعك أمام معضلة اكتشاف الشر والخير بنفسك. وهذا حمل رهيب.

وكزته في جنبه:

- انس، وخلق مع حبيبة القلب المقموصة يا خواجه. نفسي أشيل لك عيل.

بحث صلاح عن رجل أو صبي يصلح لمساعدة حمادة، ولم يجد إلا سمعان الأسيوطي. قالت أم الغلام:

- يا حزني! سمعان الأهل، زوج رفقة؟

- لن يقبل بمزاملة حمادة إلا الأهل.

قال سامي:

- ومتى يأتي؟

- بعد يومين، ثلاثة بالكثير. اتفقت مع رفقة.

مع أول ضوء الصبح، سمع سامي نباحًا عصبياً للكلاب أيقظه، ثم صممت فجأة. فتح الشباك فميَّز بصعوبة هيئة رجل جالس على الأرض. والكلاب حوله يداعب رؤوسها. هبط السلم مهرولاً وفي لحظات صار أمامه. وقف الرجل الذي لم يستطع سامي أن يُقدِّر عمره. كان يرتدي جلبابًا خفيفًا، مفتوح الصدر، مبللًا حتى ركبتيه، ومرصعًا بأشواك الحشائش، كأنما خاض في كل المراوي في طريقه. أخذ يبتسم بعذوبة. وسأله سامي:

- أنت سمعان؟

أوماً برأسه، دون أن تفارق الابتسامة وجهه، وأنت أم الغلام. أخذته إلى الفرندا. أوقفته وجلست نُنقي حاشية ثوبه من الأشواك وتعصر منه الماء. وأخذ ضوء النهار يقوى شيئًا فشيئًا، ثم تذهب الأفق بالشمس الوليدة. أفرط سمعان معهما. أكل بأناقة كما لو كان ملكًا في حياة سابقة. وبدا هو وسامي كشخص وصورته في المرأة. الابتسامة نفسها، وشقرة الوجه. لكن شعره ليس أصفر

كشعر سامي، بل على درجة بين النبي والرمادي، وله سنة مشطوفة في مقدمة فمه. أخذت أم الغلام تتابع تحديق كل منهما بالآخر. وقالت:

- يا شورتك السودا يا صلاح!

نهضت وأشارت إلى سمعان ليتبعها. مضوا ثلاثتهم إلى المعلف. طرقت الباب بعكازها بعنف. فتح حمادة الباب، وعاد مهرولاً يتابع كنكة قهوته على النار. قالت:

- هذا سمعان، جاء ليعاونك.

سأله حمادة:

- تعرف تحش البرسيم؟

- آه.

وضع في يده منجلاً وذهب به إلى حقل البرسيم. عند الظهر، صارت الجمال مثل بالونات منتفخة، ثم جلست تجتر مغتبطة، ووضع سمعان البرسيم الزائد في كومة كبيرة أمام المعلف تكفي لإفطار اليوم التالي. أبدت أم الغلام رضاها. وفكر سامي أن يوسعه السفر.

استيقظ في اليوم التالي مبكراً، حلق ذقنه، واختار ما سيرتديه، وأخذ يترقب وصول سمعان. لكن من ظهر كانت امرأة، هتفت بأمر الغلام:

- ربنا نزع الرحمة من قلبك يا ولية؟

تطلعت إليها أم الغلام وقالت:

- رفقة؟! ماذا فعلت يا بنت؟

- رجع من عندكم عدمان العافية. الرحمة حلوة يا ولية.

قال سامي:

- أعددنا الغداء متأخراً، وعندما ذهبت أناديه، كان قد غادر.

- لا أتكلم عن الأكل.

أحست بتعاطف سامي فوجهت كلامها إليه، وقالت بصوت أقل انفعالاً:

- عاد مقصوم الظهر يا أستاذ. سمعان غلبان لا يستريح إلا إذا طلبت منه.

أجهشت في الكلمة الأخيرة. فقالت أم الغلام:

- يا حبيبي يا سمعان! حقك عليّ يا رفقة. اقعد.

- لن أقعد. وتوبة.

قالت أم الغلام:

- اسمعي. بلا كثرة كلام. تيجي معه تنظمي شغله. وتأخذي أجر نفرين.
هدأت، فداعبتها أم الغلام:

- بدمتك، في الفرشة بتقولي له كفاية؟

ضحكت ولمعت عيناها؛ فصارت أجمل. وقالت:

- أنتِ مرا ناقصة.

اضطر سامي لتأجيل سفره. وجاءت رققة مع سمعان في الصباح التالي. وألفت المكان على الفور، وأضفى وجودها روحًا جديدة في السرايا والمعلف. قسمت العمل بين سمعان وحمادة. وقبل أن يحتاج زوجها إلى الراحة كانت قد نظّفت الطابق الأول من السرايا، ثم ذهبت إلى المعلف وعادت به، قدمت له شايًا أخذ يشربه على مهل، وبعد راحته طلبت منه أن يذهب للمهمة التالية.

استيقظ سامي ونزل، فصعدت ترى ما يستلزم الترتيب في الطابق الثاني. ثم ذهبت إلى المعلف، تراقب مجددًا قسمة العمل بين الرجلين، ونظفت تحت الدجاج وجددت له ماء السقايات وأطعمته، وجمعت البيض وذهبت به إلى أم الغلام. ثم بدأت في إعداد الغداء. وكانت قد أحضرت باذنجان من أجل سمعان الذي أكل بسعادة واضحة دون أن يمس اللحم.

سألها سامي:

- لماذا الباذنجان؟

- لأنه بلا إحساس.

نظر إليها سامي مندهشًا:

- قالت. والإنجيل كما أقول لك. سمعان لا يأكل إلا الباذنجان والبطاطس والبقول، يقول إن الأنواع الأخرى تتألم عند قطعها.

لا شارك يومًا في جمع لوبيا، أو كوسة، أو قطف ملوخية ولا أكلها. وعمره ما رضي يشتغل في تقليم الشجر. أخذت تتحدث بحب عن زوجها، بينما يتصاعد إشراق وجهها. أحس سامي تجاه المرأة الخمسينية المشوقة شيئًا مريحًا يشده نحوها. تراجعت خطوة ضاحكة:

- وقعة سودا. ابعدي. افتكرتك سمعان!

سافر إلى القاهرة، وفاجأته عودة عمارته إلى شبابها، حتى كاد يخطئ المدخل عندما وصل قبل الغروب. كانت روائح الطلاء الجديد لم تزل واضحة، وكان المدخل مضاءً على غير العادة في هذه الساعة، وعلى الجهتين في البهو الطويل أُنصص نباتات ظل يانعة. رأى شفيع، صديق طفولته، جالسًا على كنية أبيه. حيّاه وانتظر ما لم يحب أن يسأل عنه، أجابه شفيع:

- العمر الطويل لك. مات أبي. وتسلمت العمارة مكانه.

- ووظيفتك؟

- لم يعد المرتب يُغطي تكاليف الذهاب والإياب.

صعد معه إلى الشقة، فتحا الشبابيك بسرعة، وبدأ شفيع مهمة التنظيف، بينما يتداول سامي مع فريدة على التليفون بشأن مكان اللقاء، اقترح المطعم الدوّار أعلى فندق اللسان الممتد داخل النيل أمام جاردن سيتي. شيء في نفسه جعله يرغب في أن يشرفا على القاهرة من فوق، أن يودع سرية حبهما. استبقها ليكون في استقبالها. كان البهو أسوأ من أن يوصف بالتداعي. شبه مظلم، تعاني مقاعده من الشيخوخة، جلس على أحدها محاذراً وسعيداً؛ فقد عاش الكثير جداً جداً من صباحات طفولته يواجه هذا الفندق، مندهشاً من وقوفه وسط الماء. بدأ يتحسس وجهه، ثم يتأمل ضمادة على إحدى كفيه اكتشف أنها متسخة أكثر مما يجب.

نهض وأخذ يتمشى، بينما يترقب الباب. لم تتأخر، هلت بأناقته البسيطة خفيفة تناسب كنسمة، خطا نحوها، واحتضنها. بعد همس الحب أبدى اعتذاراً:

- لم أتصور أن الفندق متداع إلى هذا الحد. هل نذهب إلى مكان آخر؟

- لنزّ المطعم أولاً، الإطالة تكفي.

صعدا، وأسعده أنه وجد المطعم بحال أفضل من بقية الفندق، ولم يكن الطعام سيئاً.

لذيذ. قياساً إلى طبخ كامل بدوي على الأقل!

جعله صدودها الأخير يشعر بحرج كأنهما يتعارفان للمرة الأولى، بالإضافة إلى إرباك ضيق الوقت، لأنها لا تستطيع الغياب عن البنّتين لوقت أطول.

لم يمكثا طويلاً على وعد باللقاء ظهيرة الغد بالشقة. طلب سيارة. أوصلها إلى إمبابة، وعاد إلى بيته.

عندما جاءت ظهر اليوم التالي، رأت مزهرية الورد على الطاولة. قالت ضاحكة:

- تريد أن تغويني؟

احتضنها، وأراح شفّتيه على رقبتها وعرفت يدها طريقهما إلى خصرها تحت البلوزة. تمّصت منه. وجمعت يديه معاً تتأمل أصابعه، وقالت:

- ابعِد هذه الـ Incredibles أريد أن أستوعب أولاً أننا معاً.

خُصّ يديه من يديها واحتضنها مجدداً.

- حضنك أكثر ما أفنقه.
- أعرف ما تفنقه يا نوتي. أنت مثل جديك الغندور. لا، بل هو الذي يشبهك.
- تشبهيني بهذا الملعون الذي ينتقل من واحدة إلى أخرى في لمح البصر؟! تملصت منه، وقالت:
- لو كان الأمر بيدك لفعلت. ألا تذكر، عندما قلت لي أحبك مع صاحباتك؟ ضحك، وسحبها من يدها، وجلسا على الكنبه التي طالما احتوتهما. قال:
- من أول يوم لي في البستان تمنيتك معي هناك. أخذت أتخيلك ترتدين الجلابية، تجمعين البيض، أو تقطفين المانجو.
- وأحلب الجاموسة مثل سعاد حسني، لكنني الزوجة الأولى والوحيدة.
- ليس عندي جاموسة. لكن وعد سأشتري لك واحدة.
- انتقلت لتجلس على فوتيه مقابله:
- هكذا بوسعي أن أراك، وأتأمل لون البحارة الذي اكتسبته في تل المساحيط.
- ريدا. ألسيت سعيدة بعودتنا؟
- ياه، أستغربُ الاسم. كلانا بحاجة إلى الوقت!
- هل هناك ما لا أعرفه؟
- الكثير. حتى محفل الأنوثة يتفكك.
- أستوعبُ انقلاب الهرم، ولا انهيار الصداقة التي تجمعكن.
- لماذا صداقتنا وحدها لن تنهار، هل ترى شيئاً باقياً على حاله؟
- ليست هذه روحك، ماذا حدث؟
- سوء فهم أحياناً، أو مبالغات في ردود الفعل.
- بدأت ابتسامته تتبدد، وعيناه تتسعان. ابتسمت وقالت:
- لكن الحياة تسير. انضمت إلينا واحدة نوتية مثلك.
- أخذت تراقب ملامحه وقد تسلل إليها بعض الهدوء. فضحكت بينما تشير إلى وجهه:
- أرايت لمعة عينيك؟! تموت في هذه الأشياء!
- أبداً، أسعدني أن أعرف أن المحفل سيستمر..
- مكرك مكشوف يا أستاذ. كل امرأة مجهولة بالنسبة لك مثال للفتنة. اطمئن. ليلاس فانتة بالفعل، لكن لا يعيش لها رجل.

- مسكينة.

- بينهم من يموت، وبينهم من يهرب بحياته!

انتقل وجلس على مخدع كرسيها، وأخذت أصابعه تداعب ظهرها كأنما تستكشفه من جديد، أو ربما ليحاصر طيف المرأة المجهولة في خيالاته. أمسكت بأصابعه وحبستها في يدها، وضحكت، ثم قالت:

- لديها مثل هذه الإنكردبلز. عندما تجد رجلاً يبدأ في وضع الشروط، تقول له «لأجل ماذا كل هذه التحكمات؟». تدير أصابعها أمامه وتصعقه: لديّ هذه، وعلى الأقل نظافتها مضمونة!
ضحك سامي، وقال:

- رهيبة!

- أحدث رجل كان من أسيوط، يأتي إليها مرتين في الشهر، وتقول إنه كان متفاخرًا بغصنه؛ يتحدث عنه كشخص آخر.

أخذ سامي يتطلع إليها، يحثها فضول عينيه، قالت:

- في رحلة القدوم يحجز مقعدين، واحدًا له وواحدًا لرفيقه. في رحلة العودة يحجز مقعدًا واحدًا. غالبها الضحك. ثم قالت:

- بعد ثلاثة أشهر، بدأ يحجز كرسيًا واحدًا في الذهاب والعودة. وبعد شهرين آخرين لزم أسيوط، ولم يعد يقترب من محطة القطار.

ضحك سامي حتى وقع فوقها. دفعته ليعود إلى مكانه على الكنبه. لكنه تشبث بمكانه على ذراع الكرسي. ومسح على خدها، فأزاحت يده والتفتت إليه.

- لم أحك لك عن ليلاس لتذهب بخيالاتك بعيدًا.

- أفكر بغرابه اسمها.

- أمها إثيوبية وأبوها مصري. دعك منها. أريد أن أسمع منك.

- خلاص يا ريدًا. كان يومًا أغبر.

- لا أريدك أن تحكي مجددًا ما حدث في ذلك اليوم. قل لي إن كنت تعرف، كم مرّة طرقت فيها بابك، وأنت بالداخل لا ترد؟ أريد أن أرى إن كنت تحفظ العدد مثلي. ماذا كنت تحس بينما تسمع لهفة كفي هذه على الباب عندما أطرقه وأهزه هزًا بعد يآسي من الجرس. كيف تحملت عودتي مقهورة في كل مرة!؟

لم ينبس، ولم تُلح بعد أن رأت برهان الأسف في اللمعة الملغزة التي تحبها في عينيه بين

اقتحامهما المثير وانسحابهما الطفولي الخجول. شبَّهت عينيه لصديقاتها ذات مرة بكيكة البرواوني بالأيس كريم؛ ساخنة وباردة، حلوة ومالحة.

على مدى أربعة أيام من اللقاءات أحس سامي بأن فريدة التي يعرفها بدأت تعود إليه، لكن غضبها كان عنيدًا بأكثر مما توقع، كلما تصور أنه يتفتت بين أصابعه، تصدمه صلابته. ظلت مترددة بشأن زواجهما. ولم يتمكن من البقاء أكثر. اتصل به صلاح: تسلمنا إخطارًا من المحكمة. رفعوا قضية ببطلان عقد الهبة بينك وبين أم الغلام. تعال، لنبحث عن محام.

قالت فريدة:

- عد لمسؤولياتك هناك، ولناخذ وقتنا.

- أنتِ كل ما يهمني.

- لا تهرب من كل عقبة.

أخذ يفكر بشأن المحامي، ثم هتف:

- كيف نسيت أونكل لطيف؟!

طلبه، فحدَّد له موعدًا في المكتب. طمأنه، وطلب منه أن يرسل صورة الإنذار عندما يعود، مع المستندات المتوفرة وأن يستخرج توكيلين قضائيين منه ومن أم الغلام باسمه وباسم سعيد عبد الخالق، أحد محاميي مكتبه.

وجد المزيد من الأشياء المحزنة، وبعض الأشياء المبهجة تنتظره في تل المساخيط. أول ما لاحظته غياب ثلاثة كلاب. سأل عنها أم الغلام، قالت:

- شحّتهم.

ثم أشارت إلى أربعة من مواليد الماعز خلف حاجز تحت السلم. وأخذت تمسح البلاط من بلل بولهم، وقالت:

- خفت عليهم من الدهس. الجمل دهس معزة من الكبار.

- كيف؟! -

- من يومين. ألم يخبرك صلاح أو رفقة في التليفون؟ نامت في ظله، وتمطّع عليها، فسهكها تحته.

مضى إلى المعلق. رأى العجول تملأ الساحة حول الجمال المربوطة، باب العنبر المسقوف مفتوح، حيث كان حمادة وسمعان يخرجان منه الروث. جرى إليه سمعان. طوّقه بذراعيه من عند الكوعين حتى لا يلوثه، وأمطر وجهه بالقبلات، أينما تقع، وهتف:

- حملت سلامة صاحبياً.

أطلت رفقة من باب العشة، حيّت، وأشارت إلى الداخل، تلفت نظر سامي إلى ما فعلت:

- جمعتُ الدجاج معاً، وأخليتُ هذا الجزء لمواليد الماعز.

كانت الجمال تنكش التبن في الطوالة أمامها بحثاً عن العلف، بينما ترفع ساقاً بعصية لتضرب الذباب أو تسوطه بذيلها على أفخاذها. وأقبل حمادة أخيراً. حيا وذهب إلى المطبخ. بينما أنهت رفقة عملها بالعشة واقتربت، وقالت:

- لم أر أغرب من هذا الجدع. لا أعرف كيف يبلى كل هذا الشاي، وكل هذه الأغاني!

أشارت إلى كتف أحد الجمال:

- طلع له دمل.

اقترب سامي حذراً، ولامس الموضع:

- يبدو أنه منذ مدة؟

- لا أعرف. رأيته اليوم. كان على بلاعة الشاي أن يلاحظ.

غمغم حمادة، وعاد إلى عمله. وطلب سامي طارق المنزل لوي. قال إنه لا يفهم في الجمال، لكنه

سيأتي ليرى ما يمكن فعله.

بعد أن فحص الدمل، أبدى استنكاره لمستوى نظافة مربوط الجمال، وغبابة تقييد الحيوان المخلوق للحرية. جهّز المحقن وبضربة مباغطة غرس الإبرة الغليظة في الكفل الضامر ونزعها. صرخ القاعود وارتفعت إحدى خلفيته برفسة تحاشاها طارق بمهارة. وقال:

- بعد أن ينضج الخُراج نظفه، وادهنه من دهان المعزة.

نقلت رفقة مواليد الماعز إلى العشة، ثم بدأت في الإشراف على عشاء البهائم. قال لها سامي بينما يغادر المعلف:

- أراكما قبل أن تنصرفا، أحضرت لكما شيئاً.

عندما أخرج لأم الغلام هديتها أخذ يتطلع إلى ردة فعلها على الجلباب والإيشارب بلونهما الفاتح بعكس ملابسها. بدت سعيدة، تتحسس نعومة الجلباب القطني، وهتفت:

- يا حبيبي يا سامي، هل أعيش لأدوبها!

- تعيشي وتتهني يا جدة.

وعندما أخرج لسمعان جلباباً أبيض، أمسك به ولمعت عيناه بالفرح. فتح سامي الكيس، وفرد الجلباب على قامة سمعان يختبر طوله. وأحس أنه قدّر مقاسه بالضبط. قال سمعان:

- سوكلاً صاحبياً.

وأخذت رفقة تتأمل هديتها وقالت:

- الله ذوقك جميل جداً! هدية سمعان كانت كفاية.

سار سمعان وراءها خطوتين ثم عاد مرة أخرى يحتض سامي، فجعله يتذكر أن لديه أبناء كان يجب أن يشتري لهم شيئاً. سأله:

- كم ولدًا عندكم يا سمعان؟

رفع يده وعدّ على أصابعه:

- واحد، نين، تاتة، أبعة.

- كم أطوالهم؟

أشار إلى رفقة:

- هي، اعف.

قال سامي لرفقة:

- هاتي الأولاد معكم مرّة، أريد أن أراهم.

شكرته مجددًا، وأخذت بيد سمعان. شرع يتابع ابتعادهما، وأحس أنهما من بين الأسباب التي جعلت جذوره تضرب في الأرض أعمق. وفكّر بالنزاع مع أبناء ناجي الفشن، وبغموض حمادة الذي يؤجل لحظة إعطائه هديته لأن لا مبالاته تحبطه، ثم فكّر بالكلاب التي سيفتقدها، وبالمواليد الجدد.

الحياة، عرض إجباري. ليس بيدك اختياره.

زودته حيوية أطفال الماعز بجرعات أمل. وبدأ يعتني بالجمل والمعزة، وقد ربط بينهما الدهان الواحد. شاهدته رفقة، أضحكتها الرقة التي يُدِّكُ بها الضرع المتكلس. اقتربت باسمّة:

- هذا ليس تدليغًا للعلاج يا عسل!

جلست القرفصاء بجواره. دهنت الضرع من جديد، وأخذت تدلك بقبضتيها الحلمتين الصلبتين بقوة وسرعة، ثم تفرد كفيها وتحنّضن بهما الضرع وتأخذ في فركه صعودًا ثم هبوطًا إلى الحلمتين من جديد. استغرق في مراقبة عمل يديها باستمتاع. باغتنته بتحديقة، وسرعان ما لانت ملامحها لابتنسامته الخجلي.

في الصباح، جلس خلف القطيع. رغم أن الساعة لم تتجاوز الحادية عشرة، كانت الحرارة في الظل لا تطاق. أخذ يصور لفريدة طابور نمل منظم مثقل بأحماله. ثم استغرقته اللعبة فاعترض طريق الجيش المرتحل بقشة، وأخذ يسجّل ارتبাকে وفقدانه لنظامه، ثم تجميع صفوفه، وانتظامها في طابور جديد. فجأة اكتشف غياب الغندور. هروول في هذا الاتجاه وذلك، ثم رآه يتخطى المروى الملاصق لحد النخيل عائداً بتؤدة من بستان الجار الخلفي. وأقبلت خلفه امرأة عجوز. أخذت تصيح «نجفة، يا نجفة». أجابتها أم الغلام، من مكان قريب، وجاءت باتجاه الصوت. أشارت المرأة بعصاها إلى الغندور وقالت:

- هذا الجدع وجدته فوق رأسي، داخل البيت.

- وماذا فعل يا وهيبة؟

- انتظري يا نجفة الله يرضيك. هذا ليس حيوانًا.

- ماذا يكون، جن؟!!

- إنس. رجل مسحور يا نجفة، ويحتاج إلى من يفك سحره.

- سلامة عقلك. أنتِ أصغر مني يا ولية.

- قصدك أني خرفت؟ الله يسامحك.

أشارت إلى الغندور بيدها ونادته:

- أنت يا إنسي، تعال بحق كتاب الله إن كنت فاهمني.

رفع الغندور رأسه نحوها مضيقاً عينيه. قالت:

- شُفت؟

قالت أم الغلام:

- كل الحيوانات بصت ناحية صوتك.

- وربّي وما أعبد بني آدم. أول ما دخل عليّ حسيتني قدام رجل غريب وبسرعة سترت نفسي.

يحتاج إلى من يفك سحره ويحرره.

قالت أم الغلام:

- نشوف.

- اللهم قد بلّغت. ربنا سيسألك عن هذا الشاب يوم الدين.

استدارت عائدة. ووقفت أم الغلام وسامي يتبادلان النظرات، ثم يتأملان الغندور الذي شمخ برأسه، وخطا خطوتين في إثر المرأة ثم توقف. أحس سامي أن عليه أن يقول شيئاً كشخص متعلم:

- ما تقوله الست وهيبة غريب يا جدة.

- والله يا سامي كلام الولية لعب في دماغي. السحر مذكور في القرآن.

- كيف يمكن أن نعرف؟

- إذا خلّف. مفروض تظهر سلالته بعد ستة أشهر من وصوله. هو وصل في نهاية طوبة.

أخذت تُحصي على أصابعها:

- أمشير، برمها، برمودا، بشنس، بؤونة، وأبيب. نحن في نصف بشنس. يا دي الخيبة! سنترك

الجدع محبوساً شهرين!؟

جلسا، صامتين وأحس سامي بالرطوبة في الهواء الحار تثقل تنفسه، وبدأت الماعز تستلقي في

الظل شبه دائخة. قالت أم الغلام:

- نرجعها؟

أوماً موافقاً وصفق للحيوانات كي تنهض. سار خلفها مشغول البال، يتأمل نظرة الاستكبار في

عيني الغندور، فهتف به:

- انطق. قل شيئاً.

كتب لفريدة عن واقعة اليوم. ظل مشوشاً. في المساء أخذ يتمشى على المدق رائحاً راجعاً بين السرايا والمعلف، عينه على القمر البدر يسبح في السماء، بينما يتداخل نقيق الضفادع مع صفير صراصير الحقل. رأى فيسبا تقترب. ترجل كامل من خلف آدم.

بدا الكمد في وجهه تحت نور القمر، سأله سامي:

- ماذا بك؟

- حزين. لندخل أولاً.

حيا أم الغلام، ومضى سامي أمامه إلى الداخل. صعدا وجلسا في المكتبة. لاحظ سامي أنه لم يأت بنبيذه. سأله:

- ماذا تريد أن تشرب؟

- أريد أن أتكلم يا صديقي. صلاح أهانني وأهان بيتي.

- ماذا فعل؟

- تهجّم على بيتي. أخذ يسب آدم، ثم صفعه وركله ومضى. من يظن نفسه؟

قال سامي:

- مثقف مثلك يعرف كيف يتجاوز عن لحظة غضب. ويجب أن تصفوا موضوع آدم ونعمة بالمعروف.

- ما نفع الثقافة بين هؤلاء؟! يقطعونك إن تساءلت عن وجود الله، بينما يتصرفون طوال الوقت على أنه غير موجود.

- كنت أحسك محلاً كعصفور.

- لم تكن مشاكل هذه الحياة التافهة همي في يوم من الأيام، واكتشفت اليوم فقط، أنك لا تستطيع أن تنكر البلبل طويلاً إذا كنت في مستنقع. إذا تجاهلته ستأتي لحظة تتفاجأ فيها بطعم الخراء في فمك.

- لماذا تخيفني. عندما جئت إلى هنا اعتقدت أنني وصلت إلى الجنة.

- لا جنة في هذه البلاد، بل درجات من الجحيم.

سحق عقب السجارة في المنفضة، وأشعل أخرى وقال:

- آسف أخذتك إلى همي ولم أسألك ماذا ستفعل في مشكلة جيرانك؟

- هل عرفت؟

- إيلي زوجة الحافي لا تخفي شيئاً عن حرماننا المصون.

- وكأنت أنكل محمد لطيف.
- أنكل؟! محمد لطيف عمك؟
- بمثابة عمي، صديق بابا ووكيله، طول عمره.
- لطيف كان زميلي في الكلية، وزرته مرة في بيته بالمنيل. سيكسب القضية بمذكرة صغيرة. هذا هلباوي العصر.

- تقصد إبراهيم الهلباوي محامي الإنجليز؟
- نعم الملعون من الشعب، لكنه في ذات الوقت كان أسطورة المحاماة. مرّة قصده تاجر من دمياط في قضية ضد تاجر آخر مدين له بخمسين جنيهاً. قال له الهلباوي أنا أجري مائة وخمسين. قال التاجر: أعرف، وسأستأجر لك سيارة ذهاباً وعودة من دمياط وغرفة في الفندق ليلة الجلسة. أثار الرجل فضول الهلباوي فوافق. وبعد أن ترفع وكسب القضية، سأل موكله: قل لي بحق. لم فعلت هذا؟ قال التاجر: لي ديون مية لا تُعد، وقد أحييتها اليوم، بعد أن صارت كل دمياط تعرف أن الهلباوي محامي.

توسعت ابتسامة سامي، مغتبطاً. لكنه في أعماق نفسه كان يتمنى لو لم تنشأ هذه القضية من الأساس وأن تعود هذه البساتين مجرد بحر متموج من الخضرة يراه من نافذة سيارة تعبر سريعاً بجواره، مثلما كان يراه في طفولته.

لا تستطيع أن تتكر البلل طويلاً إذا كنت في مستنقع.

قال كامل:

- هل قلت شيئاً يا صاحب السعادة؟
- لا، أفكر بكلامك وبأحوال الحياة. رأيت الليلة كم تحب أبناءك يا كامل، بعكس ما تدّعي!
- أمي رحمها الله، كانت تقول «القطعة دخلت الفرن وراء أولادها». وحتى لو لم يضرب ذلك الجحش ابني يكفي أنه تهجم على بيتي، وأهانني، ألم يهني؟
- لحظة غضب.

- إن كان على الغضب، هم غاضبون من كل شيء، بسبب وبدون سبب. لا عقل يحكمهم. لماذا لم أغضب أنا منك مثلاً؟
- ولماذا تغضب مني؟!
- ما يقولونه عنك، وعن نعمة.
- وماذا تعتقد أنت؟

- أعتقد في الحرية.

اتسعت عينا سامي؛ فعاجله كامل:

- هل توهمت أنني أردد كلامًا عن الحرية لا أؤمن به؟! أنت حر يا سامي، والبنيت حرة، وآدم لا يمكن أن يجبرها على الاستمرار معه طالما لا تريده. لدينا جلسة في المحكمة قريبًا، وسنفعل ما يرضيها. وبعد ذلك أنتما حرين.

- أنا؟ لست... أقصد ليس هناك...

قاطعه كامل:

- ليس مهمًا الآن يا صاحب السعادة، لا تقل شيئًا. لو آمنت بالحرية، لن تكون مضطرًا للشرح.

أراد سامي أن يُذكِّره بأن لديه فريدة، لكنه تراجع أمام رؤيته الكمد الذي أخذ يعترض وجهه. بعد صمت ظهر صوت الفيسبا، فنهض:

- آدم وصل، هذا الولد لم يأخذ من سميح سوى احترام الوقت.

ابتسم سامي، وقال:

- أبونا آدم كان لديه فائض وقت جعله يخطئ.

- لم أسمع ابني على اسم أبيكم، بل على اسم أبي أنا؛ آدم سميح.

لمعت عينا سامي، وقال متحمسًا:

- آدم سميح! قرأت «ثروة الأمم» كتاب ممتع وجبار.

همَّ سامي أن يصاحبه إلى خارج السرايا، لكنه منعه بإصرار وأمسك بدرابزين السلم ومضى يحجل نازلاً. أخذ سامي فضول لرؤية آدم مجددًا؛ فخرج إلى الفرندا ووقف يتأمل الشاب من فوق. بدت ساقاه النحيفتان فائضتين على الفيسبا الواطئة، وأضفت عليه حلقة «عُرف الديك» مظهرًا فكاهيًا، إذ تقف مقدمة شعره اللامعة عالية متصلبة مثل شراع أسود فوق رأسه النحيف الحليق على الدرجة زيرو.

آدم سميح، هذا الزمان!

وصل كامل بدوي إلى ابنه. رفع رجله اليمين بيديه وركب وراءه. مهمَّز آدم الفيسبا فراحت تقضض بهما على تراب الطريق.

استيقظ سامي وقت الضحى، وذهب إلى المعلف. تطلعت نحوه الجمال الواقفة كأنها تستنجد به. لفت انتباهه تكاثف الذباب على الجمل المصاب في شكل دائرة سوداء يمتد منها خط هابط على

الساق. بدا المريض أكثر ضعيفاً من أخوته. اقترب منه سامي وتلمّس الدمّل متتبّعاً مسار الصديد الدبق تحت الذباب.

كان حمادة يراقب بضجر. رمقه سامي بنظرة غاضبة، وهمّ أن يوبخه، لكنه أمسك نفسه وطلب منه إحضار المرهم مع موسى من دولاب الأدوية الصغير المعلق على جدار غرفة العلف. ناوله حمادة ما طلب، قائلاً:

- لا تتعب نفسك يا باشا. هذا الجمل راح، خلاص!

- لماذا اليأس؟!

مسح موسى بالمرهم، وشرع يتحسس به رأس الخُرّاج. رفع الجمل ساقه وضرب الأرض، ثم سكن. أخذ سامي يشق الجلد فتدفق الصديد وأخذ الجمل يتوجع ويبكي، دون أن يحاول إيذائه أو دفعه بعيداً عنه.

حذّره حمادة:

- انتبه يا باشا، لا تضغط شديد، الجمال حقودة.

- لا تقلق، يفهم أنني أعالجه.

وطلب منه تسخين ماء ليغسل الجرح بعد اعتصار الصديد. ذهب حمادة، وعندما عاد بالماء أخذ يحكي عن انتقام الجمال وحقدها.

- شُفت بنفسي. كان عمي الكبير عنده جمل. ضربه مرّة، وظن أنها مرّت. ولكن بعد فترة طويلة ظهرت على الجمل العصبية والرغبة في الانتقام. كان عمي يربط البهائم في مراح أمام البيت وينام على دكة بالقرب منها. كان الجمل ينتظر حتى يهدأ الليل فيبدأ في الدوران حول نفسه، ويشد ليقتلع الوند، لكي يذهب إلى عمي الذي كان يراقب محاولاته. ليلة، ليلتان، عشرة. تأكد أن الجمل لن يهدأ إلا إذا أخذ بثأره.

رغم تركيزه فيما يفعل، حرص سامي على إبداء اهتمامه بحديث حمادة، مغتبطاً بأنه يسترسل للمرة الأولى في الكلام. وتشجع حمادة فأخذ يُشخّص ما يقول، يلون في صوته مع حركات يديه:

- في ليلة ربط عمي الجمل بعقدة سهلة الفك، وبرم لحافاً وغطاه بعباءته، ووضع عمامته فوقهما على الدكة كأنه هو المستلقي. فك الجمل رباطه واندفع إلى الدكة. فتح فكيه والتقط العمامة وطوحها بعيداً، وهبط برأسه مرة أخرى ليهبش رأس عمي فلم يجد رأساً. اكتشف الحيلة فأصابه الجنون. التقم العباءة وطوح بها ثم اللحاف وأخذ يدهسهما بهيستريا، حتى سقط على الأرض. كان عمي في الداخل يراقبه من خلف شق في الباب. عندما رأى انهياره، جرى إليه بالسكين، تشهّد عليه وحلّله

في اللحظة الأخيرة. عندما فتحوا أحشاهم، وجدوا قلبه ممزقاً. انفجر من شدة الغضب.

لم تجعل القصة سامي يخشى الجمل الذي يبكي بين يديه مثل طفل، وواصل فتح الدم واعتصار الصديد، بينما بدأ الجمل يتمسح فيه برأسه. بعد أن اطمأن إلى نظافة الجرح ملأه بمرهم المضاد الحيوي. ووقف يتأمل عيني الجمل المفعمتين بالامتنان. قال لحمادة:

- ألا ترى علامات الشكر في نظرته؟

- تشرب قهوة؟

- أشرب.

أشرق وجه حمادة، وهرول إلى غرفته يحضر أدواته. وأخذ يعمل بشغف. بينما أخذ سامي يُنصت ويدقق في كلمات الأغنية التي تبثها السماعة المعلقة على الحائط:

إس دو يا نوبة

سِغِّرا أو ساه

أي لنج هايلنج

سِنجر تود اير بوري

وعاد يتطلع إلى انهماك حمادة في دق البن. يراه بين وقت وآخر يجس بأصابعه الملوثة بالروث المدى الذي وصلت إليه عملية الطحن. فكَّر كيف سيثرب من هذا البن، فأرسل بنظرته بعيداً عن حمادة وقال:

- الغناء النوبي جميل.

- لا أعرف إن كان غيرنا يجده جميلاً.

- تفهم الكلمات؟

- ليس كلها، لكن أحسها.

- الغناء وطن سهل الحمل.

نظر حمادة إليه بعمق ولم يرد، فاستأنف سامي:

-لا بد أن في النوبة سرّاً يجعلكم تتمسكون بها إلى هذا الحد.

- لا أظن أنها كانت أجمل من هذه البساتين. يبدو أن المميز فيها أننا فقدناها.

- هل تعود إلى هناك يا حمادة؟

- ذهبت مرتين، مع الأسرة قبل وفاة أبي. كنا ننزل بحيرة ناصر في مركب صياد، وكان أبي

يلقي بنصف جسده خارج المركب، ويميل إلى الماء ليشير بإصبعه إلى مواقع قرانا الأصلية في

القاع. كان يطلب من المراكبي، أن يدور بنا، وكلما مررنا فوق بقعة يشير إلى القرية القابعة تحتنا. هذه قطة، هذه أبريم، ثم هذه هي الجنينة والشباك، قرينتا. يأخذ في توجيهه حتى يدور ويرسم حدودها فوق رقعة الماء، ثم يرشده إلى الإبحار في الخطوط التي كانت شوارع. ويستملهه ليرسم لنا موقع بيتنا بين بيوت الجيران، ويرسم اتجاهات المداخل، والنوافذ وشكل الغرف. يسترسل في تجسيد البيت الغارق مستثارًا حتى أننا كنا نخاف في تلك اللحظات أن يقفز إليه. وعندما نعود إلى قرية التهجير التي تحمل الاسم نفسه وتضم الجيران أنفسهم، كان ينام يومين.

- المكان بأهله يا حمادة. لا أنسى ترحيب الناس بنا في رحلة النادي النوبي إلى قرى «نصر النوبة» في كوم امبو؟ طفنا بجميع القرى ثم أخذونا إلى جولة في البحيرة.
- نصر النوبة! هل تأملت الاسم؟ بعد خمسين سنة من ترحيلنا إلى كوم امبو لم يزل الصعادية يعتبروننا غرباء.

- لكنك لم تولد في القرية الغارقة.

- أبي نفسه كان طفلاً وقت التهجير. لكن أين كنا نحن عندما خرج آدم من الجنة؟ هل نسيناها؟

أخذ سامي يُفكّر بكلام حمادة معجبًا، وسأله:

- ماذا درست يا حمادة؟

- ليس مهمًا ما درست، طالما لم يصنع فرقًا.

لفهما الصمت وأخذ سامي يراقب يديه بينما يجمع الجمرات القليلة حول كنكة القهوة ويستبعد الأخشاب نصف المحترقة التي تدخن بكثافة. ثم أخذ ينفخ تحت الكنكة المطبقة الحافة. وأخيرًا فارت القهوة. رفعها حمادة بسرعة وصب في الكوبين. بدت عيناه غائمتين بدموع، ولا يبدو عليه إن كانت بسبب الدخان أم الذكريات. تذوق سامي القهوة المرة ومصمص شفثيه باستمتاع. وقال:

- مدخنة، لكن لذيذة!

وبعد لحظات صمت قال:

- لم تتكلم من قبل يا حمادة.

- أنا خادم، لا يحق لي أشغلك بهمومي.

- أنا وأنت خادمان عند هذه البهائم، اعتبرهم أطفالنا.

ثم ضحك وقال:

- لكن لا تتوقع من البهائم أن تخدمك عندما تكبر.

جاء صلاح مع نعمة في ظهيرة ميته، بسط الحر فيها سلطته بغطرسة. لا غصن تهزه الريح أو عصفور يصدح، أو حتى ذبابة تحوم.

كان سامي نفسه ساكنًا في الفرندا بعد تنظيف جروح الجمل المُبتلى، الذي يضرب وبياء الدمامل في جسمه يومًا بعد يوم، بينما ينحدر إلى الضمور. صار وبره جافًا يتساقط، ونظرته كسيرة؛ نظرة من يثقله عار المرض، ويرى في استمراره على قيد الحياة عبئًا على أهله. عيناه الدامعتان تقولان ذلك وتبديان امتنانًا لا يُعزي سامي، الذي تحاشى المرور بالقرب من القطيع في طريق عودته من المعلف، حتى لا يرى الغندور فيتضاعف إحساسه بالعجز، بعد أن صارت مظاهر الاعتزاز بالنفس، التي جعلته من قبل حيوانًا مميزًا، مصدر ألم وحيرة.

قال صلاح:

- جننا من المحكمة مباشرة. حصلنا على الطلاق.

هناهما سامي. كان صلاح متعرقًا بادي الغم رغم تظاهره بالسعادة، بينما بدت نعمة هادئة، لا سعيدة ولا حزينة. سألت:

- أين جدتي؟

- مع الماعز، لم تعد حتى الآن.

وأشار إلى حيث تجلس خلف القطيع في عمق البستان؛ فمضت إليها، ودخل صلاح مع سامي إلى البهو. قال قبل أن يجلس:

- نفسي في كوباية شاي.

دخل سامي إلى المطبخ، وضع الشاي على البوتاجاز وعاد، يقول:

- كامل كان واعدني أن يستجيبوا لما تريده نعمة.

- لم أر خلقته. لكن ابنه تصرف بذوق.

- شاب غلبان.

- ملعون، لكنه شاف العين الحمراء.

- أهنتهم يا عمي، يجب أن تطيب خاطرهم باعتذار.

- كنت غاضبًا. نعمة كل ما تبقى لي.

اختلف صوته؛ فنهض سامي وعاد بالشاي، كان صلاح قد تماسك؛ فسأله:

- متى رحل أبوها؟

- في 7 أكتوبر 2008. كان حادثاً كبيراً تحطمت مركبتان في اليوم نفسه على شواطئ كلابريا في إيطاليا.

- بعد مقتل أبي في الحبس، بأشهر قليلة.

- مات في السفينتين أكثر من مئة شاب. أكثرهم من الشرقية. المصيبة أن هذا النوع من السفر غير مطروق في تل المساخيط.

- فكيف سافر محمود؟

- أردت أن أعرفه بأصولنا. رُحنا ميت سهيل. كانت زيارة السودان. أقنعه شباب بالسفر معهم، كان يحس أنه ذاهب في نزهة. لم أتمكن من منعه. ذهب معهم إلى ليبيا وقعدوا هناك أسبوعين في مركز تجميع. كنت أكلمه وأرجوه أن يعود، حتى صعد إلى المركب في منتصف ليلة سوداء. وبعد ذلك انقطعت الاتصالات. عشنا أنا والمرحومة والدته على أعصابنا، أياماً وليالي بلا نوم، حتى عرفنا بكارثة المركبتين. عاد البعض جثثاً واخفى البعض ومنهم محمود. لا دفنته ولا وصل إيطاليا.

عادت أم الغلام مع نعمة وجاءت رفقة. حيّت ودخلت إلى المطبخ لتعد الغداء، لكن صلاح أصرّ على الانصراف. وقف سامي بالفرندا، لا يعرف ما يفعل. أخرج الموبايل وأخذ يُصوّر لفريدة عنقيد العنب البيضاء بين الأوراق. كتبت:

- هذا ما جعلك لا تشناق إليّ. العنب في إمبابة أحلى!

- ولا عنب الدنيا يمنعي عنك.

- تمنعك رفقة ونعمة.

فكّر أن يكتب إليها عن الثقل الذي يشعره في هذه اللحظة، لكنه تحاشى الاقتراب من سيرة نعمة؛ فكتب: يشغلني الغندور والجمل المُبتلى بالدمامل.

كررت فريدة سؤالها: لهذا لا تشناق إليّ؟ كتب: أريد أن أطيّر إليك. تحبني؟ مجرد سؤال. أحبك جداً. وإذا أتيت وأرحتك من نصف همك؟ أخذ يفكر فيما يكتب؛ فكتبت: لماذا لم ترد؟ لأنها مفاجأة مفرحة. جد تتحدثين؟ جد جداً، لكنني لن آتي وحدي. الزيارة ليست فكرتي أصلاً. الصديقات متحمسات، مسحورات بالغندور. ماذا يقلن عنه؟ يقلن لليلاس هذا هو الرجل الذي سيصمد معك، وراهننا على أنها ستفك سحره. لا أُصدّق! صدّق تتعامل مع ساحر ومنوم مغناطيسي إثيوبي رهيب. هل يأتي معكن؟ نحاول، إن جننا فعلاً! تعالي أرجوك، أحتاجك جداً جداً.

جاءت فريدة مع صديقاتها في ثلاث سيارات. ويبدو أن مشهد النساء وراء عجلات القيادة أثار فضول نساء أبناء ناجي اللائي خرجن يستطلعن، ثم تتبعن السيارات سيرًا على المدق، وأخذن يتظاهرن بالذهاب إلى بستانهن بينما يسترقن النظر إلى الزائرات.

أخذت فريدة تُعرّف سامي بهن: ثريا، سعاد، منى، سوسن، منار، أخذ يصافحهن بكامل اليقظة لأسمائهن، يُميّز الأسماء التي كان يعرفها من قبل، ويحاول مطابقة كل منهن مع الصورة التي رسمها عنها عندما كانت مجرد عضو فيما أسماه «محفلة الأنوثة» المتضامن. ثريا التي تبدو أكبر من الأخريات بعشر سنوات على الأقل، بعد أن صافحت سامي بحرارة ارتدّت إلى آخر الطابور، وقدمت إليه الشابة الأخيرة:

- ليلاس، الملتهمة.

هزّت ليلاس شعرها الكثيف المجعد المسترسل من كل الاتجاهات كأغصان صفصافة. حركة رأسها التي أرادت بها التعبير عن إحساسها بالإطراء كشفت وجهها فبدت بهجة عينيها العسليتين.

صافحت سامي، بينما ترد على ثريا:

- أهكذا تقدميني؟

- وماذا في ذلك، هل تبادلني حظك بحظي؟

قالت ليلاس:

- اللي ينتظر بخته بيضيع وقته.

أمسك سامي بيدها ونسي أن يتركها. سحبت يدها، فاصطبغ وجهه، بينما ظل وجهها هادئًا بلون النحاس الأحمر. ومن بين شفثيها المفترتين بالابتسام بدت أسنانها ناصعة مصفوفة.

انتبه إلى وجود أم الغلام ورققة فعرفّ بهما الزائرات اللائي توجهن لمصافحتهما. أخذت فريدة تتفحص رققة. وهنت منى:

- إلى مزرعة الحيوان قبل أي شيء.

سار سامي أمامهن إلى المعلف. كن مبهجات بما يشاهدن وصرن بدورهن فُرجة للنساء اللائي لم يتوقفن عن الذهاب والإياب على المدق، بل تقاطع معهم هارون الذي لا يظهر إلا نادرًا.

كان حمادة مقرصًا في ملابس العمل يعالج النار تحت كنكته، بينما يجلس سمعان في ظل الجدار. وقفا مأخوذين بهذه المداهمة. وحيتهما النساء. مد حمادة يده إلى السماعة وخفّض من مستوى الصوت؛ فأشارت إليه ليلاس ألا يفعل. همست لها ثريا بشيء؛ فأخذت تحقّق في حمادة ثم

أشاحت بوجهها وقالت:

- ليس لوني المفضل.

- يا بنت؟!!

قالت ضاحكة:

- لو مزنوقة، لكنه ليس الخيار الأول. أفضّل أن يكون أحدنا مرثياً إذا انطفأ النور. انظري ذلك الأشقر المبتسم.

همست فريدة:

- هذا سمعان، زوج رقيقة.

ثم أحاطت فمها بكفيها وهمست لها:

- أبله.

- كل الرجال بلهاء، وتكفي ضحكته!

تجاوزن الرجلين متجهات نحو الجمال. التففن حول الجمال الثلاثة الواقفة تتسابق على التهام كومة البرسيم أمامها، التقطن الصور السيلفي ومقاطع الفيديو مع الديناصورات الصغيرة، وبين هبّات شجاعة تحمل إحداهن على القرب البالغ وارتداد مفاجئ توصلت الصيحات الضاحكة. ثم دخلن إلى العنبر المسقوف، تفرسن العجول وتجاوزن الباب بخطوات قليلة، وخرجن مهرولات. سألت ليلاس:

- وأين الماعز؟

ردّت عليها سوسن مداعبة:

- حددي سؤالك. أين الغندور؟

ضحكن، وأشرق وجه سامي، وقال:

- الماعز ترعى تحت الشجر خلف المعلف. يمكن أن نذهب من هذا الباب.

هرولت ليلاس قبل الجميع. كان معظم القطيع نائماً. وأشرن كلهن إلى الجدي الواقف الذي عرفنه من صورته.

- واو! ها هو!

التففن حوله فلم يفزع. ضيّق عينيه وأخذ يتفرسهن باستكبار، ثم خطا ضجراً. وتوقف بعد خطوات. قالت ليلاس:

- تعال. جئت لأفك سحرك.

خطا نحوها بشموخ. مدت يدها تتحسس ظهره فاسترخى ومال إليها، حتى ترك ثقله عليها.
ضحكت ثريا:

- ذاب من أول لمسة!

قالت ليلاس:

- انتظرن حتى يُخْلِصه الرجل الأومورو.

قال سامي:

- ألم يكن من الممكن أن يأتي؟

قالت ليلاس:

- هل تظن أن علي الأومورو لديه الوقت ليأتي، حتى لو كان كل قطيعك مسحورًا؟!

- روح واحدة تستحق.

- طبعًا تستحق، لكن لو عرفت حجم الإقبال على الرجل ونوعية من يطلبون خدماته.

رفعت ذراعها فضاقت بلوزتها الكتان، وأخذت تشير بكفها في الأعلى لتوضح الحد الذي تصل

إليه مستويات من يستعينون بالساحر الإثيوبي. مع رفع الذراع إلى آخر مداها خزت حلمتها البلوزة

الكتانية الرقيقة. لاحظت ارتباك نظرة سامي. حدقت فيه بعينيها المعسلتين الباسمتين، وسألته:

- آخر كلام، أخذه؟

قال متلعثمًا:

- آ.. آ.. آه، خذيه.

اقتربت منها منار وسألتها:

- حقيقي؟ ستعرضين الجدي على الأومورو؟

- ما حاجتي إليه، سأتولى الغندور بنفسي.

ضحكت منار وقرصتها:

- أثق في سحرك.

- وحتى إن فشلت. هو، على وضعه هذا، يفى بالغرض.

فيما تبقى من الزيارة، بالغ سامي في ملاطفة فريضة إلى حد أن همست له:

-ماذا بك يا سامي، عليك أن تهتم بمجاملة الصديقات. لا أن تغازلني أمامهن.

ثم وكزته بكوعها في صدره:

- ولا أن تحقّق بليلاس. استح!

مضت نحو رفقة التي بدأت تعد طاولة الطعام، وأخذت تثني عليها، ثم طلبت منها الوقوف معها لالتقاط صورة. أرادت رفقة الاعتذار بسبب عدم ملاءمة ملابسها، لكن فريدة كانت قد أخرجت تليفونها. احتضنتها وهي تقول:

- في أي لبس، أنتِ قمر.

بعد المغرب أخذت الزائرات تتأهبن للانصراف. ذهبت أم الغلام إلى حمادة وطلبت منه إعداد الغندور للمغادرة. وعندما شرع في تقييده، عاجلته ليلاس:

- ماذا تفعل؟

تطلع إليها حمادة، ثم قال باستخفاف:

- كما ترين. أكتفه لنضعه في شنطة السيارة.

- لا؟! هل تريده أن يموت؟ بعد أن أجلس ضعه على حجري.

أخذ حمادة يُقَلِّب نظراته بين سامي وبينها، بينما يحاول كبح محاولات الغندور للتخلص من بين يديه. أوماً له سامي بالموافقة.

وعندما أخذت السيارات تتحرك، تبادلت الزائرات التلويح مع سامي وأم الغلام ورفقة، بينما كانت ليلاس في المقعد الأمامي بجوار ثريا، مخفية وراء الغندور، الذي أخرج رأسه من الشباك يطالع المودعين دون أثر لخوف أو أسف. بعد انصرافهن، قالت أم الغلام:

- فريدة حلوة يا خواجه. طعمة. ربنا يسعدك بها.

ثم خفّضت صوتها وقالت:

- وستنجان ستة.

تركته ومضت إلى الدغل. صعد ليسترريح، وبقي صدى ضحكات النساء عالقاً في الهواء. كان مقتولاً من التعب. لكنه ظل مستيقظاً. وكان صوت الغناء يأتيه من المعلف شفيفاً مثيراً للشجن.

عصريا بادا

فانتي تاوو اجيي

وانييتو نيجيكا اج نيجتيير

ابروسي ايساكا فاكوتير

بدأ الجو يتحسن بعد منتصف الليل، وكلما هبَّت نسمة هواء، تنفخ الكلمات التي لا يفهمها أصلاً، مثل شراع سفينة تدور حول نفسها وسط عاصفة.

وقفت أم الغلام تحت شمس الظهر تتطلع إلى الطريق يميناً وشمالاً مثلما تفعل كلما غاب صلاح يوماً أو يومين. لمحت حصاناً يتهادى عند أول المدق، لا يبدو لنظرها أن فوقه راكباً، ثم بدأت عمامة تظهر فوق السرج، وبينما أخذ الحصان يقترب كانت ترى العمامة ترتفع شيئاً فشيئاً حتى رأت تحتها ملامح عجوز ضئيل تتشبث قدماه بالركاب.

- حصان يا عطا الله؟ والله ولا شفتك فوقه، قلت شارده من صاحبه!

- طول عمرك طويلة اللسان يا نجفة. خلينا في عملتك السودا.

- أنا حرة في مالي، توك عرفت؟!!

- ستتركيني معلقاً هكذا؟

- من الذي تكلم من فوق الحصان؟!!

ترجل وربط الحصان في شجرة. وسارت أمامه إلى الفرندا. جلسا، وأخذت تشعل النار. ووضعت كنكة الشاي. قال:

- يعني لو تزوجتيني ما كان أحسن من ابن عمك الذي غدر بكِ ومات؟

- أمر الله يا ناقص، هل كان بيده؟! ادخل في الموضوع.

- فتحت علينا الباب يا نجفة، من يضمن ألا يطردنا الشاب كلنا بعد أن تنازلت له عن أرضك؟

- لم يطالبني بالأرض، أنا فرضتها عليه.

- وإذا استحل الحكاية؟

- كنت تريدني أن أترك ورثي لأولاد المجحوم؟!!

- وتقومي تخوفينا بمحمد لطيف.

- غريبة، تعرف المحامي؟!!

- كل الدنيا تعرفه، والكل خائف. لا يخسر قضية أبداً، كأنه يسحر للقضاة.

- وقر لومك للعجول. هم رفعوا القضية واضطرونا لمحمد لطيف.

- أنتِ عملت مشكلة حتى خارج زمام سالم يعقوب. كسبه للقضية سيفتح شهية ورثة الباشاوات

الآخرين، والحكومة أصبحت تأخذ من الفقير لتعطي الغني.

- اطمئن. الآن أصبحت تأخذ من الاثنين!

بعد عطا الله الفولي جاءها جيران ومعارف من هنا ومن هناك. وجوه حفر الشقاء خطوطاً على

صفحاتها، عظام عجوز هشّة تضمها إلى بعضها جلود ضامرة، وأجساد أقل أعمارًا تُثقلها سمنة الفقر. بدأ سامي يشعر بالذنب.

قالت أم الغلام:

- من يريد أن يخاف فليخف.

- عرفْتُ الخوف جيّدًا يا جدة، ولا أريد أن أتسبب في خوف أحد.

- لبيت كل الخوف والحزن على الفلوس يا سامي.

في صباح يوم الجلسة بدت المحكمة خلية نحل. طنين في اليهو والممرات، وتكدس في القاعة. احتل المحامون الصفوف الأولى، جاؤوا ليروا محمد لطيف ويستمعوا إلى مرافعته. وجلست أم الغلام بين سامي وصلاح بعد ثلاثة صفوف بالجهة اليمنى من القاعة وجلس أبناء ناجي الثلاثة جهة اليسار. ولم يتوقف توافد الناس حتى امتلأت طرقات القاعة بالواقفين وفاضوا عن الباب.

في أغرب أحلامك لم تتخيل نفسك في هذا المكان!

تذكّر أن والده قضى نصف عمره في أروقة المحاكم، فغمرته موجة ثقة، وأحبّ العرض. اتسعت ابتسامته، وأخذ يتفرس أثاث القاعة ووجوه الحاضرين، وتضاربت مشاعره بين رغبته في أن يخرج منتصرًا، وبين تعاطفه مع هؤلاء الخائفين. أخذت أم الغلام تدق بعكازها قلقلًا، ثم قالت:

- كلم الرجل.

شق زحام القاعة وذهب إلى ركن أقل صخبًا باليهو. طلب محمد لطيف. أجابه:

- لا تقلق. اقتربنا. وقضيتنا ليست في أول الرول.

عاد إلى مكانه، وهمس لأم الغلام. ثم ظهر حاجب الجلسة. وضع رصّة من الملفات وطرق المنصة؛ فعمّ الصمت. دخل قضاة ثلاثة. أخذوا أماكنهم ونادى الحاجب على القضية الأولى، فالثانية، والثالثة. فجأة زادت الجلبة خارج القاعة حتى غطّت على الصوت. طرق القاضي المنصة وزعق بالحارس:

- اقبل الباب.

قبل أن يعالج الرجل الباب دخل لطيف متأنياً، يتقدمه شاب ضخم، وكهل نحيف بشعر أبيض. همّ سامي بالوقوف، فأشار إليه لطيف ليبقى كما هو، بينما وسّع له أحد المحامين مكانًا وأجلسه في الصف الأول. أخرج الكهل ملقًا من الحقيبة ناوله للطيف، وتقهقر مع زميله ليقفا في الممر بجوار الجدار.

بعد ندائين إضافيين، أعلن الحاجب عن القضية، هبَّ محامي الخصم ومحمد لطيف، وتقدما إلى المنصة. استفسر قاضي الوسط عن وجود طرفي النزاع، وطلب من الحاجب إثبات حضور المحامين، ثم أذن لمحامي المدعين بالكلام.

- هذه مذكرتي سيدي الرئيس. واسمح لي أن أُلخص ما جاء بها.
أوما القاضي بالموافقة، فقال المحامي:

- إن المدعى عليها سيدي القاضي عمّة موكلّي، ابنة عم والدهم وأرملة شقيقه في الوقت ذاته. وهم أقرب أقاربها، يرعونها بعد موت زوجها وابنها، لم يُقَصِّروا في صلة الرحم التي أمرنا بها الله سبحانه وتعالى...

هتفت أم الغلام:

-أنت لا تعرف الله سبحانه وتعالى.

قال القاضي:

- لا يا حاجة. ممنوع الكلام. تفضل يا أستاذ.

قال المحامي:

- لقد فوجئوا بأن عمّتهم، أنت بشخص غريب لا يعرفونه، ومنحته خمسة أفدنة في وسطها سرايا فخمة يعرفها كل أهالي المنطقة، منحته كل ما تملك بموجب عقد هبة بدون مقابل، كما قامت بتغيير حيازة الأرض باسمه في سجلات الجمعية الزراعية.

تململ قاضي الوسط، وقال: أوجز.

- سأوجز سيدي الرئيس. إن هذا التصرف يضر بموكلّي الثلاثة، وخاصة أنه بدون مقابل. طلبي هو إبطال عقد الهبة، وإلغاء كل ما يترتب على العقد المذكور من آثار في الحاضر والمستقبل. هذه العمّة...

قاطعه القاضي:

- كفى، فكرتك وصلت، هات مذكرتك.

ناوله المحامي المذكرة، وأشار إليه القاضي ليتقهر، وأشار إلى لطيف:

- محامي المدعى عليهما.

تقدم محمد لطيف، قدم مذكرته المكتوبة، وقال:

- أستاذن هيئة المحكمة الموقرة بأن أُلخص ما جاء بمذكرة دفاعي.

قال القاضي:

- تفضل يا أستاذ لطيف. نريد أن نسمعك.

- شكرًا سيدي الرئيس. لن أطيل. يعرف الزميل أن حق الادعاء لا بد أن ينطوي على صفة ومصلة. والشرطان غير متوفرين، لأن صفة المدعين كورثة صفة مستقبلية لم تنعقد بعد. من الوارد أن تُعَمِّر موكلتي أكثر من المدعين جميعًا وأن تكون هي وريثتهم. وطالما لم تنعقد الصفة ولا المصلحة للمدعين فليس لديهم أي سند للتقاضي، ولموكلتي كامل الحق في التصرف في أموالها بأنواع التصرفات كافة. لذا أطلب من عدالة المحكمة رفض الدعوى شكلاً وموضوعاً.

وقف محامي المدعين، رافعاً يده:

- تأذن لي بكلمة سيدي الرئيس.

قال قاضي اليسار:

- لقد سلّمت مذكرتك.

- كلمة واحدة إن أذنت لي المحكمة الموقرة.

- تفضّل.

- لقد تخطت المدعى عليها التسعين عامًا، ومن الوارد جدًا أن تكون أقدمت على ما فعلته بسبب خرف الشيخوخة، لذا أطعن في قواها العقلية.

نهضت أم الغلام وخبطت بعصاها البلاط:

- يا رب تخزّف وتعمى وتحسس على الطوبة تلاقبها خرية.

ضجت القاعة بالضحك، وطرق قاضي الوسط المنصة، وهتف:

- اقعدني يا حاجة كلمة واحدة زيادة، سأخرجك. تفضل يا أستاذ لطيف، هل تحب أن تُعقّب؟

- شكرًا سيدي الرئيس. الطعن في قوى موكلتي العقلية بما يترتب عليه من الحجر عليها غير

منظور أمام هذه المحكمة الموقرة وتختص به محكمة أخرى.

قال القاضي:

- الحكم آخر الجلسة.

حيا محمد لطيف المنصة بانحناءة خفيفة من رأسه، وانصرف متأنياً في مشيته. وقف سامي وصلاح وأمسكا بيد أم الغلام، وساروا في إثره، وسرت في القاعة حركة انسحاب واسعة، بينما ينادي الحاجب على الدعوى التالية. أحاط المحامون بمحمد لطيف في البهو وأخذوا يلتقون معه الصور، ويدفعون إليه ببطاقات تعريفهم، ويدعونهم إلى استراحتهم لتناول الشاي. وقف مصطفى وأخواه مع محاميهم غير بعيد يراقبون، وحولهم مزارعون آخرون عرفهم سامي من توجسهم

والبؤس في وجوههم أكثر مما عرفهم من ملابسهم المنوعة بين الجاليلب البلدية والملابس الإفرنجية حائلة اللون من أثر الشمس والعرق. كسر لطيف دائرة المحامين، وأسرّ إلى سامي:

- هيا، سنتغدى في مطعم جميل على البحيرة.

نظر سامي إلى أم الغلام وصلاح، ثم سأله:

- ألن ننتظر سماع الحكم؟

- سيبقى سعيد عبد الخالق ليتسلم الحكم في نهاية الجلسة ويلتحق بنا.

ثم نظر إلى الشاب:

- السيارة يا فريد.

قال صلاح: معي سيارتي، وعندى أشغال، أستأذن حضرتك في الانصراف.

-لن نغيب، وسنعيدك إلى سيارتك.

- هذا واجب علينا يا سعادة البيه.

- سامي ابني، وهذه الدعوة من أجله. عيش وملح يا أخي.

أوصلهم فريد إلى باب المطعم وعاد بالسيارة إلى المحكمة ليأتي بالمحامي الذي ينتظر الحكم. هروا شخص بدا مدير المطعم إلى الباب للترحيب بمحمد لطيف. وأفسح له الطريق إلى الطابق الثاني، وأخذ اثنان من الندل يساعدان سامي وصلاح في دعم أم الغلام للصعود. عندما وقفت بالشرفة أخذت تتطلع إلى البحيرة وقالت:

- عمري كله جنب هذا البحر ولم أراه!

قال صلاح ضاحكًا:

- الفلاح منا مثل البهيمة، يدور في مكانه في حدود طول الحبل.

قال سامي:

- يعرفون حضرتك من الصور يا أنكل؟

- لا، ليس من الصور. لم أنقطع عن سرايب، رغم كل ما حدث لها. بين وقت وآخر آتي إلى هنا للغداء والاستمتاع بمنظر البحيرة. انظر إلى هذه السفن التي تبدو في البعيد صغيرة كمركب ورقي دفع به طفل إلى سطح الماء. عالم من الأسرار يبشرها وقصصهم وحواياتها التي لا نعرف ما بداخلها، والفئران التي تسافر في زواياها المظلمة. كذلك نحن، كل منا سفينة عابرة لا يدري الآخرون عنه إلا شكله المائل أمامهم.

أخذ سامي يتأمله بعيدًا عن الهالة التي أحاطت به في المحكمة. رآه إنسانًا عاديًا أنهكته السنون.

قبل أن يصل الطبق الأول وصل السائق فريد مع سعيد عبد الخالق الذي زفَّ الخبر بطريقة استعراضية:

- رفض الدعوى شكلاً وموضوعاً.

قال لطيف:

- مبروك، لكنهم لن يسكتوا. وأنا لست محاميك فحسب يا سامي، أنا مكان أبيك. أوصاني بك، ولن أهمل وصيته ما حييت. واليوم دخلت ست الكل الحاجة نجفة في الوصية.

بعد أيام قليلة من حكم المحكمة، جاء رجل ربعة على موتوسيكل قديم. طلب من سامي أن يمر بنقطة الشرطة لأخذ أقواله في محضر تقدم به الجيران.

- أين النقطة، وبشأن ماذا؟

- في التبة.

أشارت أم الغلام إلى سامي أن يقترب منها. جذبت رأسه ووشوشته في أذنه. أخذ يُقَلِّب نظره بينها وبين الرجل، ثم وضع يده في جيبه وأخرج نقوداً، مدها بيد مترددة. انفرجت أسارير الرجل ودسها في جيبه ثم أخذ يردد:

- لا داعي يا سعادة البيه، لا داعي والله.

ورفع قدمه ووضعها على دواصة البنزين، وقال:

- أي خدمة يا سامي باشا؟

- كنت أريد أن أعرف ماذا في هذه الشكوى بعد إندك.

- لا تشغل بالك يا سعادة البيه.

ثم خفَّض صوته وهمس له:

- كلام أهبل. تأتريك نساء وتشربون الخمر، ويعني...

ثم رفع صوته مجدداً:

- ما عليك إلا أن تأتي وترد. تعال في الفترة المسائية يكون شريف باشا أخذ قيلولته وعاد رائقاً. عشرة بالليل، يكون في أفضل مزاج.

أخذ سامي يحدِّق في الرجل ليبحث عما يجمعه مع الرجل الربعة الذي استوقفه صباح عيد ميلاده أمام ذلك المبنى الجميل المخيف. انتبه الرجل إلى اتساع ابتسامة سامي، فابتسم، وقال بدفء:

- أنت رجل طيب. اعتبر أن لك أحاً في النقطة. اسمي فضل الله. سجِّل رقمي.

أملاه الرقم، وسألته أم الغلام:

- قل لي يا فضل الله، من قدّم هذا البلاغ؟

- عبد السلام ناجي.

ثم همس:

- أمين عسكر هو الذي حرّضه. كان معه عند تقديم البلاغ. أرجو أن يكون هذا سرًّا بيننا.

- من أي داهية؟

- من سراب.

ثم وجه حديثه لسامي:

- رن عليّ لأسجلك. وأي جديد سأبلغك به. أقول لك الحق. يُستحسن أن تهجم، فكر في بلاغ

ضده.

في الموعد ذهب سامي مشياً إلى قرية التبة وكلما سأل أحدهم عن النقطة أشار له إليها لكنه يتطلع فلا يراها ويسأل شخصاً آخر. حتى قال له أحدهم. أنت الآن على عتبتها. لاحظ في النور الخفيف اللافتة حائلة اللون التي تكاد لا تظهر على واجهة مبنى من غرفة واحدة تتقدمها شرفة صغيرة. كان الأمين فضل الله يجلس خلف مكتب صغير من الصاج في الشرفة ذات السور العالي، وإلى جواره يجلس كهل يقترب من الستين بشريطين على ذراع بدلته الميري. بين ساقيه بندقية مرتكزة على الأرض.

رحّب به الأمين واستمهله ليستأذن له شريف باشا. بعد دقائق رنّ الجرس؛ ففتح له الأمين الباب. كان الضابط الشاب مسترخياً في مقعده واضعاً قدميه فوق المكتب، أشار إلى سامي ليجلس. كان ينهي مكالمته بدا أن الطرف الآخر يفرض تمديدتها. ولم يبدِ تذمراً أو حرجاً، أكمل حديثه الهامس، ووضع التليفون مغتبطاً. ثم أنزل قدميه، ورحّب بسامي وسأله عما بينه وبين جيرانه وجعلهم يتقدمون بهذا البلاغ ضده. أخذ يستمتع إليه باهتمام. ثم قال:

- لا تقلق، اعتبرني صديقك، لا تجعل هذه الألاعيب تضايقك.

ردّد سامي الشكر ممتناً.

قال شريف:

- عندما دخلت أحسست لوهلة أن أخي الكبير يدخل عليّ.

- هو في مثل سني؟

- العمر الطويل لك.

ثم ضرب الجرس. دخل فضل الله فطلب منه أن يفتح محضراً. أشار الأمين لسامي أن يخرج

معه. قال الضابط:

- لا. اكتبوا هنا، في مكتبي.

أحضر فضل الله رزمة ورق وقلماً، وأخذ يكتب ديباجته الأولى ويتلوها بصوت مسموع، ثم شرع شريف يسأل سامي:

- س. ما ردك على المنسوب إليك بأنك تستقبل نساء في السرايا؟

كتب فضل الله السؤال، ثم كتب «ج» وتعلقت عيناه بسامي الذي توسعت ابتسامته وأخذ ينظر تجاه شريف، الذي تولى عنه الإجابة.
- هذا ادعاء عارٍ عن الصحة.

ثم استغنى الضابط والأمين عن سامي تمامًا، وأخذ يكتبان السؤال ويردان نيابة عنه بالجواب
اختتما المحضر بسؤال إليه:

- هل لديك أقوال أخرى؟

قال سامي:

- لا. شكرًا.

قال الضابط الشاب:

- وقع. ولا تفلق، سنحفظ البلاغ، لكن عليك الانتباه. خلافك الأصلي مع هؤلاء الناس ليس بالقليل.

عندما عاد، كانت أم الغلام نائمة. أخذ يفكر بما قاله الضابط. كتب إلى محمد لطيف يستأذن أن يطلبه. أجابه بترحاب. فأسرع يحكي له، كأنما عن شخص آخر:

- أعزب تتردد عليه نساء مجهولات في ملابس تخذش الحياء، ونرى ونسمع أشياء لا تقبلها تقاليدنا ولا ديننا الحنيف.

قهقهه لطيف؛ فقال سامي:

- تخيل يا أنكل. أنهم حملوا إلى النقطة زجاجة نبيذ ممتلئة طينًا، كنت شربتها منذ شهرين أو أكثر مع صديق من المنطقة، قريبيهم على نحو ما.

-خمرٌ ونساء! كنت أتوقع شيئًا آخر.

دخل إلى سريره هادئًا، وقد أحس من ردود لطيف أن ما يجري جزء من صميم الحياة، وأن أم الغلام والجيران ورجال الحكومة جزء من العرض المستمر إلى ما لا نهاية. في الصباح حكى لأم

الغلام ما جرى في النقطة. أظفرا معًا ثم أخرجنا القطيع. أخذ يتطلع إلى الجدي الأبيض ابن العجوز ذات العينين الزرقاوين. صار في حجم الغندور يوم وصوله. كتب إلى فريدة. ردت: لم نعرف شيئًا عن ليلاس منذ عودتنا. يبدو أنها فكت سحره، ولن تظهر إلا إذا هرب منها.

صمتت عن عيد ميلادها في الغد، لترى إن كان يتذكّر. ولم يرسل إليها شيئًا لكنه عاد إلى القاهرة آخر النهار دون أن يخبرها وأعد للاحتفال. عندما خطت أولى خطواتها في الشقة بعد الظهر صاحت مبتهجة. وقفت تتأمل الزينة، بالونات معلقة، وبالونات في الأرض وفوق الكراسي. وعلى طاولة السفرة مفرش بلاستيكي سميك مزين بصور الفاكهة الملونة، وفوقه طبقان من الكرتون، وعلبة من الشموع الرفيعة. احتضنته، بينما تهتف:

- هذه بالضبط صورة أعياد ميلاد طفولتي.

- انتظري بعد، توجه إلى الثلجة، وأخرج زجاجتين من مياه غازية اختفت منذ التسعينيات.

- لا، لا، غير معقول أعدتني لذلك العمر.

- أنت طفلاتي يا ريدا، انتظري.

كشفت تورتة مزينة بصورتها. واحتفلا كما يحتفل الصغار، ثم احتفلا كالكبار، ثم أخذتهما سكينه الغبطة متحاضنين. سحبت رأسها بحذر لتحرر يده من تحتها، فتنبّه:

- لا تقلقي، أنت خفيفة كالروح.

- غير معقول. هذه الدقائق تعادل راحة نوم الدهر.

- كل يوم يمر بدونك، غير محسوب من عمري.

- هجاص يا نوتي!

أخذ يتحسس ظهرها بحثًا عن الحسنه الكبيرة أسفل عظمة الكتف.

مدّت يدها فأمسكت بأصابعه وقالت:

- جسمي هبة هذه الإنكردبلز.

لفتّها نحوه ونظر في عينيها:

- هل تقبلين بي زوجًا؟

- أممم. لا بد أن أقبل، لم أتلّق عروضًا أفضل!

بعد أيام من عودته جاء ما توقعه لطيف. إخطار بدعوى حجر ضد أم الغلام وطلب الوصاية القانونية عليها. قال المحامي المخضرم لسامي:

- لا تقلق. القضية بسيطة جدًا.

في بيت طفولتها بشارع بغداد استقبله فهمي طنطاوي بحفاوة، في بدلة أنيقة. وقدمت فريدة ابنتيها اللتين طالما تبناهما في خياله. هند نسخة منها. وإشراق متينة وقصيرة، بذل جهدًا ليعثر على حصة فريدة في ملامحها. صافحتنا بجمود وانسحبنا. رأت فريدة الابتسامة تنحسر عن وجهه. قالت:

- لا تكن سريع الإحباط.

أمسك العم فهمي بيده ودار به يُعرِّفه بكل شيء في البيت الذي بدا مرآة لشقة طفولته. طرازات الأثاث نفسها، صواني التقديم، مفارش الطاولات، الستائر. وأخرج ألبومات صور، وبسطها أمامهم وأخذ يستعرضها. النزاهات الأسرية تشبه نزاهات سامي مع أسرته المحبوسة في ألبومات مماثلة. الأماكن ذاتها، حديقة الحيوان، الهرم، ميدان رمسيس تحت قدمي التمثال المهيب للملك الذي نُقل للإقامة الجبرية في متحف ضخم بصحراء الهرم، صور على شاطئ العجمي بالإسكندرية. تلمع عينا العجوز، بينما يشير إلى صور زوجته، ويقول لسامي:

- جيجي! انظر كم كانت جميلة!

تعابته فريدة:

- أنا أجمل.

- أنتِ ابنتي، ماذا ينبغي أن أقول!

جاء أخوها نائل، الذي تصفه بـ «العازب الأبدي» متأخرًا، في شورت وفانلة دون كمين. حيًا وجلس يطالع معهم الصور، وصار الأب يختبر سامي لاكتشاف أطفاله في صور جماعية مع أصدقاء وأقارب، لم يخطئ في الإشارة إلى فريدة بين طفلات من سنها، لكنه يعثر في معرفة أخويها، ويرشده فهمي: هذا نائل، وهذا وليد المهاجر في كندا. جعلته الصور يشعر أنه أصبح داخل طفولتها. ولم يبقَ بعيدًا عنه سوى سنوات زواجها، يتنازعه فضول معرفتها وعدم الرغبة في هذه المعرفة. بعد أن شرَّق الحديث وغرَّب استجمع قواه، وقال:

- جئت يا عمي أطلب منك يد فريدة.

أخفت فريدة وجهها بين راحتي يديها لتداري ضحكة، لأنها أدركت من العصبية التي صبغت صوته أنه قضى ليله يتدرب عليها. وردَّ أبوها:

- ونحن نتشرف بك يا ابني.

انطلق يحكي له عن البستان والسرايا، واقترح عليه أن ينتقل للعيش معهم بعد الزواج، كما طمأنه

على وجود مدرسة للبنّتين ذات مستوى في سراب. نهضت فريدة لتضع الغداء. ونهض سامي يساعدها.

- اشتقت لزنقنتنا في المطبخ.
- من يراك الآن لا يتصور أنك كنت تتعثر في كلماتك من دقيقة.
- موقف رهيب، ماذا تنتظرين من شاب لحظة تنازله عن حرّيته؟!
- لم تزل على البر، تغدى وخذ حرّيتك وعد إلى الماعز!
أمسك بخصريها. تملصت منه، ونادت هند لتساعد. عندما جلسوا إلى المائدة أخذت إشراق تنفرس بسامي، وسألته:

- لماذا تضحك طوال الوقت؟
- هذا مجرد ابتسام.
- ولماذا تبتسم؟
- لأنني أعرف قصة جميلة.
- ولو ضايقتك الآن؟
- أتذكر أجمل قصة فأبتسم أكثر، جربي!
قالت هند:

- عندك حديقة حيوان؟
- من كل نوع. وعندي حيوان مسحور، نصف ماعز ونصف بشر، وجمل يضحك ويبيكي.
ضحكت إشراق، وقالت:
- هذه قصة جميلة أم حقيقة؟
- القصة الجميلة يمكن أن تكون حقيقية. تعالي وشوفي بنفسك.
قالت هند:

- أريد حصاناً.
- أممم، لنفكر، لكنه عال، وأحياناً يندفع بسرعة شديدة جداً جداً، وفي هذه اللحظة تظهر له أجنحة، فيرفرف ويطير. يمكن أن نشترى حماراً؛ لأنه طيب وهادئ جداً، ولا تراوده أحلام الطيران.

قالت إشراق:
- وكيف عرفت أنه لا يطير؟

- جاري عنده حمار ضعيف وقصير جدًا جدًا، وهذا الجار ضخم جدًا جدًا، يركب الحمار الذي يحمله بصعوبة جدًا جدًا، ولو كانت الحمير تطير، لطار هذا الحمار وارتاح.
فتح تليفونه وأخذ يستعرض معهما صور حمير. انطلق جرس التليفون واحتل اسم الأمين فضل الله الشاشة.

بعد أن ردَّ التحية، أخذ يردد:

- ماذا؟ كلابي؟! هذا كذب، إصابته خطيرة؟ لن أتأخر.

انتحي بفريضة جانبًا، وهمس:

- الجيران تقدموا ببلاغ جديد، يدَّعون أن كلابي عضت طفلًا.

وصل إلى السرايا بعد الغروب، كانت أم الغلام في الفرندا وحيدة. بدت عليها الدهشة، وقالت:

- لم تغب!

أخبرها عن مكالمة الأمين فضل الله، قالت:

- كلاب؟ والله ما كلاب إلا هم. الذي هاجم الولد ذئب، وكل الجيران يعرفون ذلك.

- حقيقي؟ يمكن أن نجد شهودًا؟

- الشهود موجودون، واشتركوا معهم في مطاردة الذئب، والولد جرحه بسيط.

- سأذهب إلى النقطة لأرد على المحضر.

- اطلب سلاح ليذهب معك.

- أصبحت أستحي منه يا جدتي. لديه مشاغله أيضًا.

- تستحي من أهلك؟

- لا أعرف كيف أشكره فعلاً، ربما يجب أن أمنحه راتبًا.

- لن يقبل. ولن يتخلى عنك فلا تتخل أنت عنه.

- يساعدي من أجلك يا جدتي؟

- من قال لك؟ هو أقرب لك مني.

اتسعت عينا سامي حيرة ولم ينبس. ضحكت ووكزته بطرف عصاها.

- غسل يا خواجة، أحب نظرة العَبَط هذه.

انحسرت ضحكتها، وقالت.

- سلاح عمك يا سامي.

ودون أن تنظر إليه، استرسلت:

- هي الحقيقة، إعرفها قبل أن أموت.

وصلت إشعارات رسائل من فريدة، فتح التليفون، كانت تطمئن على وصوله، طمأنها، ووعدها باتصال. أخذت العجوز تتأمله، وعندما أغلق التليفون، قالت ضاحكة:

- ويمكن لك أعمام آخرين، في علم الغيب يا خواجه.

أخذ يُحدِّق بها، ساهياً عن بعوضة التصقت بخده.

- كانت الواحدة منا تأتي لتنظف السرايا لجذك، ويحدث ما يحدث.

- كان يغتصبكن؟!!

- أبدأ، عمره ما غصب واحدة فينا على حاجة. كان في جمال سيدنا يوسف. لم يكن مجرد رجل

جميل. كان له سحر غريب. كأنه بنج يتوّه الواحدة منا.

- ربما كان يخدركن بالبنج فعلاً، لم لا؟!!

- سحره كان في صوته. تسمعه الواحدة مننا، مفاصلها تسيب.

- يعني أنتن اللائي تبدآن؟

- يجعلنا نبدأ. هو سلال. كلامه طو. أنت أخذت منه. صوتك وتسييلة عيونك.

أرسل سامي نظرتة في ظلمة الأشجار. ضحكت ومررت سبابتها على خدها، وقالت:

- لم تكن في وجهي هذه الشقوق التي يمكن أن تختبئ فيها الفئران. كنا صغيرات.

قال سامي:

- كان يختار الجميلات؟

- عندما كنا نعرف أن قادم، نستحم ونسهر على تزيين أنفسنا. ويا سعدها من يطلب منها تنظيف

السرايا. وبعد أن تسمع منه كلمتين أو ثلاثة تكون قد ذابت: من فضلك امسحي هذه المرأة، انفضي

التراب عن هذا الكرسي. نبيهة زوجة المجحوم، دخلت هذه السرايا. ولم تخرج من فمي كلمة حتى

لما عيّرني، يوم ما حرق قلبي على ابني.

- يعني، يمكن أن يكون أحد خصومنا عمّا لي؟

- من يعرف! الوحيدة التي صارحتني وصارحتها نجية بنت خالتي.

- عمي صلاح لديه أخوة آخرون؟

- ثلاثة، آخرهم مات من سنتين، ولدتهم نجية في البلد قبل أن تأتي سرايا أو نعرف جدك.

- إن كان واحد من أولاد ناجي عمي؛ فلن يكون سوى هارون.

- لا، لا، أبو لحية هذا صغير. إن كان لك عم من بينهم فلن يكون سوى العجل الكبير، أو سعدية

الله يرحمها.

- الباشا ميّزك بالسرايا، أكيد أحبك.
- يمكن. بعد فترة اكنفى بي، ولم تعد واحدة أخرى تدخل السرايا.
- ولماذا لم تنجبي غير سالم؟
- ضحكت، وقالت:
- لأن الضباط وملك هانم حطوا جدك تحت الإقامة الجبرية في مصر.
- وزوجك؟
- صابر كان مقطوع الخلف.

أغمض سامي عينيه يستوعب ويفك اشتباك الأحاسيس المتضاربة؛ يحس الغبطة باكتشاف عم بالمصادفة، وغرابة هذا الاكتشاف، يستعيد ما فعله صلاح معه منذ وصوله، يتذكّر جده وأباه، وما قاله يوسف. الحقيقة ليست بهذه النصاعة يا أخي. حاول وسط كل هذا أن يفهم قرابته مع نعمة. سأل أم الغلام:

- يعني نعمة ابنة ابن عمي!
- تحل لك، لكن النصيب.
- شملهما الصمت. ثم سألهما:
- كنت تعرفين أن جدي وزير؟
- منذ عرفناه كان له وضعه في حزب الوفد، حكاية وزير جاءت فيما بعد. وفي أيامه كان الوزراء متواضعين. الآن ملازم في النقطة شايف نفسه رئيس ديوان.
- صمتت قليلاً، ثم قالت:
- سامي، أشعر أنني سأموت قريباً. لا تدفني مع الأوساخ. ادفني هنا، في أرضنا.
- هل هذا مسموح به؟
- من سيسأل. فقط عمقوا الحفرة ودكوها عليّ جيداً حتى لا تجرني الكلاب.

يمكن أن تبني لها قبراً على مثال مقابر أبي قير

عادت إلى رأسه ذكريات تلك المقابر الجميلة التي حسد موتاهها. زارها عندما كان في السنة الرابعة مع زميلته في الكلية. كانت هدى التي تسكن تلك الضاحية السكندرية قد انقطعت عن الدراسة إثر خيبة حب. هاتفها في بيتها، ووجدها يائسة إلى درجة التفكير بالانتحار. سافر إليها. انتظرتة في محطة قطار أبي قير وأخذتهما الخطى في خط مستقيم حتى لمح البحر من خلف

أشجار كثيفة داخل سور. قال لها سعيدًا: الله، هذا مشهد نادر في مصر. بستان وبحر معًا! قالت: هذه مقبرة. قال: دعينا ندخل.

أخذ طريقه إلى البوابة مهتديًا باتجاه السائرين أمامهما. رأى القبور البسيطة متراسة على شكل مصاطب من الرخام مع شاهد عند الرأس. تشبه تمامًا تلك الأوروبية التي يشاهدها في الأفلام لكنها تزيد عليها بإناءين من الفخار مثبتين بالإسمنت ناحية القدمين، في أحدهما ماء وفي الآخر قمح للطيور التي تُحلق أسرابًا وتحط لتشرب وتلتقط القمح، وتتغازل أو ترزق فوق موتى سعداء، يظللهم النخيل الملكي وأشجار البونسيانا والياسمين الهندي. لم يكن هناك من مظهر للحداد في المكان إلا في الملابس السوداء للنساء في موكب وداع ميت جديد وصل فجأة. همس لهدى: الآن أتفهم رغبتك في الانتحار، من لديه مقبرة كهذه عليه أن يستعجل الاستلقاء فيها. استدارت لترى وجهه المبتسم، فأصابتها عدوى الابتسام، وقالت: تسخر مني يا سامي، صح؟! هتف: تريدين الحق؟ نعم. المقبرة جميلة جدًا لكن تذكرني أن جمالها يراه الأحياء، وليس النائمون تحت الرخام، فالأفضل أن تعيشي وتستمتعي بها بقدر ما تقدري. لم تعد هدى إلى الدراسة بعد زيارته، ولم تنتحر. تزوجت وسافرت مع زوجها إلى الخليج. وكتبت إليه من هناك إنها مدينة له بحياتها.

بينما تتأهب للنهوض، قالت أم الغلام:

- هذه وصيتي لك يا سامي، ولعمرك صلاح. أوصيته قبلك.

- بعد عمر طويل يا جدة.

جعلت أصابعها تتخلل شعره، ثم هبطت درجات الفرندا، وابتلعها ظلام البستان. نهض سامي صاعدًا إلى غرفته، عازمًا على تأجيل الذهاب إلى النقطة حتى الصباح. تمدد على سريره وأخذ يستعيد مفاجآت أم الغلام. استغرب أن أثرها عليه صار لا يتعدى أثر مفاجآت فيلم بعد إضاءة صالة السينما. وسرعان ما فرض محضر عضة الكلب نفسه على تفكيره، وشده إلى فحص ملامح أبناء ناجي الثلاثة في ذاكرته، بحثًا عن قرابة، ثم بهت كل ذلك أمام ما حدث في زيارة مصر الجديدة، أخذت موجات البهجة تتدافع، وأحس أن غناء المعلف مع نقيق الضفادع وصفير صرصار الحقل موسيقى كونية تهز جدار قلبه.

فتح التليفون وكتب لفريدة: حبيبتي. ولم يصبر لكي ترد. طلبها، وأخذًا يتكلمان، ولم يعرف في الصباح من منهما نام أولًا. ذهب إلى النقطة، وعاد إلى أعماله، عازمًا على تقسيم الوقت بين القاهرة وتل المساحيط. اتفق مع فريدة على الإعداد سريعًا للزواج والانتقال معه إلى السرايا خلال الفترة الصغيرة المتبقية على بدء الدراسة. شرعا يدوران على محال الأثاث والملابس والأدوات

المنزلية، لشراء ما يلزمهم. ولأنه لا يعاني من ثقل الذكريات في السرايا، فلم يكن صعباً عليه أن يغيّر أثاث ثلاث غرف، واحدة له مع فريدة وغرفتين للبنتين اختارتا أثاتهما بنفسيهما. ووافق العم فهمي على العيش معهم، وطلب ألا يتغير أثاث غرفته.

لم يعد سامي يتوتر لبلاغات أبناء ناجي التي توالى؛ مرّة إشغال طريق بمخلفات تقليم الشجر، مرة فرار جمل فرط الثمار، مرة إتلاف كشاف الإنارة التي دخلت بفضلها أصلاً. لا تكلفه زيارات الأيمن فضل الله إلى السرايا سوى القليل من النقود وشيء من الفاكهة. المزعج أن أمور المعلف أخذت تسوء. يزداد حمادة سمنة ولا مبالاة طوال النهار، وبمجرد أن تغرب الشمس يغادر ويعود متأخراً مع أحدهم، أحياناً يبيت معه الضيف. وتفاجأ رفقة عندما تأتي صباحاً بالغريب يتجول بملابسه الداخلية في ساحة المعلف. شكت، ثم هددت بالانقطاع عن العمل، وأخذ سامي يستمهلها:
- أكثر ما أحتاجكما أنتِ وسمعان هذه الفترة.

وكانت الدامل تتكاثر على جسد أيوب الذي صار مجففاً كمومياء. يشاركها سامي في تمريره عندما يكون موجوداً وتتولى ذلك وحدها عندما يسافر. وبدأت مواليد الماعز تموت. حتى أصيلة مات أولادها الجدد.

ليس لديك الوقت لتحزن. الحب يمحو ما عداه.

تمكن مع فريدة من إنجاز كل شيء بما في ذلك نقل هند وإشراق إلى مدرسة سراب النموذجية للغات. ورغم موت صغار الماعز ومعضلة حمادة، جعلته جولات الشراء يتمسك أكثر بحياته في تل المساخيط. رأى القاهرة وحشاً غاضباً مترامي الأطراف، ومكبلاً بأحبال جهنمية من الكباري.
- لو قضيت عمري كله للفهم، لن أعود أفهم المدينة.

ردّت فريدة:

- لم نعد بحاجة لأن نفهم، خرائط جوجل تعرف حتى الطريق إلى الجحيم.
حددا موعد الزفاف، ولم يبق سوى تردها بشأن ارتداء فستان أبيض:

- أستحي!

لكنه أصر:

- لن تدخلي السرايا إلا عروساً.

تقبلت الفكرة وبدأت تحبها وانهمكت في استعراض فساتين زفاف الأفلام. حتى وقعت على طراز أنيق وبسيط وسهل التنفيذ.

أقاما حفلاً صغيراً للزفاف يوم عيد ميلاده. اقتصر على عشاء في باخرة نيلية أبحرت من جاردن سيتي، حضره من جهة سامي العم لطيف وزوجته، ومن جهة فريدة أبوها وأخوها وابنتاها وبعض صاحباتها مع أزواجهن. تهادت السفينة إلى المعادي، ثم استدارت عائدة. كان الهواء ثقيلاً مشبعاً بالرطوبة، والموسيقى الخفيفة التي اختارها العروسان تتعرض لمداهمات من أغاني المهرجانات من مراكب تتقاطع مع مركبهم.

بعد أن أغلق عليهما باب الشقة أخذ يُفْلِلها باستغراق ويستنشق رائحتها. لمست بسبابتها شفثيه المجتمعين، وقالت:

- هذه الفيونكة اللذيذة يمكن أن تغنيني عن كل شيء.

التصق بها وأمسك بيدها ورفعها إلى فمه. أخذ يقبل رؤوس أصابعها، ثم سحبها إلى السرير. تقوست في حضنه كجنين. أخذت يده تنتزعه على جنبها تتلمس تموجاته، أراحته بلطف:

- لدينا سفر وحفل جديد غداً.

قال: بل اليوم. لقد اقترب الفجر.

توقف عن مداعبتها. وبدأ يقرقران كقطين سعيدين.

تمنت لو شاركتها صديقاتها حفل التل بدلاً من رحلة الباخرة النيلية. صورت لهن مقاطع فيديو للرقصات والموسيقى المميزة لسراب. رغم الحر ووخز البعوض كان كل شيء في حفل الزفاف مدهشاً. ونامت ليلتها الأولى في السرايا سعيدة ومنهكة.

استيقظ سامي قبلها مبتهجاً لأنه اليوم الثاني الذي يشهد فيه الصبح بقربها، وبإحساس بوفرة الوقت، عاد واستلقى فأخذه النوم حتى استيقظاً معاً في الحادية عشرة. كان هذا الأمان حلمهما الكبير.

أخرج لها الجلابية الفلاحية التي طلبتها مزاحاً. ارتدتها، وأخذت تطالع نفسها في المرآة. ثم خرجت لتفاجئ البنتين في غرفتيهما فلم تجدهما، ولم تجد أباهما في غرفته. عادت قلقة. قال سامي:
- إلى أين تتصورين أنهم ذهبوا؟ لا تخافي.

في المعلق، كانت البنتان واقفتين تتابعان يدي أم الغلام المهترئين بينما تجذبان مولوداً من خلف فخذي معزة، بينما تساعدها رفقة. وكان جدهما جالساً على حرف حوض سقاية البهائم بيده كوب شاي. وقفت فريده مأخوذة بمشهد الولادة كالطفلتين. بعد أن خُصت العجوز المولود ومسحت المخاط عن جسده. ربطت سرته وضعته أمام الأم لتكمل تنظيفه. وأخذت تتحسس بطنها، ثم قالت:
- كل هذا الكرش على واحدة يا خايبة!

طلبت من حمادة الواقف بباب غرفته رغيماً ساخناً. تشمته المعزة بحذر تستطلع سخونته ثم بدأت تقضم لقيمات وتلوكها بوهن. بعد دقائق نهض المولود متخبطاً. خطوة مرتعشة وراء خطوة، وأخذت هند وإشراق تسندانه بفرح. رفعت أم الغلام الذيل ودققت تحته وقالت:
- بنت. مباركة خلفه البنات.

للمولودة ملامح الغندور، ككل المواليد الجدد ذكوراً وإناً؛ بسطة الجسم، نعومة الشعر وكثافته، ولمسة من لونه. أحست أم الغلام بالغبطة بسبب فرحة البنتين وأمهما، وقالت:
- ستعيش، بسبب حُسن قدمكم.

قالت فريده:

- ربما يكون الموت سببه عدوى فيروسية في الأمهات؟

قال سامي:

- خبيرة ماعز يا ريديا؟

- عرفت ذلك في إمبابة. لنجرب ألا نرضعها من الأم.

وطلبت ببيرونة نظيفة وحليياً من السوبر ماركت. حملت الوليدة معها إلى السرايا، لتكون بالقرب منها. قالت أم الغلام ضاحكة:

- امنع فريده كما منعتني يا فالح!

وضعت العروس وابنتها كل شغفهن في إرضاع المولودة، التي صارت تتجول بين غرف الطابق الثاني. لها نظرة أبيها الساخرة الشاردة، حتى مشية الكبرياء التي كان يمشيها، وبدت هذه العظمة مضحكة من طفلة. تخطت أمد موت المواليد الجدد بأسبوع واحد، ثم وجدتها فريده في الصباح الباكر هامة في الحَمَام. أخرج سامي منشفة قديمة لَقَّها فيها، وتسلى بها قبل أن تستيقظ البنتان. تخير لها مكاناً ودفنها بنفسه، وأهل فوقها التراب، ثم دَغَّه بقدميه، بأسى وحيرة، وحزن لم يبلغ مستوى حزنه عندما دفن أول حمل.

هذه نعمة ونقمة الاعتياد!

عائداً من دفن الصغيرة، رأى سيارة سوداء فخمة بستائر نبيذية، تتوقف أمام السرايا. نزل منها شاب ربعة يبدو في مثل عمره، أنيق الملابس، يفوح منه عطر قوي، ثم ترجل كهل في ملابس متواضعة يحمل حقيبة مدورة بحجم راحتي اليد. وجاء مصطفى ناجي فوق حماره الهزيل. خرجت أم الغلام ووقفت مع سامي تستطلع الأمر. ربط مصطفى الحمار داخل بستانه، وفتح الكهل سَحَابَ عليته واستل شريط قياس، قاس عرض المدق وحدد نقطة المنتصف، أخذ مصطفى يحفر فوقها بفأسه؛ فتهتز إلياته وتدياه. بعد أن صنع حفرة دائرية صغيرة، دق قضيباً من حديد.

سألت أم الغلام:

- ماذا تفعلون؟

رد الشاب المُعَطَّر:

- سأشتري ثلث فدان مقابلكم يا حاجة.

- يا أهلاً وسهلاً.

شرع المسَّاح في عملية القياس، وأشارت أم الغلام لسامي، وانسحبا عائدين إلى السرايا. بدت مغتبطة، وقالت:

- أحسن! الجار الجديد شكله غني، كلها سنة، سنتان ويبيعون له كلهم ويريحنا من خِلقتهم.

عندما عادت البنتان من المدرسة، بحثتا عن المولودة، فلم تعثرا عليها. سألت هند:

- أين البيبي؟

قال سامي:

- ذهبت إلى المدرسة.

- مدرسة؟ هل ترى أن الموقف يحتمل الهزار؟!

تركته وصعدت إلى غرفتها، همس لفريدة:

- اعتقدت أن مجرد وجودكم معي سيوقف ضربات الموت، تخيلت أننا لن نرى سوى الولادات.

- لولا الموت ما كانت الولادة.

- لا يكاد المواليد يتذوقون الحياة. أشعر بالعجز، ولا بد أنهم يرونني إلهاً.

- هذا ما تعتقده أنت. ربما يرونك مسخاً لأنك تمشي على قدمين.

- لم أفكر بهذا!

- عشتَ أفدح الموت يا سامي، يجب أن تكون اعتدته.

- إلى حد ما، لكن التكرار لا يجعل غير العادي عادياً.

أمسكت بيده فلمست كل شوقه للفرح. توهجت ابتسامته، بينما يتأمل وجهها، لم يزل الوجه الذي

فتنه وسمّره في مكانه لحظة مصافحتها الأولى في عزاء والد البننتين. بعد الغداء قال فهمي:

- لنفتتح السينما اليوم.

عاونه سامي في نقل الصندوق الذي يحتوي ولع المدير العام السابق لمؤسسة السينما من غرفته

إلى المكتبة. أخرج شاشة كبيرة، علقها على الجدار، وماكينة عرض، ووضع علب DVD الأفلام

على رف بالمكتبة.

في المساء جاء صلاح. كانوا يجلسون في الفرندا في ضوء المجرمة المشتعلة. أخذ سامي يبحث

في ملامحه عما يجمعه بصبري يعقوب، وانتبه إلى أن الشفافية التي ورثها من أبيه وتجعل من

وجهه مرآة لمشاعره يتمتع بها صلاح القط عندما يجلس صامتاً، مثلما يجلس الآن. قالت أم الغلام:

- العجل الكبير باع حنة قدامنا.

أجابها صلاح:

- نعم. للأسف!

قال سامي:

- أليس الأفضل أن يكون لنا جار آخر يا عمي؟!

- أمين عسكر أوسخ جار.

قالت أم الغلام:

- آاه! تذكرته. هو الشخص الذي يُحرّضهم ضدنا؟!!

- كان في فصل المرحوم محمود في المدرسة حتى الإعدادية.

قال سامي:

- سمعتهم ينادونه «دكتور».

- معه دبلوم تمريض. وثروته من نبش الجبل وبيع الآثار.

قال فهمي:

- ما رأيكم، نشاهد فيلمًا؟

حملوا أم الغلام على الموافقة. وصعدوا إلى الطابق الثاني. أخذ صلاح يتأمل المكان في كل خطوة، حتى صار في المكتبة، وقف يتأملها، وقال:

- تخيلوا، عمري كله هنا، وكل علاقتي بالسرايا الفرندا!

اختار فهمي فيلم «غزل البنات» الذي توقع أن يناسب أم الغلام وصلاح. لم تتوقف أم الغلام عن إبداء الملاحظات حول الملابس والأثاث والثريات وحركة السيارات، والاستفسار عما لا تسمعه جيدًا. قبل أن يناما، قال سامي لفريده:

- أنا مفاجأ بقدرة أنكل المذهلة على التناغم مع أي وسط.

- أكثر من اللازم حقيقة.

- ألسنت سعيدة بأنه تقبل عالمًا جديدًا عليه؟

- سعيدة، لكنه تخلى في المقابل عن أناقته. أنت لم تترّ أناقة هذا الرجل، الآن ينام ويقوم في الجلباب، غير مبال بتكسره أو علامات الوسخ عليه.

- وجد حرّيته.

- تفسيرك أعجبنى، وأرجو ألا يكون مجرد انحياز لفهمي طنطاوي. ويوم المُنَى أن أراك تنظر إلى الجانب المشرق في كل شيء.

في الصباح، فاتحت أباها:

- ماذا حدث يا أبي؟ لم تتخل عن أناقتك لحظة قبل أن تأتي إلى تل المساخيط!

- ولماذا أتأق هنا؟

- لماذا كنت تتأق من قبل؟

- من أجل أمك.

- عمري كله معك من دون أمي. وكنت أنيقًا دائمًا.
- لأنها أجمل امرأة في الدنيا، فعلت كل ما يتوجّب عليّ فعله لأحتفظ بها. وعندما ماتت كنت قد اعتدت الأناقة.

- يا بابا، حافظت على أناقتك حتى في مرضك الأخير.
- كانت هذه طريقتي لكي أقول لك ولأخويك إنني بخير.
ثم ضحك وقال:

- أردت أن أنتظر عزرائيل مهنديًا. لا بد أنه يترفق عندما نلقاه في هيئة حسنة.
- إذن حافظ على هندامك، لا أحد يعرف موعد الزيارة.
- لا تقلقي، لم يزل لدينا متسع من الوقت نمكثه معًا.

كان في المقابل يتحرك بحيوية طوال النهار. يوصل حفيدتيه إلى المدرسة، وعندما يعود يلزم أم الغلام ويسألها عن كل ما لا يعرفه عن الحيوانات. منح شتلات الورد في الحديقة الصغيرة أمام السرايا اهتمامًا بالغًا. انتعشت الورد، واستعادت صفائر الجهنمية على عمودي الشرفة الأمامية حيويتها بكثرة الري.

وبينما بدأت فريدة تكتشف فيه أبا جديدًا غير ذلك المهموم قبل تقاعده، حررها اهتمامه واهتمام سامي بهند وإشراق، وانطلاقة البننتين في البستان والمعلف من إحساس القلق الذي لازمها عندما كانت المسؤولة الوحيدة عنهما. وأخذت تستمتع بدبيب حياة جديدة بدأت في بطنها. وبينما تجلس في الليل مع سامي، يقرآن في السرير. وضعت كتابها، وقالت:

- فيك من يكتم السر؟

- في بئر!

- الدورة لم تأتني هذا الشهر.

- واو! دقدق في الطريق!

ترك كتابه وعانقها، وأخذت شفثاه تتخبطان في كل مكان من وجهها، كما يفعل سمعان معه. وفي الصباح استيقظ بذهن صاف، ليس فيه سوى دقدق والعناية بأم دقدق. طلبه سعيد عبد الخالق من المحكمة يخبره بما حدث في دعوى الحجر على أم الغلام. رد عليه بلا تركيز. كان واقفًا يتابع بقلق حركة فريدة بين العجول التي تتبادل النطح والقفز فوق بعضها البعض في ساحة المعلف. كانت تبث تصويرًا حيًا، تخاطب فيه صديقاتها على الجروب. وبمجرد أن أغلق سامي الخط، لم يتذكر سوى أن القضية تأجلت.

دخل سمعان من الباب الرئيسي للمعلف يدفع براويطة تراب وترك الباب مفتوحًا. انطلق أحد العجول مثل هبوب الريح، واختفى في بستان أولاد ناجي. جرى سامي وراءه، وجرت رفقة، ووقف سمعان بباب المعلف يضحك، وعندما رأى رفقة تبتعد انطلق يجري خلفها. وجدت فريدة نفسها بين الحيوانات الصاخبة، دفعتها إلى داخل العنبر المسقوف وأغلقت عليها الباب. عاد سامي وسمعان ورفقة بعد أكثر من ساعة منهكين.

قالت رفقة:

- فص ملح وذاب. لم نعثر له على أثر.

قالت أم الغلام:

- اربطوا العجول قبل أن يسريها سمعان واحدًا واحدًا.

قالت رفقة:

- من شهرين أقول كبروا نربطهم. فائدة العلف تضيع في الجري والتنطيط، لكن سامي حنين، رفض.

رمقتها فريدة دون أن تقول شيئًا. فأعدت عبارتها:

- والإنجيل، قلت نربطهم الأستاذ سامي رفض.

قبل أذان المغرب نبّه مكبر الصوت بالمسجد إلى أن حدهم أمسك بعجل شارذ ويحتفظ به لتسليمه لأصحابه، فعَمَّ الارتياح. لكن اخوته العجول لم يكونوا سعداء بالأغلال التي أخضعوا لها. تركوا طبقة العلف الشهى على سطح التين دون أن يمسوها. لم تُصدّق فريدة المشهد، وأخذت توثّق ثورة العجول، وتخير الزوايا التي تظهر فيها طوالة الطعام أمام الحيوانات التي تعالج أحبالها بغضب، حتى أدمت الأرسن الحديدية رؤوسها. بعض العجول كف عن المقاومة بعد ساعة، ساعتين، بعضها ثلاثًا، بعضها صمد حتى دخل الليل. تذكّر سامي القضية، طلب سعيد عبد الخالق ليسمع منه المطلوب للجلسة القادمة. قال المحامي:

- كما أخبرتك. تأجلت شهرًا لسماع الشهود حسب طلبي، وتوقيع الكشف الطبي على أم الغلام في

مستشفى حكومي للتحقق من قواها العقلية.

- لا أعرف كيف أطلب منها ذلك!

- قل لها إنه كشف عادي. أو أقول لك؟ جهّز الشهود، ويمكن للمحكمة أن تستغني عن هذا

الطلب، إذا حضرت أم الغلام الجلسة القادمة وناقشتها، وإن لم تقتنع سنطلب التأجيل لتوقيع الكشف.

قبل أن تطلع الشمس، ثارت جلبة. فتح سامي الشباك فرأى جرارًا يحمل في مقطورته نحو

عشرين رجلاً، توقف على المدق، وقفز الرجال من المقطورة وأنزلوا منها البُلط والمناشير والنفوس والكواريك. بعضهم شرعوا يقطعون أشجار القطعة التي اشتراها أمين عسكر والبعض أخذ يحفر محيطها. بعد أن طلعت الشمس تقاطرت تريلات تفيض عجالاتها عن عرض المدق، وبينما تنعطف لتضع أحمالها من الرمل والزلط والطوب في أرض أمين سحقت أطراف حديقة الورد.

خرجت أم الغلام تعالين وتزعق في السائقين والعمال، الذين لا يردون. طلبت من سامي:

- اطلب عمك صلاح.

جاء على عجل، لكنهم وقفوا ينتظرون أمين الذي لم يأت سوى قرب الظهر. سألته:

- ماذا تفعل هنا؟

- سأبني سورًا يا حاجة.

- سور؟ عمرنا شفنا أرضًا تتحوّط كلها بسور؟

- ماذا يمنع؟ ابنوا سورًا على أرضكم.

قال صلاح:

- السيارات أتلفت الورد، لماذا لم تترك مساحة لاستخدامك يا أمين.

- هذا مجرد بناء خفيف سأهدمه فيما بعد.

- ولماذا تقيمه إذا كنت ستهدمه؟

- مجرد اختبار، لأرى إن كانت الحكومة ستنتبه للبناء.

- أنت يهملك رأي الحكومة مثلنا يا أمين؟!!

- أنت شايف على رأسي ريثة؟

- وهذا الزرع الذي مات؟

- أنا على استعداد لإحضار شتلات بديلة. تحمّلوني هذه الأيام.

- يا ابني هذا الجور غير مقبول. دون أن تترك مسافة لعرباتك ستظل تدهس أرضنا.

التفت أمين جهة أرضه ونادى:

- الشاي يا أحمد.

خفَّ عامل إلى جهة النار المشتعلة في حفرة بالقرب من الطريق. رفع كنكة شاي كبيرة من جانب النار وحمل معها عمودًا من الأكواب المتداخلة. أصرَّ أمين على صلاح الذي تركه وانصرف مع أم الغلام. استمات أمين في الإلحاح على سامي حتى أمسك بكوب الشاي. وقال:

- نحن متعلمان يفهم أحدهما الآخر. لا تؤاخذني، الجماعة عقلهم على قدهم. أريد أن أبني فيلا بحمام سباحة لي ولبناتي وزوجتي، ولا بد من سور عال يخفيهم عن المتطفلين. صدقتي عندما تكون فيلتي مقابل السرايا سترفع من قيمة الأرض هنا، بعد ذلك بوسعك أن تقيم سورًا وتبني كومباوند يدر عليك مئات الملايين، بدلًا من هذه الأشجار العقيم.

قال سامي:

- لكنني لن أفعل هذا أبدًا.

- الزراعة لا تأتي بهما.

بدا سامي ناسيًا اسمه فذكره:

- أمين، أخوك الدكتور أمين.

قال سامي:

- عمي يكلمك يا دكتور أمين عن المسافة التي لم تتركها منافع لمبناك. انظر ماذا فعلت العربات بالورد.

- قلت لك سيتغير كل شيء. ولعلمك، مصطفى ناجي قال لي أن كل الطريق من أرضهم.

- من أرضهم كيف؟ ألم تقيسوا من المنتصف!؟

- قال لي أن هذا المدق لم يكن موجودًا عندما باع جدك للأخوين ناجي وصابر القطعتين، وأن ناجي هو الذي تطوع وجعل المدق من أرضه.

- جدي منح الأرض هبة ولم يبيعها.

- أيًا كان يا باشا، هم يقولون ذلك.

- هذا كلام غريب، سأسأل أم الغلام.

خفّض أمين صوته، وقال:

- لو لم أشتري من مصطفى كان سيبيع لشخص آخر، ويمكن لأخوته أن يبدأوا بيعًا بالقيراط وبالنصف لغلبة مثلهم بينون مساكن عشوائية، وتجد نفسك وسط قرية ككل القرى القبيحة الأخرى في ضواحي تل المساحيط كالتبة وغيرها.

اقترب أكثر من سامي، وبصوت أكثر خفوتًا:

- بيني وبينك، كلهم محتاجون وسيبيعون لي تباعًا. الثلاثة يريدون أن يزوجوا أولادهم ويشتروا

لهم تكاتك وميكروباصات يعملون عليها. لن يبقى إلا أنا وأنت. يمكن في المستقبل أن بيني كل منا كمباوند راق. يكون مدخله من البداية، عند بيوتهم. دون حاجة إلى هذا المدق أصلًا.

قال سامي:

- لا أظن أنني يمكن أن أقطع شجرة.
- أحترم حبك للشجر. بوسعك أن تحتفظ بأشجار المانجو بين فيلات الكمبوند، وستكون سمة تميزه. امتلك فيلتك في بستان مانجو. واو!
- دعنا نتكلم فيما تبني اليوم.
- اليوم سور. وحتى لا تقول ضحك عليّ سأبني بعد ذلك مزرعة دواجن، وكل هذا بسبب صعوبة التصريح ببناء فيلا. لكن في النهاية سترى أمامك نموذجًا عصريًا لبيت جميل متناغم مع السرايا، أحب التناغم جدًّا، وأحب أن نصير أصدقاء.

بينما يتحدث أفل المهندسان اللذان ينسى سامي اسميهما، رحّب بهما أمين، وناى عامل الشاي. وجاهها سامي فرصة لينصرف، لكنه استوقفه. ثم وجه كلامه للزائرين:

- أعلنتم الطوارئ في الإدارة؟
- قال القصير ذو الزبيبتين:
- لم؟
- من أجل زيارة الوزير.
- قال الطويل ذو الزبيبة الواحدة:
- لم نعلم عن ذلك.
- الخبر جديد. لا بد أنهم سيبلغونكم بعد يوم أو يومين. كنت في اجتماع أمس مع المحافظ، وتلقى اتصالًا من الوزير أمامي. كان يرتب معه الزيارة.
- تبادل الطويل والقصير النظرات. وهمس لهما أمين:
- ربما يخبرونكم وربما لا، لأنه سيصحب معه لجنة تفتيش كبيرة.
- قال القصير:
- متى ستكون الزيارة؟
- لا أتذكر التاريخ، لكن يبدو قريبًا.
- قال المهندس الطويل:
- ماذا تبني يا دكتور؟
- ماذا برأيك يا باشمهندس؟ مزرعة دواجن.
- طيب، كنت فقط ألقيت بطلب ترخيص يا دكتور أمين، لن تخسر شيئًا.

- اشرب الشاي يا باشمهندس.

ارتشف كل منهما رشفة وأعادا الكوبين للعامل. وبينما ينصرفان، قال القصير ذو الزبيبتين بلهجة مستجدية:

- بعد إذنك يا دكتور، سنكتب محضراً بمخالفة، وكما تعرف سنحتفظ به.

- طبعاً، لا مشكلة. أمّن نفسك، ولا تفلق. إذا تعرّضت لأي مشكلة بسببي أو بسبب أي أحد آخر أنا في ظهرك.

انصرف الرجلان. وغمز أمين لسامي بابتسامة ساخرة في ظهرهما. استدار يوجه العمّال.

في نهاية النهار كانت الجدران قد ارتفعت إلى مستوى الخاصرة بين يدي عشرة بنائين يمسك كل منهم بمسافة من البناء، ميّز سامي من بينهم بركات وفريقه. وبات ما تبقى من أشجار حبيساً ليلية واحدة، حيث ارتفعت ضجة المناشير في الصباح التالي وأتت على البقية. وصارت الأشجار ثلاثة أكوام من الأخشاب المقطعة. حملتها عربات النقل، وما تبقى من الأوراق والغصون الرفيعة ألقيت في الأرض المجاورة. تواصل البناء بتقسيمات داخلية، رآها سامي من الشرفة. ذهب إلى أمين يعاتبه:

- ليس مجرد سور، كما قلت في البداية.

- لقد سمعتني أقول للمهندسين في وجودك إنها مزرعة دواجن.

- دواجن تحت أنف جيرانك؟

- هذه فترة مؤقتة.

- القانون يمنع إقامة مثل هذه المشروعات إلا على بعد كيلو متر من كردون السكن.

انفعل أمين عسكراً:

- من لفتك هذا الكلام يا جدع؟ كامل كأس؟

- جدع؟ كامل كأس؟

- صديق سهراتك.

- وما دخل كامل بدوي؟

- أكيد وجد فرصته ليستعرض عليك معرفته الضئيلة بالقانون. عندما يكون بيتك في كردون

مباني تراعيه المعالف والمفارخ. لكن هذه المنطقة خارج الحيّز العمراني يعني مزرعتي في مكانها

الطبيعي، بيتك هو المخالف.

- بيتي الموجود هنا منذ الأزل هو المخالف؟

- صديقي أرجوك. أنت وسط منطقة زراعية، والإنتاج أولى، وعليك أن تتقبل هذا.
- أتقبل ألا أرتاح في بيتي.
- المحتاج للاستجمام يروح شرم الشيخ، ولا يأتي إلى تل المساخيط!

بدا القمر من شباك الغرفة بدرًا كاملاً، يسبح ببطء في صفحة سماء صافية. الجو بارد والهواء منعش بما لا يبرر ثقل التنفس الذي يحسه سامي في استلقائه الصامت. منذ قدوم هذا الجار، لا يفارقه الغضب. ينسأه أحياناً، يسيطر عليه أحياناً، لكنه خرج عن سيطرته في تلك الليلة. أحست به فريدة، قالت:

- لدينا مفاجأة، احزر؟

تنهّد، ولم يُجب.

- صاحباتي سيزرننا يوم الجمعة.

- مرحباً.

مرّ يوم الزيارة لطيفاً، بالضحكات وطبخ الطواجن المتبلّة بأغصان ليمون، والشواء في أوراق الموز من شجرة وحيدة بطرف البستان غير مثمرة، ورقص الزائرات على الموسيقى النوبية مع حمادة رغماً عنه، وإشارات الإعجاب بجمال رفقة، والحسد لنعمة. وانتهى اليوم بنصيحة من منى لفريدة بالألا تدع نعمة تقترب من سامي. همست في أذنها:

- هذه اللبوة هي الإصدار الأبيض من مريدا. وزوجك نِمس. رغم حياء العذارى في نظرة عينيه، إلا أن لهما انقضاضات مفاجئة تُعري الواحدة منا. لا تزعلي مني.

رغم يقينه بأن الهمس كان بشأنه، حرص سامي على إبداء عدم الاكتراث. وقبل أن يخلدا للنوم تطوعت فريدة ونقلت إليه ما قالته صديقته. قال:

- كلام غريب، وفي هذه الظروف.

- لا تستعطفني. أعرف أنك مهموم، لكن عينيك ليستا منك.

- خلقة ربنا. ماذا تقترحين عليّ.

- لا تفعل شيئاً. حبيبي لي وأنا له.

لا يمكن إقامة الحفلات كل يوم، لصرف انتباه سامي عن المبنى القبيح أمامه، خصوصاً في الليل عندما يحس من مكانه دهس عربات النقل للورد أمام السرايا. ثم ضجة عمال التفريغ والتحميل ونداءاتهم. ولم تكن أم الغلام أقل ضيقاً. تعاین الأثر صباحاً. فتقف تسب وتلعن. يمضي من أمامها العمال دون أن يلتفتوا. وكثيراً ما يكون أمين بالداخل، لا يخرج أو يرد. أخيراً قال صلاح:

- يجب أن نقيم سوراً، بموازة مبنى الوضيع هذا.

هاتف بركات دون انتظار رأي سامي أو أم الغلام. وطلب منه تقديرًا لما يحتاجه من مواد البناء. واتفق معه على موعد العمل. مع أول ضربة فأس لحفر الأساس، وصل مهندسا الحماية والزراعة، وفي عقبيهما وصل بوكس من قسم الشرطة. ترجل ضابط من الكابينة، وقفز أربعة أمماء وجنود من الصندوق بالبنادق.

سأل أحد المهندسين سامي عن الترخيص.

- ترخيص لسور؟

قال الضابط:

- ما الغريب في هذا؟ أية إنشاءات في أرض زراعية تستلزم ترخيصًا.

قال صلاح، مشيرًا إلى مزرعة الدواجن:

- وهذا المبنى؟

اقترب المهندس من أذنه ووشوشه:

- لا تجلب لنا ولكم المشاكل، معلكم أيضًا غير مرخص.

قال الضابط مشيرًا إلى رصّة الطوب والإسمنت وكومة الرمل:

- ارفعوا هذه الإشغالات، إلى أن تحصلوا على ترخيص.

وقال المهندس:

- لو تقدمتم بطلب ترخيص يا حاج صلاح، كان سيأخذ دورته ونخبركم بالموافقة ويصبح كل

شيء قانونيًا.

قال صلاح:

- ومنتظر الموافقة إلى يوم القيامة؟!!

بعد العصر جاء طارق المنزل لوي. قال:

- قلت أسلم فقط. أنا قادم لدواجن الدكتور أمين.

- تعرفه؟

- صديقي. أظنه هنا الآن، تعال لأعرفك عليه.

- طبعًا هنا، ألم ترَ سيارته التي تسد المدق؟!!

- نعم، فعلاً نسيت. تعال يا صديقي، هذا رجل سُكّرة، أنا واثق أنكما ستكونان صديقين.

- لا أظن.

- أنت زعلان أنه لم يترك مساحة لالتفاف سيارته؟ معك حق، للأسف كل واحد له تفكيره.

- تفكيره هذاه لأن يستخدم أرض الآخرين عنوة؟

- حاجة بسيطة يا سامي، هذا المتر ليس من الجنة؟

- لماذا لم تقل هذا لصديقك ليوسّع على نفسه؟

هتف طارق منادياً على أمين الذي خرج مرحباً، ولم يترك لسامي فرصة للتردد. جذبه من يده وخفّ أمين فصافحه ولم يُفلت يده. حاول سامي أن يتملص:

- تبني هذه البشاعة، وتبلغ عن سور؟

- أنا أبلغ ضد جيراني؟ لماذا تظن هذا؟ لماذا لا يكون أولاد ناجي مثلاً؟ ثم إن الحكومة تسمع دبة النملة. تعال، تعال لأشرح لك.

وضع ذراعه في ذراع سامي، وقال بينما يشدّه:

- مالك يا صديقي؟ ادخل لتتكلم.

عبرا البوابة، وخلفهما طارق. أرض الممر مكسوة بريش ودُّراق دواجن جاف برائحة ثقيلة، انتهوا إلى باب، ووجد سامي نفسه داخل مكتب أنيق، يسيطر فيه خليط من عطر أمين الثقيل مع روائح فواححات ثلاث في طاقات بالجدران وسط مجموعة كبيرة من الأوشابتي. لاحظ أمين تعلق سامي بالتمائيل. قال:

- هي التي أعطت تل المساخيط اسمها.

- تمائيل حقيقية؟

ضحك وقال:

- تريد أن تشتري؟

ضرب جرساً؛ فدخل عامل، أمره بإعداد قهوة. وأخذ يتبادل مع طارق الحديث حول أسعار الأعلاف وشح الأدوية، وحكايات عن أشخاص وإشارات مبتورة إلى وقائع يعرفانها. أخذ سامي يتأمل المكتب. انتبه إلى بندقية قصيرة عتيقة الطراز، رأى مثلها في أفلام الحرب العالمية الأولى، بادره أمين:

- هذه مجرد زينة. الأسلحة الحقيقية تحتك يا سامي باشا.

- تحتني؟

- نعم، تريد أن ترى؟ هذه الكنبة سخّارة. لا يمكن أن تقيم مشروعاً دون أن تؤمن نفسك.

- لكننا لا نملك سلاحاً ولم يحدث شيء.

- إحمد ربك أنها مرت بسلام، والآن سلاحي سلاحك.

- أكملت عامًا بكل خير قبل وجودك؟

ضحك طارق وقال:

- ألم أقل لك يا دكتور أن سامي نقي كالأطفال؟ وبصراحة، أنتما صديقاى وأريد أن أصفي الجو بينكما.

قال أمين:

- سامي باشا لا يريد أن يتحملني فترة قصيرة. يا سيدي. يؤجر لي الشريط الذي أتلفته السيارات. انتصب سامي واقفًا، وقام أمين ليستبقيه.
- أنت زعلت؟

تخلص من يده وعالج مقبض الباب وخرج. وجد الأسرة في الفرندا ملتفة حول عصفور صغير سقط من تعريشة العنب. كان يزحف على البلاط لاهثًا. صاحت هند:

- ببغاء يا سامي!

قال سامي:

- هذا وروار، الطائر الذي علّم الإنسان الموسيقى.
ردت أم الغلام:

- أكل النحل. داهية تأخذه.

قال سامي:

- ويأكل الدبور أيضًا يا جدة. كل المخلوقات تضر وتفيد. لكنه عصفور جميل. انظري!
لم ترفع رأسها وقالت:
- حلو يا خواجه، عارفة.

كانت الكلاب مقعية على البلاط تتأمل. قفزت فجأة وجرت نابحة نحو واجهة البيت. صاح عليها سامي فتوقفت بعد أن حاصرت عاملاً يحمل ثلاثًا من كراتين البيض، وقف مذعورًا. وعندما كفت عنه الكلاب تمالك نفسه وقال:

- الدكتور أمين أرسلني لحضرتك.

زعقت أم الغلام بغضب:

- ارجع.

أخذ فهمي بتهدئتها:

- يا أمي أنت تعرفين الأصول، لا تردي الهدية.

- هدية من كلب مسعور؟

- الرجل مد يده بالخير. ولا شيء بلا حل.

سكتت أم الغلام وتناولت فريدة البيض من الشاب. وتناول سامي العصفور الجريح من هند. أراها الساق المكسورة تتأرجح، واختبر الجناحين فعثر على كسر بأحدهما. اتصل بحمادة وطلب منه إحضار برطمان المضاد الحيوي. صنع جبيرتين للجناح والساق، من أعواد الكبريت. وأحضرت فريدة حليباً وسقت العصفور بمحقن. ثم بحثت بعد ذلك على الإنترنت عن كيفية العناية بطائر وروار جريح. اكتشفت أنه ليس بحاجة إلى الحليب بل الماء واللحم المفروم، مع معالجة الجرح، ووضعه في مكان قليل الإضاءة ليهدأ.

أخذت هند المهمة على عاتقها. هيأت له فراشاً تحت سريرها، وأخذت تهتم بسقايته وإطعامه ثلاث وجبات يومياً، وتضع المرهم على جرحه الذي شفي، ولم يلبث أن غطاه الزغب، فلم تعد تتبين مكان الكسر، وعندما بدأ يقف على قدميه ويحاول ضم جناحه المصلوب على الجبيرة. قال فهمي:

- لقد شفي تماماً، سنرفع عنه الجبيرتين ونتركه يطير.

قالت هند:

- أريده أن يبقى معي يا جدي. نشترى له قفصاً.

- نحن نحبك أكثر مما تحبب العصفور، ولم نحاول أن نحبسك، فلماذا تحببينه؟

- أنا لا أظير، لكنه سيظير، ولن يعود.

- وربما يعود. ووقتها ستفرحين لأنه عاد إليك باختياره.

أطلق العصفور، وظلت عينا هند معلقتين به تتابع رفرفة جناحية مبتعداً، حتى صار نقطة صغيرة لم تلبث أن اختفت؛ فبكت.

بعد دقائق ظهر خيط ملون في الأفق، وأخذ يقترب. تبين أنه سرب وروار يرتفع وينخفض في تقدمه دون أن يختل نظامه، ثم حط على شجرة الجوافة أمام الفرندا. أخذ يُغرد لثوانٍ ثم هبَّ في استعراض طيران جديد وعاد إلى الشجرة، ثم طار من جديد. عدت هند خمس مرات من الذهاب والإياب لسرب الوروار، قبل أن يُحلّق مرة أخيرة ويبتعد. تخلف عصفور وحيد. غرّد ورقص، ولوّح لها برفرفة جناحيه، ثم طار في إثر جماعته. لكنه عاد في اليوم التالي. وظل يأتي يومياً ليوذعها قبل أن تذهب إلى المدرسة، ويستقبلها عندما تعود.

قال لها جدها:

- هذا سر، لا تحكيه لأحد.

أمطرت مرتين في اليوم. وظهر قوس قزح قبل الغروب رابطاً بين السماء والأرض. وكان الهواء منعشاً محملاً بروائح أوراق النعناع والليمون والبرتقال التي هيّجها المطر، فغطت على روائح بول وعرق الجمال بساحة المعلف. صوت الغناء يحرض على الرقص.

هووي دوو اديين دووي

ارميه تلا جي

كان حمادة جالساً يلف سيجارة أمام قصعة النار، لم ينتبه إلى دخول سامي وفريدة ورفقة إلا بعد أن صاروا على رأسه. كانت الجمال الثلاثة السليمة قائمة تلوب حانقة من قيودها وتضرب ظهرها بذبولها، وبدا أيوب من بين سيقانها مستلقياً على جنبه بلا حركة، يغطيه الذباب. بطنه منتفخ كبالون صغير ورقبته ممدودة على الأرض. جرى سامي نحوه، هزّه. بالكاد ارتفع رأسه ثم تهاوى.

قالت رفقة:

- لنُقعده، نومة البطن هذه مميتة للجمال.

وهتفت بحمادة ليساعد، جاء متضرراً:

- هو خلاص انتهى.

قالت رفقة:

- إلهي ينهي عمرك أنت.

تعاون الأربعة في إقاعده. ضربت بكفها على بطنه، فكان لها رنين كالطبل. قالت:

- زجاجة مياه غازية.

هرولت فريدة إلى السرايا وعادت بزجاجة من الحجم العائلي، فتحتها وقدمتها لرفقة التي وضعتها بين شدقي الجمل. أخذ السائل يجري إلى بلعومه، بلا مقاومة منه أو استحسان. بعد قليل أخذ يتكرع ويضرب. وشرع يُحرك رأسه يميناً ويساراً فأدركوا أنه تخطى الخطر. أخرجت فريدة هاتفها وأخذت تُصوّر الجمال الثلاثة التي أطلقت من أفواهها بالونات قرمزية جميلة وكريهة الرائحة. سألت عن سر البالونات، ضحكت رفقة، ثم نظرت إلى حمادة وقالت:

- ستظل واقفاً هكذا، لا شغلة ولا مشغلة، اخرج ساعد سمعان.

اقتربت فريدة بالتليفون أكثر، فبدأت الجمال تُطلق هسيساً، وأطلقت بولها بينما تُرَقِّص أحاليها المخروطية ككعوب البنادق؛ فبلغ نثار البول وجهها وملابسها. ضحكت رفقة، وسألتها فريدة:

- لماذا يفعلون ذلك؟

- أستحي أن أقول. ابتعدي من باب الاحتياط!

أحست فريدة شيئاً من الإهانة لم تستطيع أن تفهمه أو تعاتب عليه. انسحبت إلى عشة الدجاج تجمع البيض. وذهبت رفقة إلى غرفة العلف أخرجت دهانات أيوب، وبدأت مع سامي مهمتهما اليومية. أخذ أيوب يبكي ويحاول إثناءهما عن تنظيف الجروح بعينين ضارعتين، ثم اشتدت مقاومته فأخذ يزيحهما عنه برأسه. دفع رفقة جهة سامي الذي احتضنها ليمنعها من الوقوع فأخذت تضحك. رأت فريدة المشهد، خرجت متجهمة، وأشارت إلى سامي ليتبعها إلى السرايا. ما أن أغلقت خلفهما الباب قالت:

- هذه آخر مرة تساعدك فيها رفقة، اختر بيني وبين حمادة وسمعان.

أدرك أن غضبها ليس على هذا الموقف تحديداً، لكنها متوترة من الرابطة التي تجمعها برفقة بسبب اشتراكهما في ملاحقة الطفح الجديد مرتين في اليوم، بالألفة التي تجمع طبيباً وممرضة يسهران على راحة مريض. وتحقق ما أرادته فريدة. كانت بالفعل المرة الأخيرة التي تقف فيها رفقة مع سامي لتنظيف جروح أيوب، لكن أحدًا آخر لم يحل مكانها؛ فقد عاش الجمل المُبتلى أقل من أربع وعشرين ساعة. مات عند ظهيرة اليوم التالي. وبدا على الأرض مثل بالون أفرغ منه الهواء. أخذت الجمال الثلاثة تنظر إلى أخيها بعيون شاردة. وتقدم سمعان من سامي، احتضنه:

- لب امنحك سلوان محلمي.

قال سامي:

- لله الأمر يا سمعان.

لم يكن سحب جثة جمل ومواراتها التراب في سهولة دفن نعجة، مهما كان هزيلًا. واصل حمادة وسمعان الحفر لساعات في مكان واسع خال من الأشجار. وبينما يهيلون التراب على جسد أيوب، أخذ سامي يفكر بالوقت الذي ستزحف فيه الحشائش على هذا القبر الكبير وتخفيه. وأخذ يستطلع البستان من حوله، يحاول أن يختبر قدرته على تخمين المواضع التي دفن فيها الحيوانات السابقة، حيث كانت الحشائش الطازجة تنبت فوق القبر خلال أيام قليلة، وتجذب أخوة الميت فيتوجهون إليها، يأكلون في سعادة ساذجة.

في طريق عودتهم من الدفن سحبت أم الغلام سامي، ومضت به إلى الدغل الكثيف، كانت شمس الغروب تكافح لتخترق ظلمته. وقفت في الجهة المعاكسة للشمس وقالت:

- هنا ستدفنني.

- أهذا وقته يا جدتي؟! -

- لا أحد يعرف متى يخرج السر.

أخذ يتأمل المكان برهبة، وقال:

- من اليوم الأول، منعني من الوقوف هنا، هل تذكرين؟

- لم أمنعك وحدك. منذ مقتل سالم، لم تدب قدم في هذه البقعة غير قدمي.

- تصورت أن تترك لحظتها كان خوفًا عليّ من ثعابين مخفية تحتها.

أشارت إلى الشجرة الكبيرة وسط الدغل:

- هذه العجوز. شربت دم سالم. لم تُقلم ولم تُقطف منها ثمرة.

ثم أشارت إلى الأرض، وقالت:

- اجعل رأسي هكذا، جهة القبلة.

- ستعيشين حتى زفاف سالم الصغير.

- يوه يا سامي. لن أبقى حتى أشخ على نفسي.

خيّمت سحابة حزن على السرايا، دون أن يذكر أحدهم اسم أيوب. في المساء دخلت أم الغلام مبكرًا، وصعد العم فهمي مع فريدة والبنتين. وجلس سامي في الفرندا صامتًا يستعيد رحلته في علاج قروح أيوب، نظرات استغاثته من الذباب، وأنين التوجع والامتنان.

انطلق رنين التليفون بجواره، أفرعه، رغم أن نغمته اللطيفة من أغنية محمد فوزي «ماما زمانها جاية». كان الطالب سعيد عبد الخالق:

- لا تتأخروا، جلستنا رقم خمسة في الرول.

- أوف! نسيت كل شيء عن القضية.

في الصباح، طاف صلاح مبكرًا على الشهود، وحملهم في سيارته، وقاد فهمي خلفه بسامي وأم الغلام، التي لم يبدُ عليها أي قلق أو شك في كسبها. وبعد أن ناقشتها المحكمة، استمعت إلى شهادات الشهود، كتحصيل حاصل، ورأت ألا وجه لتوقيع الكشف الطبي عليها. وحددت جلسة للنطق بالحكم. لم تشعر بحزن أو فرح أو قلق، بينما كان سامي سعيدًا بعودته من المحكمة، كما لو كان عائدًا من رحلة. بعد العشاء، جلس مع فريدة وحدهما في الفرندا، أمامهما الجمر المشتعل، وقد فاحت من تحته رائحة نضج البطاطا. ولمح من خلف الجدار جذع كامل، الذي يصل أولًا قبل أن يمد قدمه السليمة. بدا حزينًا. أو غاضبًا. نهض سامي يستقبله.

حيث فريدة ودخلت. وفور جلوسه أخرج كامل زمزية النبيذ من سيالة الجلباب، وأحضر له

سامي كأسًا واحدة. قبل أن يسكب، خرج إليهم فهمي، وأشار:

- دع الهاوس واين هذه الليلة. جرب الويسكي.

أدار الزجاجاة أمامهما. هلل كامل:

- 20 years old.

نهض سامي، وأحضر ثلجًا وكؤوسًا. بعد أن تذوّق كامل كأسه، أخذ يتشمم الويسكي مستحسنًا، ثم

عاد الغضب يكتسي وجهه. وقال:

- متى لف عسكر مبناه في العَلَم؟!

قال سامي:

- منذ أن بناه.

- لكنني لم أرَ العَلَمَ إلا اليوم.

قال فهمي:

- أنت لا تأتي إلا في الليل. حزام أنوار الزينة الذي أضافه مؤخرًا جعلك تراه.

قال كامل:

- كل جريمة تُلف في العَلَمَ تصبح مبررة؟!

قال فهمي:

- كانوا يخفون الجرائم ببناء بمسجد. الآن أصبح الأمر سهلًا، تلوين جدار لا يكلف شيئًا.

قال سامي:

- عَلمنا يُشبه فراشة الملكة بالضبط، تعرفانها، ها هي، ها هي!

فتح تليفونه وبحث عن صور فراشة الملكة، وأخذ يستعرضها أمامهما.

أبدى فهمي دهشته، ولم يُعقّب كامل على الصور كأنه لم يرها، وقال:

- العَلَمَ رمز، ويجب أن يبقى عاليًا. ليس ستارًا أو واجهة يتعفن الواقع خلفها.

لمعت في عين سامي دمعة. مسحها واستجمع قواه:

- العَلَمَ هو كل شيء في وقت الأمل. عندما دخلت الميدان كنت أشعر أن هذه الفراشات سترتفع

بنا إلى السماء مثل منطاد عملاق.

قال كامل:

- لا تحك عن العَلَمَ لمن رآه مهددًا. كانت رفرقة عَلم العدو بالنسبة لي أسوأ من غارات طائراته.

قال فهمي:

- ألم تُهَجَّرُوا بعد النكسة؟

- سكان المدن هُجِّرُوا، أما نحن في الضواحي فلم نترك زروعنا. وكان وجودنا درعًا لقواتنا من الصاعقة الذين كانوا يتسللون وينفذون عمليات خلف خطوط العدو.

حل الصمت، وأرسل كامل نظرتَه في الظلام الممتد تحت أشباح الشجر، وقال:

- تَكَنَّفَتِ الهزيمة في ذهني كمواجهة بين عَلمين. وعرفت يومها أن الأشياء تستمد معانيها من أرواحنا، عندما وجدتي أكره الأبيض والأزرق. وإلى اليوم لم أتخلص من كراهية لونين يُفترض أنهما لونا السلام والسكينة.

قال فهمي:

- ملاحظة نيِّرة. حقًا، من الذي ألهم عصابة مستوطنين اختيار الأبيض والأزرق بالذات؟!

تنهَّد كامل وجرع من كأسه، وقال:

- لكسب التعاطف. وربما طريقة لإهانة المنطق.

قال سامي:

- هل عاصرت عَلم الإنجليز؟

- رحلوا قبل أن أعي الدنيا. وعندما عادوا مع الفرنسيين والإسرائيليين في عدوان ستة وخمسين، كنت طفلًا. لم أع سوى الأفعى الرقطاء بالأبيض والأزرق، التي كانت تتلوى في سمائنا على مرمى بصرنا سبع سنوات.

قال فهمي:

- وبالرغم من الهزيمة لم يتوقف التصفيق لعبد الناصر، وانتحر البعض لموته.

لَقَّهَم صمت جديد، ثم حدَّق كامل في وجه سامي، كأنه يكتشف، للمرة الأولى، صديقه المتبسم، وسأله:

- هل تؤمن بالكراهية بأثر رجعي؟

- لم أعرف الكراهية إلا بعد مقتل أبي في الحبس.

قال كامل:

- كان عبد الناصر نزيهًا رغم أخطائه الفادحة. لم أكرهه إلا بعد أن ظهر العار في السلالة.

قال فهمي

- أنا توقعت النهاية مبكرًا، لكن الناس كانت مسحورة.

قال كامل:

- قبل يوليو كنا في طريقنا لأن نكون بلدًا عاديًا. كنا محتلين، لكن لدينا أحزاب، وبرلمان، وقضاء.

قال فهمي:

- لم يكن هناك فساد.

قال كامل:

- كان الفساد موجودًا، لكنه كان صغيرًا، حتى ليبدو الآن نكتة.

أخذ فهمي طنطاوي يضحك، ورفع كأسه مُحييًّا، وقال:

- من وقائع الكتاب الأسود التي عدّها مكرم عبيد على النحاس، أن زوجته استغلت تلكس سفارتنا في لندن وموظفي السفارة، لشراء بالطو فرو!

تفرّس كامل وجه سامي، وقال:

- إن حافظت على ابتسامتك هذه يا صديقي، فهذا مكسبك. دعك من أي شيء آخر.

قال فهمي:

- لديّ فيلم جدير بالمشاهدة. دعونا نصعد لنشاهده.

وفور أن دخلوا المكتبة سحب اسطوانة DVD لَوَّح بها، وقال:

- فيلم إل بوستينو، عن كل ما تحدثنا به... وعن الشعر والجمال.

خَفَّض سامي الإضاءة، وبدأ العرض؛ فعَمَّ الصمت. أخذوا يتابعون رحلة ساعي البريد فوق دراجته على طريق وعرة لكن جميلة، حتى وصل إلى البيت الصغير المتاخم للبحر، حيث يسكن الشاعر.

يبدو أن للجنة أشكالا عديدة.

أكملوا مئة وثمانين دقائق، لم يتبادلوا خلالها كلمة. أخذ فهمي يملأ كؤوسهم عندما تفرغ. بعد العرض، فتح سامي النور. بدا على وجوههم غبطة وأسف الاستيقاظ من حلم لذيذ. تنهَّد كامل:

- هل يوجد جمال كهذا في العالم؟!

قال فهمي:

- مشاهدة الفيلم الجيد، عمر إضافي نعيشه.

قال كامل:

- في بداية معرفتي بالسينما اعتقدت أن الأفلام ليس فيها سوى رجال مهوسين بالجنس ونساء

يدفعن الثمن!

قال سامي:

- كنت أريد أن أدخل الشاشة وأحضن البطل.

قال كامل:

- يشبهك يا سامي.

- لكنه مات، أما في حالتي فمن أصابته الرصاصة كان يوسف لا أنا.

قال فهمي:

- للأسف، الممثل ماسيمو تروازي مات بالفعل، ليس بنيران الشرطة كما في الفيلم. كان يعرف

بمرضه وأكمل التصوير بكل شغف.

فكر سامي بفريضة، مستشعرًا ذنب زيارته تلك الجنة من دونها، همس لحميه:

- غدًا نراه مرة أخرى مع فريضة.

- شاهدته معي مرتين.

الرد الذي يُفترض أن يجعله راضيًا لأن هذا الجمال لم يفتها، أحبطه، إذ نبهه إلى أن هناك العديد

من الأشياء لم يعرفها عنها بعد.

قال كامل:

- وتلك الفتاة بياتريس روسو... آخ!

ثم همس لسامي:

- تشبه نعمة. الفرق أن فتاتنا حمارة. احمد ربك. لا تناسبك إلا فريضة يا ماريو روبولو.

أحس سامي بالارتباك؛ فضحك كامل وقال:

- ارتباكك، يعني أنك لم تسكر بعد؟!

ثم أخرج تليفونه وطلب آدم أن يأتي ويقبله، وهبًا واقفًا على الفور.

قال فهمي:

- انتظر حتى يأتي.

- ليس بعيدًا، هو هنا، ساهر مع حمادة.

قال فهمي:

- أليس غريبًا أننا لم نتبادل أرقامنا بعد؟

التقط تليفونه وطلب من كامل أن يُمليه رقمه. ثم سمعوا صوت الفيسبا تتكثك أمام السرايا.

جلس على الوسادة مستندًا إلى شباك السرير، بينما استلقت فريدة كهلال متوسدة فخذة. أخذت يده تتحسس بطنها، تهدد ابنه الذي حرّمها النوم بسبب لعبه طوال الليل. كانت التاسعة، ولم تكن الشمس قد طلعت بعد، وبدأ رذاذ خفيف ينفذ من طبقة السلك في الشبّاك. وسمعا صوت سيارة. من كثرة دخول السيارات لم يعد بالإمكان تمييز السيارات الصديقة من العدو. أنصت فسمع صوت صلاح. رفع رأس فريدة، وأراحه برفق على الوسادة، وأطل من الشبّاك. رآه يتقدم بعربته، نحو المعلق، بجواره نعمة، بينما تقف في الصندوق بقرة، وحولها عدد من الأغنام، نزل بسرعة ولحق به عند المعلق. هتف صلاح:

- جنّاكم بضيوف، أرجو أن تكرموهم لحين عودتنا.

- إلى أين ستذهبان يا عمي؟

- مشوار لميت سهيل.

فتح صندوق العربية فقفزت الأغنام، وسحب البقرة، ونزلت وراءه على التل بسهولة، دون وجل، كأنها معتادة على السفر.

كانت البقرة مفاجأة لهند وإشراق بعد عودتهما من المدرسة، وانتعشت نعجة القطيع والخروفان، وقد أحسا أنهما لم يعودا أقلية بين الماعز. تذكّر الخروفان ذكورتها، وأخذا يغازلان نعاج صلاح، بعد أن أيّستهما النعجة التي أحضرها البناء بركات. لا تحيض ولا تبيض، كما تقول أم الغلام.

في المساء وقفت فريدة وابنتاها يشاهدن رفقة، بينما تجلس بين سيقان البهيمة تعنصر حلماتها وتصوّب زخات الحليب إلى قلب دلو على الأرض أسفل الضرع. جعلتهن رفقة يُجربن، توترت البقرة من تعدد الأيدي على ضرعها، خافت الفتاتان وابتعدتا، وواصلت فريدة المحاولة لوقت أطول دون نجاح يُذكر. بعد أن أكملت رفقة الحلاب، تناولت فريدة منها دلو الحليب، وانصرفت تُفكّر بما يجب أن تفعل به. اقترحت إشراق:

- أرز بلبن!

أنت رفقة في اليوم الثاني بحصيرة للجبن، وعلمت فريدة عمل الجبن القريش وتحويل القشدة إلى زبد، وأخذت محاولاتها في تعلم الحلاب تصبح أقلّ إضحاكًا. وامتلات السرايا بالخير خلال الأيام الستة التي أقامتها البقرة في المعلق، وذكّرت فريدة سامي بأمنيّتها أن يكون لديها جاموسة. لكن ألفتها مع البقرة جعلتها تُخفّض رغبتها في التتابع مع سعاد حسني، فعدّلت طلبها إلى بقرة لكن بعد

الولادة. وقالت ضاحكة:

- ابنك باشا، لا يطيق رائحة المعلف.

عاد صلاح ونعمة إلى السرايا مباشرة. توقفت السيارة في مربضها. وترجّل صلاح وشرع في إنزال الهدايا التي عاد بها من ميت سهيل؛ نصف جوال أرز، عمود من خبز الشرقية المرشح، ذكر بط حي مقيد. كان وجهه ينطق بالحزن، لكنه بدا حريصًا على إطلاع أم الغلام على كل شيء لتفرح بروائح القرية التي لم تعد إليها منذ أن جاءت إلى تل المساخيط عروسًا في طور المراهقة. قالت:

- هات الفطير لنتغدى به، وأعدّ باقي الأشياء إلى العربة، لتأخذها إلى بيتكم.

أشاح بيده، بما يعني زهده في كل ما أتى به. غمزت لسامي ونعمة أن يعيدا الأشياء التي لا تريدها إلى كابينة العربة، ومضت أمامه إلى الفرندا، حيث يجلس فهمي. فور أن استقر صلاح على كرسيه سألته أم الغلام:

- مالك يا ولد؟

- العادي بعد كل زيارة للبلد.

- ماذا حدث هذه المرة؟

- المهبول عبد المنعم ابن عمتي، قعد يلاحقني اتصالات، اتصالات، يقول إن رجلاً يطلبه كل يوم لحظة أذان العصر على التليفون الأرضي، يتحدث الإيطالية، لا يفهم منه شيئًا، سوى التحية، ثم تُغلق الخط. ظل يقسم أنه ليس سوى ابنه، وفي كل يوم يستجديه؛ رد عليّ يا رأفت. قل شيئًا، نسيت لغتنا يا ابني؟

سأله سامي:

- كيف عرف ابن خالتك أن اللغة هي الإيطالية؟

- نحن في هذا الهم من عشر سنين، كفيلة بأن الحمار يتعلم: بونجورنو، شاو، تي يو سامي، يعني هل أنت سامي. وهكذا.

قال فهمي:

- غير معقول أن ينسى الشاب لغته في عشر سنين. هناك من يتلاعب بابن خالتك. ربما يكون المتصل عابثًا من القرية نفسها.

- فكّرت وقلت لعبد المنعم. أقسم وأصرّ، وقال لي ألم تعد تريد ابنك؟ رُحت، ومشينا في مسارات وجع القلب التي نسير فيها مرة بعد مرة.

قالت أم الغلام:

- ثاني يا صلاح، ضرابين الودع؟!!

- أسوأ. رُحنا مصر؛ للسفارة الإيطالية ووزارة الخارجية. قدّمنا الصور من جديد. الموظفون حفظوا ابن خالتي.

- عبد المنعم هذا، مخه هوّى. ريّح نفسك يا صلاح.

- لا يرتاح إلا من أغلق القبر على ابنه. أما نحن فلا نستطيع أن نُفوّت أي طاقة أمل. مئة خديعة لا تجعلنا نقول كفاية. كل مرة نقول ربما تكون هذه المرة صدقًا.

- يعني في النهاية، رجعت بياه؟

- بالببط والعيش والرز.

وبعد لحظة صمت قال:

- وعريس لنعمة.

بدا انزعاج مفاجئ على وجه سامي استغربه هو نفسه، ورمقته فريدة بتحديقة قاسية، وقالت لنعمة:

- مبروك العريس. عجبك؟

- لا أعرف. لم أره.

- وكيف خطبك؟

- هو قريينا، لكنه في إيطاليا. شُفت الصورة.

قالت أم الغلام:

- ما هذا الكلام يا صلاح؟ زواج من صورة؟ ما حصلت في أيامنا!

قال صلاح:

- عن نفسي لا أريد أن أفارق بنتي يا فوزية، كنت أتمنى...

زفر وسكت، وبدت على وجهه شفافية وجوه سلالة يعقوب عندما يفعلون. قالت أم الغلام:

- كل شيء قسمة ونصيب، لكن ليس هكذا. الأكبر منها بنات لم يتزوجن.

- سنرى يا فوزية، لم نكتب الكتاب. قرأنا فاتحة على السريع.

قالت أم الغلام:

- لم تمرّ بالعش في طريقك؟

- لماذا أمر بالعش؟

- أبدأ، خطرت في بالي مباركة الفولي، يا ترى عايشة، أم ماتت.

- كان معنا واحد من العش في مشاوير مصر.

- كنت سألته عنها.

- يووه يا فوزية، الناس همها الجمعة وانت همك سبت وحد.

- كانت مرا، ولا كل النسوان.

رنّ تليفون سامي. كان المتصل المحامي سعيد عبد الخالق:

أخذ سامي يستمع إليه وتتوسع ابتسامته، وأصرّ عليه أن يأتي ليتغدى معهم. وبعد أن أغلق الخط.

أبلغها بالنتيجة مبتهجاً:

- مبروك يا جدة. كسينا القضية. نسينا أن جلسة الحكم اليوم.

قال صلاح:

- القاضي اعتبرك عاقلة يا فوزية!

جاء سعيد عبد الخالق. حكى وقائع الجلسة بالتفصيل، محاكياً أداء القضاة ومحامي الخصوم

وجلسة الأخوة الثالثة وتعبيرات وجوههم. كان يقعد ويقوم، يضحك ويُشخّص بيديه بنظرة ثعلب في

عينيه الضيقتين الساخرتين. صوته العالي يصل إلى المطبخ، حيث وقفت رفقة وفريدة تعدان

الغداء. قالت رفقة:

- هذا الرجل فضيحة، إذا مر أحدهم الآن سيسمعه.

- طبعي! محام ظريف، من مكتب لطيف!

بعد الغداء، نهض صلاح وقال:

- نشكركم على استضافة البهائم!

ضحك فهمي، وقالت فريدة:

- تعودنا على وجودهم.

ذهب إلى المعلف، واسترد البهائم ومضى، بينما امتدت زيارة سعيد عبد الخالق حتى بعد

المغرب. وبعد انصرافه عمّ الصمت سوى من موجات خفيفة من الغناء يحملها الهواء. عندما صعد

سامي وفريدة إلى غرفتهما اقترب منها يحتضنها مثل طفل يعرف ذنبه، ويتودد بلؤم لأمه قبل أن

تُفصح عن غضبها. رفعت يده عنها. أخذ يتحسس بطنها. دفعت يده. تزحزح قليلاً واستدار إلى

الجهة الأخرى، ثم شرع يتقرب زحفاً بهدوء، حتى التصق ظهره بظهرها. تزحزحت:

- دعك من شغل العيال.

بعد لحظات صمت طويلة، همس:

- جسمك يحبني أكثر منك.

- كلام سخيف.

- ريدا. ماذا بك؟

- هذا سؤال أم استهبال؟!

زحفت بعيدًا عنه أكثر. وقالت:

- كان لسانك متدليًا على نعمة.

- أنتِ كل ما لي.

- صدقتك أنا.

- أنا في مقام عمها.

- أنتم عائلة مجانيين. اذهب وتزوجها.

- لماذا أتزوجها؟

- هبلة أنا؟ جدها يقول لا يريد أن يفارقها، وأم الغلاف تتحدث عن النصيب. وأنت ستأكلها

بعينيك. لماذا عدت إليّ؟

- لأنني أحبك.

- أنت مشوش يا سامي، ولن أتحمل هذا. حدد ماذا تريد.

- وأنت حبيبتي التي تفهمني أكثر مما أفهم نفسي.

- تفهمتك كثيرًا.

نظر في عينيها، ولم يقل شيئًا، قالت:

- إذا تفهمتك أكثر من هذا سأصير أمك يا سامي.

صمتت قليلاً، ثم قالت:

- وما هذا المحامي البصباص؟

- ماذا فعل؟

- أنتم الرجال كلكم عيونكم ناقصة تربية. ألم ترَ نظراته لرفقة، حتى قرفت وتركت له المكان؟

حاول بكل السبل أن يهدئها، لكنه رأى وجهًا لم يره من قبل. ولم ترد. غمرته موجات الغناء

تحت حزن ثقيل.

كُدودة هوي ووا كُدودا

كدودة أركان لويندا
ايرجوناس ماستون كيلبي

قال:

- إن فهمت هذا الغناء سأفهمك.

قالت:

- لو كان لك قلب ستفهمني وتفهم الغناء.

همس:

- أنا آسف.

استدارت. ربنت كتفه، لكنه ظل يحس ضيقها من تنفسها.

ليس أفدح من غضبها إلا رصاصه قنّاص تستقر بين عينيك.

ظل قلقًا يدور كالترس في مكانه حتى لا يوقظها. وتمدد الليل، لا يقطع صمته سوى تنفسها. وبين الحين والحين نفثة من البومة على شجرة الكافور، ثم قرآن الفجر. وعندما شقق النور انزلق إلى كوابيس سخيفة. لم يتذكرها مباشرة عندما استيقظ، لكنه استعاد وعيه تدريجيًا، فتذكّر أنه رأى نفسه مع ثلاثة من زملاء الجامعة، يعبرون بوابتها الرئيسية، وسط أمواج من الطلبة، سقطت عينه بنظرة عفوية على قدميه، اكتشف أنه يسير بينهم في جوب أزرق قصير دون حذاء، حاول أن يداري إحراجه بالسخرية، وأشار إلى قدميه:

- انظروا! لقد تطور تركيزي إلى الأفضل، كنت من قبل أنسى وأخرج حافياً تمامًا.

وتذكّر مندهشًا أنه خرج من ذلك الكابوس ودخل في آخر أثقل دون فاصل. رأى نفسه في دولة ما، ضيفًا على أسرة لا يعرفها، وبعد أن أعد حقائبه للمغادرة أخذ يبحث عن حذائه، فلا يعثر إلا على فردة واحدة، يزحف تحت الكراسي والكنب والأسرة في الحجرات، ويعثر في كل مرة على فردة مختلفة لا تشبه ما وجده قبلها. أثقله الإحساس بالحرج من مضيفيه. استمر الكابوس، حتى استيقظ في لحظة الخوف من ألا يدرك الطائرة.

بحث عن فريدة في الطابق الثاني، فنزل. وجدها في الفرندا، أمامها كوب شاي، وفي يدها رواية الحرافيش. حاول تخليص الرواية من يدها، فلم تتخل عنها. نهض وأعد لنفسه شايًا. ثم جلس بجوارها صامتًا، انتبها إلى وقع أقدام تقترب. ثم ظهر الرجل ووقف أمامهما في البستان لم يصعد درجات الفرندا. ضحك سامي وهمس لها:

- فارس المتسول على الثقب!

وضعت الكتاب مقلوبًا على الصفحة التي تقرأ فيها، وطالعت الرجل الذي قال:

- خلاص يا باشا، الدكتور جاهز. ناقصني مبلغ صغير.

قالت فريدة:

- عندنا دكتور شاطر، سيعمل لك العملية مجانًا. استعد انت وتعال.

قال:

- ربنا يخليك يا هانم. سلام عليكم.

مضى فارس، وتبادل سامي وفريدة نظرة، وأخذا يضحكان.

تحب الأشجار الربيع، ويستمتع سمعان بالأشجار في هذا الفصل أكثر من بقية الفصول. يحتضن الجذوع، ويضع أذنه عليها، بينما يشير إلى سامي ليقرب من الشجرة ويسمع ما يسمعه. تعا، صاحبيا، تعا اسمح. يشير إلى عناقيد العنب التي أغلبها ثقلها فتدلت كالثرديات، ويكشف الثمار الخضراء التي لم تزل في حجم صفار بيضة على أشجار المانجو. لا يتبعه سامي وحده كلما ناداه، بل تتبعه فريدة كذلك، تصوب كاميرا التليفون إلى حيث تتجه أصابعه وترسل لصديقاتها وتنتشر على صفحاتها بـ "إنستجرام".

شمل الربيع الملعف بولادات ماعز جديدة، تجاوز أطفالها حد الخطر، بدأوا يجرون في عشة الدجاج أو خلف أمهاتهم في ساحة الملعف أو في البستان، تصورهم فريدة وتنتشر الفيديوهات التي اجتذبت مليون متابع.

لكن انتظار مولد الباشا الصغير، كان أهم مظاهر الربيع التي أعادت الحياة عرضًا ممتعًا بالنسبة لسامي.

جعل اهتمامه بفريدة وحملها ضجة عربات مزرعة الدواجن المقابلة أهون عليه من غناء صرصار الحقل، وجعله يستقبل بالابتسامة الواسعة، رجلًا طويلًا جدًا ونحيفًا جدًا مثل مثل حبل، مثنيًا فوق دراجة عالية جدًا عجالاتها، كبيرة مكشوفة بلا رفرين. كبح الرجل الدراجة بتثبيت قدميه في الأرض أمام أم الغلام وسامي اللذين يجلسان خلف القطيع. اعتدلت قامته قليلاً، لكنه ظل مقوسًا. انطلقت الكلاب باتجاهه. ناداها سامي؛ فعادت إليه وتقدمته بينما يمضي للقاء ذلك الغريب. فتح الرجل رباط حقيبته القماشية المغبرة. دس يده داخلها وأخرج حزمة من الخطابات فرزها والتقط منها واحدًا دفع به إلى سامي.

كان خطابًا مسجلًا من مديرية المساحة في سراب. يخطره بتقديم أبناء ناجي بطلب لترسيم الحدود بين الملكيتين. قرر أن يذهب مع حميه ليستفسر. في الصباح أو صلا هند وإشراق إلى المدرسة وتوجها معًا. كان المدير يقبع خلف طاولة كبيرة، في غرفة فسيحة بأثاث متقشف، تنقصه لمسة عناية ليصبح فخماً. طلب الرجل الملف، وبعد أن قلبه قال:

- يدعي جيرانكم أن الحدود زحفت على ملكيتهم بمقدار ربع فدان.

قال فهمي:

- بيننا وبينهم طريق، كيف انتقلت الأرض؟!

- هذه مشكلة في كل ريف التل، لأن المدقات غير مُثَبَّتة على خرائط المساحة.
قال فهمي:

- كيف يحفظ الناس حقوقهم إذن؟

- كان الزمن مختلفًا. لم نرَ هذه الخلافات إلا مؤخرًا.
قال سامي:

- والعمل؟ هل لنا أن نرفض هذا الإجراء؟

- ستدخلون في محاكم، وتحال القضية إلى خبير، يعني ستعودون إلينا.

جاء المسّاحون في اليوم المحدد. وصلوا عند العاشرة. وكانت أم الغلام تنتظر مع سامي وصلاح وحميه فهمي على بداية المدق، وبالقرب منهم وقف أبناء ناجي بفأس وكوريك في أيديهما للحفر. ذهب صلاح إلى المعلف وعاد بحمادة وسمعان. وجاء أمين عسكر متأنفًا متعطرًا. أبدى كبير القياسين مفاجأته من حضوره، وحيّاه بحرارة:

ثم نظر الرجل إلى الطرفين وقال:

- الدكتور أمين عسكر، كان من الممكن أن يحلها وديًا دون حاجة للقياس.

قال أمين:

- لم يفاتحني أي منهم.

قال الرجل:

- لنرَ، ماذا يمكن أن نفعل.

وعاد يسأل الطرفين:

- هل بينكم من يعرف أين الحديدة بالتقريب؟

نظر أبناء ناجي إلى بعضهم البعض، ولم يقولوا شيئًا وقالت

أم الغلام:

- هؤلاء كانوا مجرد عجول صغيرة. عندما دققنا الحديد.

نهضت وأشارت إلى المكان الذي يجب الحفر فيه. أخذ مصطفى وعبد السلام يتبادلان الحفر مع حمادة وسمعان. قطعوا كل عرض المدق، وأخذوا يُعمِّقون الحفرة، حتى وجدوا بقايا حديدة رقيقة منأكلة، صارت بين أيديهم مثل مسحوق البن. وعندما انتقلوا إلى نقطة نهاية المدق، لم يعثروا على أثر لعلامة حدود. تعاملت الشمس على الأرض، وجلس الحفارون في الحفرة الواسعة منهكين، ومن مفرخة أمين عسكر جاء الشاي والقهوة والماء البارد للمرة الثالثة.

قال رئيس المسّاحين:

- تريدون الحق؟ حتى الحديدية التي وجدناها لا يُعتد بها.

قال أمين:

- نعم، حديدية الحكومة ضخمة على شكل H ولا تصدأ أبداً.

قال رئيس المسّاحين:

- تماماً. كل زمام سالم يعقوب قُسم بالود.

قال عبد السلام:

- أنتم الحكومة، لنا حق ويجب أن نأخذه.

قال الرجل:

- لا أعرف كيف، سنحاول القياس من منتصف المدق.

أثبت القياس وجود النقص الذي يدعي به ورثة ناجي، بينما وجدوا أرض سامي خمسة أفدنة دون

زيادة.

قال مصطفى:

- أرأيتم؟ على الأقل نقتسم الفرق.

قال صلاح:

- هل دفع أبوك ثمن أرض. هي عطايا، احمدوا ربكم.

قال عبد السلام:

- وأنت كنت دفعت؟

- أنا لم أخلق مشاكل، ثم إن لديكم جيراناً من الجهات الأخرى، لماذا لا تفرزون معهم الحدود؟

قال المسّاح:

- استهدوا بالله. بهذه الطريقة سنضطر لقياس المنطقة كلها.

قال أمين عسكر:

- كل شيء يمكن حله بالتفاهم.

قال صلاح:

- هذا اسمه رمي بلاء.

قال كبير القياسين:

- الدكتور أمين رجل دُغري، وياما حل مشاكل.

ثم التفت إلى هارون، وقال:

- اجلسوا معًا وصفوا الأمور، أنت رجل تعرف ربنا.

قالت أم الغلام:

- يعرف ربنا ولكنه لا يخافه، السلسال وسخ.

امتقع وجه هارون، ولمَّ جلبابه الأبيض الناصع ومضى، بينما قال أمين:

- لا يصح هذا يا حاجة. هاتوا من ترتضون من كبار التل، والجماعة سيحضرون من يريدون أن

يوكلوه، ونجلس ونحل الأزمة.

قال صلاح:

- من لديه أزمة فليحلها مع نفسه.

أشار إليه فهمي ليهدأ، واتجه إلى رئيس المسّاحين:

- اسمح لي، أنتم لم تستخدموا كل إمكانياتكم. أين الماسح الإلكتروني، أقصد، تلك الكاميرا.

- المزواة؟

- نعم، هي. أعتقد أنها ستكون أدق، وتعطي لكل من الطرفين حقه.

- كما تريدون، تقدموا إذن بطلب مسح إلكتروني، لكن الرسوم أعلى.

قال فهمي:

- المهم أن نحل، المشكلة.

نام سامي مبكرًا بإجهاد الوقوف تحت الشمس طوال النهار. لكنه أوقظ في منتصف الليل من

عمق النوم على دغدغة لطيفة في بطنه، نظر إلى فريدة وجدها مستغرقة في النوم ويدها

منقاطعتان على بطنها. غفا مجددًا، ثم أحس حركة. فتح عينيه فرأى الواقف أمام السرير يبتسم له.

هتف:

- أخي!

انحنى عليه يوسف بسرعة، ووضع كفه على فمه سامي، وهمس:

- لا تزعج فريدة.

استدار وخطا خفيًا نحو باب الغرفة؛ فنهض سامي وتسحب وراءه، وأغلق الباب بحرص. عندما

صارا في الممر، رأى أباه. احتضنه بقوة، ثم رفع يد أبيه وأخذ يتشممها ويقبلها مستنشقًا رائحة

كولونيا خمس خمسات التي اعتاد أن يطهر بها يديه قبل أن يلمس أحدًا من ولديه عندما كانا طفلين.

أحس حركة أشخاص آخرين في الطابق وصرير أبواب غرف تُفتح وتُغلق. تحرك والده نحو

المكتبة فسار الولدان وراءه. بمجرد أن وطئت أقدامهم الغرفة رفع صبري ذراعه وحرّك كفه في الهواء يُقدّمه للآخرين. ثم أشار إلى صبيّ في جلباب حائل اللون معتمراً طاقية بادي الحرج. وقال:

- عمك سالم.

- أعرفه يا أبي.

اقترب منه وصافحه بينما يأكله الفضول ليرى ظهره. بحركة حاول أن يجعلها عفوية، توجه إلى المكتبة مشيراً إلى أبيه:

- انظر يا أبي، نصف مكتبتك صارت هنا.

ثم استدار وأرسل نظرتة تتفحص ظهر الغلام. رأى نافورة الدم التي لا تفيض ولا تجف والمزق في الجلباب من الخلف. التفتوا نحو صوت أقدام واهنة تقترب. ظهر رجل في بدلة أنيقة وربطة عنق معتمراً طربوشه. عرفه سامي على الفور، وهتف به مندهشاً:

- جدو!

اقترب سالم باشا يعقوب من حفيده، وقال:

- عفارم يا سامي، ذوقك راق. حافظت على عراقة السرايا.

قال يوسف:

- لا بد أن مهندس الديكور كلفك كثيرًا يا أخي.

قال سامي:

- لن تُصِدّق. كل شيء تم على يدي ببناء زرائب.

بدا العم الغلام محرّجًا، تلقّت يستطلع الغرفة، وهمس موجهًا كلامه إلى الباشا:

- هل تعرف يا أبي أنني لم أطأ هذا الطابق إلا الليلة؟!

- كيف؟ ألم تعش هنا حتى الرابعة عشرة؟

- أمي حرّمته علينا أنا وأبي. كانت تقول هذا طابق الباشا من يصعد إليه منكما سأكسر له رجله.

رفع الباشا طاقية وبر الجمل الصغيرة من فوق رأس ابنه وداعب شعره قليلاً، ثم أعاد الطاقية إلى مكانها فوق رأسه، ومضى نحو المكتبة. استغرق في تأمل كعوب الكتب. بينما سأل سامي أباه:

- أين أليس يا أبي؟

تغير وجه صبري ولم يرد. وغمز يوسف لسامي، أن يصمت. لكنه كرر السؤال.

أجاب صبري:

- من يموت خارج مصر، لا حياة ثانية له.

ضحك يوسف وقال:

- ما هذا الجو الفرعوني يا أبي؟!!

- هكذا أعتقد، لهذا كنت سأجن عليك عندما وافقتها وذهبت معها.

قال يوسف:

- لعلك يا أبي، أرى أمي كل يوم. وأنت إن تسامحت ستراها.

تجاهل صبري ما قاله يوسف، والتفت إلى سامي. وضع يده على كتفه، وقال:

- لم تزل ترهق نفسك بذنب ما حدث لأخيك في الميدان؟ ينبغي أن تسعد؛ فهذا هو يوسف أمامك.

لو لم يعد من ألمانيا في ذلك الوقت، ما كان ليقف بيننا اليوم.

أعطى سالم باشا ظهره للمكتبة، وأخرج ساعة مربوطة إلى عروة الجيب الداخلي لجاكيت بدلته

ينبهم إلى الوقت. أو ما صبري مستجيبًا، وخاطب ابنه:

- إلى اللقاء يا سامي. سنأخذ الكلاب معنا. لا تغضب أو تحزن.

ردّ ملهوفًا:

- لم يا أبي، ماذا ستفعلون بها هناك.

امتقع وجه صبري، وقال:

- أمر الله يا سامي، أتعزها على خالقها؟!!

قال الجد:

- لا تجزع يا فتى، أمامك مزيد من الفقد، لكنك جئت إلى هنا لتبقى.

اختفوا فعَمَّ الظلام، ليس في السرايا وحدها، حيث لم يلمح سامي أي بصيص ضوء من الخارج

في تلك الليلة. تدبّر طريقه إلى غرفته بتلمس الجدران. واندسَّ بهدوء إلى جوار فريضة. ولم يستيقظ

إلا في العاشرة، عندما دخلت إليه بفنجان قهوة. وضعت له الفنجان على الكوميدينو وجلست

بجواره واجمة.

زحف، ووضع الوسادات خلفه مضطجعًا على شباك السرير. وضع يده على رأسها، وأخذ

يداعب شعرها، حتى جمعه في قبضته. ثم أفلت الشعر وراحت أنامله تبحث عن عنقها وشرعت

بتدليكه. ثم همس:

- نمتَ جيدًا؟

- أنت الذي نمت كالقتيل.

- سهرت مع الضيوف حتى قرب الفجر.

- أي ضيوف؟! كنت تُشجّر بجواري حتى طلوع الشمس، وتسحّبت من جوارك لأوقظ أبي والبنّتين.

- أنتِ أدري!

رفع بيده الفنجان ومسّه بشفته يخنبر حرارته. قالت فريدة:

- أخشى أن تكون أخذت ضربة شمس أمس.

رنّ تليفونها، فتوترت والتقطته ونهضت. تحركت بعيداً عن السرير، لكن صوت صلاح الجهوري، كان مسموعاً:

- مهدي لزوجك.

ردت فريدة:

- ولا واحد؟

انتفض سامي وسألها:

- الكلاب؟!

- نعم، أخشى أن حالة الثلاثة خطيرة.

وقف جامداً. بغير ابتسامته بدا لفريدة شخصاً آخر. احتاجت إلى ثوان لتستوعب أنه رجلها ثم احتضنته وأخذت تُرَبّت ظهره. أحست خوار ساقيه. سارت به حتى أجلسته على حرف السرير. قال:

- ماذا حدث؟

- هناك من سممها في الليل. وجدناها قبل الشمس تمشي وتقع، تتلوى وتستفرغ. أبي طلب عمك صلاح، وذهبا بها معاً إلى الوحدة البيطرية.

بعد أن تمالك نفسه، التقط تليفونه من فوق الكوميدينو، وطلب الأمين فضل الله، شرح له الأمر في كلمات مرتبكة. أجابه الرجل:

- اطلبوا تقريراً من الوحدة البيطرية موقعاً من الطبيب ومختوماً.

- هل نطلب النجدة أم نأتي إلى النقطة؟

انطلق تليفون فريدة، وتكلم أبوها:

- الكلاب ميتة منذ لحظة وصولنا، أبلغني سامي ليطلب البوليس.

فقد سامي تركيزه مع الأمين الذي هتف به:

- نرى الوضع أولاً يا باشا، ثم نتصرف.

قال سامي.

- الكلاب ماتت.

قال فضل الله:

- أستغفر الله العظيم! الأفضل أن تطلب النجدة، لإثبات الحالة.

أغلق الخط، وجرَّ على أسنانه وأخرج من بينها كلمات جده بالأمس مطحونة بأضراره: لا تجزع يا فتى!

طلب النجدة ووقف ينتظر ومعه حمادة، وجوارهما جلست أم الغلام مرتكزة بجبهتها على قبضتيها الممسكتين بالعصا التي غاص طرفها في التربة. وصلت سيارة صلاح. ترجل هو وفهمي ووقفا يواسيانه بينما ينظر إلى الكلاب الثلاثة المطروحة في صندوق العربة، بعيونها الشاخصة التي تنطق بالألم المتجمد في حدقاتها. رفع ساق الأم، ورأى ضرعها المنتفخ، مثلما رآه يوم وصوله، يوم كان أبنائها الخمسة يلعبون حولها. أخذ يتحسس بطنها. همس كأنما يُكلم نفسه:

- ليس أقل من ستة في بطنها!

قال فهمي:

- الله أعلم بعددهم. الجريمة جريمة، واحدًا أو ألفًا.

وصلت سيارة النجدة. حياهم الضابط، واستمع إلى القصة. ثم أمر الأمين المرافق له أن يهيئ ديباجة المحضر. وشرع يسأل سامي:

- هل تتهم أحدًا؟

- نعم، هؤلاء الناس.

وأشار جهة بيوت أبناء ناجي. أمر الضابط مساعده أن يذهب ويحضر الأخوة الثلاثة. عاد بهم في دقائق. كانت لحية الصغير ترتعش بينما تتحرك شفقاته بتلاوات وأدعية، وأخذ مصطفى يردد غاضبًا:

- أستغفر الله العظيم، إلا الروح البريئة، هذا كفر لا نقدر عليه.

وتمسك بالاستغفار والتعوذ من الشيطان جوابًا لكل سؤال.

قالت أم الغلام:

- نعم، نعم، يا أبو ذيل نجس.

- أنا ذيلي نجس يا ناقصة؟

زقع فيهما الضابط:

- نريد أن نفهم، وإلا سأخذكم جميعاً إلى النقطة.
قال عبد السلام:

- بعد إذن الباشا، سأحضر المصحف.

ولم ينتظر الإذن، جرى نحو بيوتهم وعاد لاهثاً بمصحف صغير في يده. تجمعوا ثلاثتهم
واضعين أيديهم فوق المصحف، بينما يرددون:

- وحق هذا المصحف، لم نسم ولا نعرف من سم هذه الكلاب.
قال سامي:

- مَنْ إذن سيكون الفاعل؟

قال مصطفى:

- من أدرانا، الموتوسيكلات لا تتوقف طوال الليل، اسألوا عامل معلفكم الذي لمّ حوله كل أوساخ
التل.

قال صلاح:

- ولماذا لا يكون المستوطن؟

أبدى الضابط ضيقه، وقال:

- لو سمحتم لا تتكلموا في وقت واحد. أريد التركيز، ثم التفت إلى صلاح وسأله:
- أي مستوطن؟

أشار صلاح:

- صاحب هذه الزريبة، أمين عسكر.

قال الضابط:

- دون سب لو سمحت.

قال صلاح:

- لكننا نسب منذ وصولك يا حضرة الضابط.

- لأنني عذرتكم على غضبكم؟! لكن لا توسع دائرة العداوة.

- لماذا يا حضرة الضابط، على رأسه ريشة؟

- لا أحد فوق القانون يا حاج، إن كنت تريد أن تتهمه لك كل الحرية، لكن إن كنت غير متأكد فلا
داعي، أنتم جيران.

أشار فهمني إلى الكاميرات المعلقة على المعلف، وقال:

- نطلب التحفظ على صور هذه الكاميرات، هي التي ستحدد الفاعل.
قال مصطفى:

- أي كاميرات، النور مقطوع طوال الليل.
قال سامي:

- وما أدراك أن الجريمة تمت في الليل؟

- سمعت عواء كلابكم يا أفندي عند عودتي من صلاة الفجر.

أقبلت سيارة أمين عسكر، ولم يجد طريقاً لأن سيارة النجدة تسد الطريق. انحدر إلى داخل ملك
أبناء ناجي، وترجّل متجهًا نحو الجمع.

- أشرف بيه، ماذا تفعل هنا؟

- كلاب جيرائك يا دكتور، ماتت مسمومة.

- لا إله إلا الله. الكاميرات تحت أمرك يا أشرف بيه.

قال الضابط:

- يقولون إن الكهرباء كانت مقطوعة، لكن النيابة ستطلب تفريغ الكاميرات على كل حال، هذا
إجراء ضروري مادامت موجودة.

بعد انصراف سيارة النجدة، قاد صلاح سيارته بالجثث في صندوقها. توغل بحذر داخل البستان.
تخير مكانًا توقف فيه، وأشار إلى حمادة:

- احفر هنا.

بعد الدفن انصرف حمادة وصلاح وبقي سامي واقفًا فوق رأس القبر. رأى سمعان قادمًا نحوه
من عمق البستان. احتضنه وأخذ يبيكان. أحس سامي بحيوان يتمسح في ساقه. لم يكن واحدًا.
كانت كلاب أبناء ناجي الثلاثة. ولازمته كظله طوال اليوم.

عندما عادت هند وإشراق من المدرسة ألقنا ثلاث وردات على قبر الكلاب، ضربها الذبول في اليوم الثاني، والجفاف في اليوم الثالث وصارت هشيمًا تحت أظلاف الماعز في اليوم الرابع. ونمت الحشائش وكست التربة خلال أسبوع.

انصرفت هند عن المعلف وما فيه، صارت أكثر صمتًا واكتفت بصداقة الوروار المواظب على زيارتها، تتابع الفراشات والذباب والنمل ودود الأرض والنحل الذي تشعر معه بإثارة الخطر. لكن إشراق صارت أكثر عصبية وصخبًا، تدخل مع الحشرات في معارك ولا تشعر بالارتياح إلا عندما تسحقها سحقًا.

تذكّر سامي وعده لهند عندما طلبت حصانًا في أول يوم رآها فيه. ذهب مع عمه صلاح إلى سوق التبة، وعادا بحمار أبيض حساوي طويل القامة كأنه حصان. فرحت به فريدة أكثر من هند وإشراق. وصار قصتها الجديدة على "إنستجرام"، وكان بالصدفة آخر ما صورته، إذ نشرت بعد ذلك مقطعًا تعلن فيه إغلاق حسابها. قالت لمتابعيها: عرض الحياة على الناس يُحولها إلى مجرد عرض، وتكف عن أن تكون حياة. أودعكم، سأتفرغ لأسرتي الصغيرة، وعائلتي الكبيرة من الحيوانات وقد تعرفتم عليهم من قبل.

كان مُرضيًا لها أن تتقدم في الحمل دون أن يفقد سامي شغفه بها، وأن يتحمل لحظات ضيقها، بينما تشعر بالمجهود الكبير الذي يبذله لإخفاء غصته من تقييد جريمة قتل الكلاب ضد مجهول، بخلاف تحرشات الحدود.

جاءت لجنة المساحة الأكبر بمحطة متكاملة للرفع المساحي كانت النتيجة أغرب من نتيجة الرفع اليدوي للأبعاد. وضعوا الجهاز الإلكتروني الحساس عند نقطة البداية؛ فرسم خطأ مائلًا يمنح سامي نصف أرض أولاد ناجي، وعندما وجهوه من النقطة المعاكسة جاء الخط مائلًا إلى بستانه لصالحهم. وبالكيفية ذاتها خلط القياس الحدود مع الجيران الآخرين. امتقع الأخوة، ورأى سامي العرض فكاهيًا، وكلما توسعت ابتسامته ظهر الغيظ على وجوه الأخوة. أحس سامي بأن هارون لم يكن يريد كل هذا، وفوجئ به يترك أخوته ويقف بالقرب منه، وعلى وجهه اعتذار لم يقله.

بعد ساعات من ركض المساعدين على الحدود بالجهاز الذي يجمع في داخله وظائف أجهزة عدة، قال كبير المساحين:

- لا سبيل إلا الحل الودي، ستوقعون المنطقة كلها في نزاع.

هَبَّ أمين عسكر في الأخوة:

- أنتم بهائم، قلت لكم من قبل. نحن جيران ولا بد من التراضي.

قال مصطفى:

- نحن على استعداد لمجلس عرفي. لكن المدق ملكيتنا.

قال صلاح:

- حكمت بنفسك، فلماذا نتعب أنفسنا ونعقد جلسة؟!!

- حقنا وسنعرف كيف نأخذه.

- أرني كيف ستأخذه.

بدت بوادر اشتباك بالأيدي. وقف أمين عسكر بين الطرفين. ثم همس لسامي:

- سَتُحَلِّ بما يرضيك يا سامي باشا. العيال لن يخرجوا من يدي، وعليك أن تسيطر على الحاج

صلاح.

عاد أبناء ناجي إلى منازلهم، وجمع المسّاحون معداتهم واستقلوا سياراتهم، وتوجه سامي إلى المعلف. كان سمعان ينظف تحت الجمال، بينما تحمل رفقة إليها دلو ماء. ورأى غرفة حمادة مفتوحة، تملؤها الماعز، بينما يستلقي الشاب متعرقاً في ثوب أبيض مدعوك ومغبر. طرد سامي الماعز وجلس بجواره على حرف السرير، وسأله:

- عيَّان يا حمادة؟

- أبداً، تعب عادي.

- اشتقت للجنيّة والشبّاك؟

- أيهما؟ التي في البحر أم البر؟

- في كوم امبو. تزور أمك، أسبوع وترجع.

- أمي ماتت من شهر.

اتسعت عينا سامي دهشة:

- ولماذا لم تخبرنا؟

- ما الفائدة؟!!

عادت الماعز، يهش سامي واحدة فتدخل اثنتان، ثم ثلاثة، تُفْتِش عن شيء تأكله، تتناطح، تتقافز أمام السرير، ثم تقوست إحداها وأطلقت بولها، فطرطش على سامي. نهض وأخرج كل الماعز، ووقف بالباب ليمنعها من العودة، بينما يستنهض حمادة، لكنه زحف حتى التصق بالجدار مستأنفاً

نومه؛ فأغلق عليه الباب.

في المساء جلست أم الغلام غافية على كرسي، وبالقرب منها جلس سامي على الحصير يُقَلِّب قطع الجمر أمامه بذهن شارد؛ لا يعرف لم أشعل النار من الأساس، فهو لا يرغب في طعام أو شراب، والطقس أقرب لأن يكون حارًا. انطلق رنين تليفونه، رأى اسم طارق، الذي قال:

- أنا أمام السرايا.

- تفضل.

دخل مهللاً؛ فانتبهت أم الغلام، ثم تناومت. سأل عن أحوال المعلف، وشرع يثرثر عن أسعار الأعلاف ووباء انتشر بين البقر، ثم عن أخيه وزوجتيه، وأحس أن سامي يمنحه أذنه من باب اللياقة لا أكثر. سأل:

- ما الذي حدث اليوم؟

- إذن أنت تعرف!

- نعم. والله يا صديقي هذا سخيّف جدًا. ولا أعرف ما الذي يجبرك على هذا.

- هذا لا شيء بجانب ما رأيته من قبل.

- لو كنت مكانك لعدت إلى مجالي الأصلي. كيف استطعت أن تُفَرِّط في مهنة العصر؟!

- البرمجة أصبحت وراء ظهري. مجال سريع التغير، لو عدت سأكون كمن يتعلم حروف الهجاء.

- ليس إلى هذا الحد. تستطيع أن تستدرك ما فاتك. ولديك شقة في أرقى أحياء القاهرة بدلًا من هذه المقبرة الجميلة. لا تؤاخذني.

لم يجب سامي، متشاغلًا بمتابعة القهوة التي بدأ وجهها يتقرب ويرتعش تأهبًا للفوران. وبدت أم الغلام مستغرقة في نومها، ترتفع يدها بين وقت وآخر تهش بعوضة. صبَّ سامي القهوة. رشف طارق من فجانته بصوت عال استحسانًا، وقال:

- لو فكرت بكلامي، لدي من يشتري.

- يشتري ماذا؟

- عندي صديق يشتري الأراضي التي بها مشاكل.

فتحت أم الغلام عينيها:

- وأرضنا فيها مشاكل، يا رأس العجل؟

في الصباح، انتظرت أمين عسكر حتى نزل من سيارته، لوحت بالعصا أمام وجهه:

- رؤية حلمة أذنك أقرب لك مما تُفكر فيه.
- أفكر في ماذا يا حاجة على الصبح!؟
- البغل الذي أرسلته أمس يعرض شراء الأرض.
- لم أرسل أحدًا.
- جاء سامي، يحاول أن يفض الموقف ويقنعها بالعودة إلى البيت. قال أمين:
- أنت صاحب الأرض، خلّ كلامنا معًا.
- هذه أرض جدتي.
- قلت لك يا ابن الناس، رجل لرجل. كثرة الطباخين يفسد الطبخة.
- بعد يومين ظهر أمين مع هارون أمام قطعته ومعهما المسّاح. خرجت أم الغلام تستطلع، وعادت تهمهم:
- أبو لحية يبيع للحرامي، وخائف من الشماتة، شافني فنزل تحت الشجر.
- أخذ أمين عسكر يتحين الفرصة لرؤية سامي في لقاء يبدو صدفة على المدق. وسامي، بلؤم الأطفال يزوغ، حتى اضطر أمين إلى أن يطلبه على التليفون:
- كيف حالك يا جاري العزيز. حقي أنا أن أغضب، لكنني أكلّمك.
- من قال لك إني غاضب؟
- أردتك فقط أن تقول للست الحاجة، أنني اشتريت نصف فدان من هارون. كلهم يريدون أن يبيعوا لي اليوم قبل غد وبالسعر الذي يرضيني، يعني لا أريد أن أشترى منكم.
- كلمة قالتها، لأن طارق أغضبها.
- لا يهم، هي مثل جدتي. نريد فقط أن نعطي الجيرة حقها. وجلسة صلح مع أولاد ناجي تحل المشكلة.
- أتشاور مع أهلي.
- تمسك صلاح برأيه. الجلوس معهم تنازل من حيث المبدأ. أخذ فهمي، يسترضيه، فقال:
- افعلوا ما يتراءى لكم، لكنني لن أحضر.
- حث فهمي زوج ابنته على الموافقة، وقال له أمين:
- عيال ناجي اختاروا أن يكون قاضيهم خالهم.
- كيف يكون هذا!؟
- القاضي في الجلسات العرفية هو المحامي، وأنت ستختار محاميك. وهناك ثالث هو المرجّح،

وهو القاضي الفعلي، يفصل في حجج محاميي الطرفين. وسيكون من حظك أن يقبل سيد زكي أن يكون مرجحًا. هذا أهم رجل في التل.

- من سيدعه؟

- لا تحمل همًا. لي صديق يعرفه. المهم أن يوافق، لأن صحته ليست على ما يرام.

تحدد الموعد بعد عصر الجمعة. وبقي الخلاف على الشكليات. رفض عيال ناجي أن تُعقد الجلسة في السرايا ورفضت أم الغلام أن تذهب لأي بيت آخر. اقترح أمين أن تكون الجلسة على المدق.

تولى إحضار مقاعد من متعهد حفلات، رُصت بعد الظهر. وجعلت أم الغلام سامي يأتيها بصلاح على الهاتف. بمجرد أن ردّ. قالت:

- أين أنت يا ولد؟

أعدت التليفون إلى سامي. دون أن تنتظر رد صلاح. وصل بعد صلاة العصر، وتقاطر الخصوم وعدد من الجيران، وجلس الجميع في انتظار المرجح. عندما وصل توقفت السيارة الفخمة التي نقله في أقرب نقطة من الجلسة حتى كادت تحف بالكراسي. ترجّل منها شابان ساعدا الرجل، وشرع يجر قدميه بينهما لاهنًا.

همس صلاح غاضبًا:

- سيد الحرامي!؟

وقفوا يصفحون الرجل الطويل ذا القامة البرميلية. قال:

- يبدو أنني كنت الأخير في الوصول، تفضلوا لنبدأ.

قُرئت الفاتحة، وانتظر سيد زكي حتى هدأ تنفسه، ثم بدأ يتكلم. طلب من كل فريق تحديد متحدث واحد من بينهم. قدّم أبناء ناجي أصغرهم، وقال سامي إن جدته هي التي ستحدّث. طلب منها سيد زكي أن تروي أولاً. ثم تحدّث هارون. وتوالى قدوم المشروبات. مياه غازية من مزرعة الدواجن يحملها أحد العمّال وشاي من السرايا يحمله سمعان.

وأخذ كل قاض يترافع عن قصة موكله، ويفند قصة الطرف الآخر، بدأ التّلاسن بين أم الغلام والأخوة، وحاول القضاة ضبط الخروج على اللياقة وتقليل الشتائم التي طالتهم. كان من السهل ردع الرجال، بينما أخذت أم الغلام ترمي هذا بشيء من سيرته، وتتهم ذلك بالرشوة، ونفذ صبرها من سيد زكي، الذي كان يلهث طوال الوقت، ويكرر بين لحظة وأخرى:

- أرجوكم، أنا صاحب مرض. يجب أن تنتهي هذه الجلسة.

- لا مرض ولا بك شيء. أنت مثل ذكر البط المزغط. خفف الأكل ترتاح.

أمسك معظم الحاضرين أنفسهم عن الضحك، وهم سيد زكي بالنهوض مهدداً بالانصراف، فأجلسه المحكمان الآخران. أشار إلى أمين:

- لولا إلحاح هذا الشاب الطيب ما جئت. ما اسمك يا أستاذ؟

- اسمي أمين، أمين عسكر يا سيد بيه.

علقوا الجلسة للتداول، اختفى القاضيان والمرجح تحت الشجر. وعادوا بعد المداولة بحكمهم: زحزحة المدق متراً جهة سامي. لم يقبل الأخوة الثلاثة، وتعالى صياح مصطفى وعبد السلام، نهضت أم الغلام غاضبة:

- تحلمون. ولا شبر.

انصرفت مع صلاح، وأعاد القضاة التداول، وتوافقوا على بقاء الوضع على ما هو، لكن إذا دخلت المنطقة مستقبلاً الحيز العمراني يضاف المدق إلى ملكية أبناء ناجي، وتقام الشوارع مناصفة بين الطرفين حسب المخطط العمراني. تردد سامي ونظر إلى حميه، فلم يجد لديه إلا الحيرة. وضع سيد زكي ذراعاً على كتف سامي والأخرى على كتف فهمي، وهمس:

- هل تنوون تبوير أرضكم؟

قال سامي:

- إلا هذا.

- إذن ماذا يضيرك طالما ستبقى أرضاً زراعية.

قال فهمي:

- سنرجع إلى سيدة البيت، ونرد عليكم.

- أنتم الآن أصحاب الملك، نريد تفادي الاحتكاك بين العيال وعمتهم.

قال سامي:

- طالما بقيت جدتي حية؛ فنحن ضيوف عندها.

قال سيد زكي مخاطباً فهمي:

- هل تعرف يا سعادة البيه جدوى القضاء العرفي؟ لماذا ننجح في حل ما يستعصي على

المحاكم؟

- غياب المستندات، كحالتنا هذه.

- لقد فهمتني، بصراحة القضايا السهلة تذهب للمحاكم، وتأتينا القضايا العويصة. نجلس وعلوننا

على طرف لديه عقل يمكن أن يضحى. وسامى شاب متعلم مختلف عن هذه البهائم التي تنطح.
كان الإنهاك قد وصل بسامى إلى غايته، بعد كل الأصوات العالية التي ظلت تتداخل في سمعه
لعدة ساعات، مذهولاً من قدرة هؤلاء الناس على الحلف. وكان يريد أن يقول: نعم أنا الطرف الذي
يريد أن يضحى. لكنه خاف ردة فعل أم الغلام. وترك الرد لحميه الذي قال لسيد زكي:
- الدنيا لم تُبْنَ في يوم واحد. أعطنا فرصة نسترضى السيدة.

استأذن أمين عسكر من أجل زيارة تعارف عائلي. جاء عند الضحى بصحبة زوجته وابنتيه، وخلفهم عامل يحمل قفصًا من الدجاج. دخلت أم الغلام وفريدة مع الزوجة، وانطلقت البنتان اللتان من عمر هند وإشراق في اللعب معهما تحت الشجر. وجلس أمين مع سامي بالفرندا.

تركت المرأة المنقبة انطباعًا ممتازًا لدى فريدة، واتفقتا على أن تبقىا على تواصل. وأعدت أم الغلام القفص مليئًا بأقراص عجوة وكمثرى وبشائر برتقال ردًا على هدية الدجاج.

ولم يكف سيد زكي عن الاتصال بفهمي يومًا بعد آخر، يستحثه على إقناع أم الغلام، وتحديد موعد جلسة سريعة لصياغة الاتفاق وتوقيع الأطراف عليه. فتح فهمي الموضوع في جلسات الأسرة مرة بعد أخرى، حتى أبدى صلاح بعض اللين، لكن أم الغلام لم تمنح موافقتها. أخذ سامي يحايلها:

- لن يتغير شيء يا جدتي، المدق في مكانه.

- من يضمن ألا يختلقوا مشكلة جديدة.

قال صلاح ضاحكًا:

- الأمور ليست فوضى إلى هذا الحد يا فوزية.

- طالما كان الضلالية قضاة فكل شيء جائز.

قال صلاح:

- تخيلوا؟ كلمة أمي ذكرتني بشيء. هل لاحظتم يوم الجلسة، كيف تظاهر سيد زكي والمستوطن

بأنهما لا يعرفان أحدهما الآخر؟

قال فهمي:

- أحسست بكذب الاثنين.

قال سامي:

- متأنق مثله، ويده طرية مثل الجيلي.

قال صلاح:

- حرامي قديم. كان صف ضابط، اختلس مليونًا في وقت كان المليون يشتري عزبة. قعد سنة في

السجن وطرده من الخدمة. اشترى فدانًا على الطريق، بنى المسجد الصغير الملون الذي ترونه

على الواجهة، وخلفه فيلا كبيرة، ولبس الجلابية الصوف والقفطان، وخلص؛ اعتبر نفسه من

الأعيان.

سأله فهمي:

- وما مصالحه مع أمين؟

- الآن هو على الحديدية. والولد عسكر يده فرطة وسهراته حلوة؛ كباب، أفيون، حشيش، كأس والعياذ بالله، وأي اسم أو منصب تتخيله في التل أو سراب تجده في هذه السهرات.
قالت أم الغلام:

- الأوسخ منه صالح، خال العجول. لا يُفوّت صلاة فجر في الجامع، ويأكل مال النبي.

عاد الرجال يحايلونها، لكنها لم تقتنع، وفي النهاية قالت:

- براحتكم. لم يعد يلزمني إلا متراً في متر، يكفي نومتي الأخيرة. وتصرفوا في الباقي بما يحلو لكم.

كان سامي قد تصور أنها نسيت ما قالت من قبل، لكنها كانت تعني ما قالته هذه المرة، وفي اليوم التالي كررت طلبها، ثم صار هاجساً لديها. قال صلاح:

- لا مفر. اسألني أنا عن دماغها الحجر. دعنا نسأل المهندس شحاتة. هل تحب أن أطلبه أنا؟
- لا داعي، أعطني رقمه.

فتح صلاح تليفونه وأملاه الرقم. سجّله سامي، وأراد أن يكتب تعريفاً يُميّزه به عن المهندس الآخر، سأله:

- هذا، مهندس الزراعة أم حماية الأراضي؟

- الزراعة.

- صاحب الزبيبتين؟

- لا، الواحدة. يا سامي أنت غير معقول. حجّرت معك على الزبيبة والزبيبتين؟! شحاتة طويل وظريف، الثاني قزعة وكالح.

كتب تعريفه بعد الاسم: زراعة، طويل، زبيبة. ثم حاول على الرقم، فوجد الخط مغلقاً.
قال صلاح:

- بدري على النوم. خذ رقم فتوح.

طلبه، فلم يرد أيضاً، وسجّل اسمه: فتوح، قصير، حماية، زبيبتان.

في الصباح حاول على الرقمين، جاوبه فتوح:

- مستحيل.

- لماذا يا باشمهندس؟

- أنا مشغول الآن، لدينا مرور.

بعد يومين، كان سامي جالساً في الفرندا يقرأ. رأى المهندس القصير ذا الزبيبتين قادمًا نحوه من عمق البستان. حدّق سامي أبعد فلم ير زميله الآخر خلفه. على مقربة توقف وقال معتذرًا:

- آسف، اقتحمت البستان كاللصوص، حتى لا يراني صاحبك.

وأشار جهة مزرعة الدواجن. خفّ إليه سامي مُرحبًا. أخذ بيده لدى صعوده درجات الفرندا، ودعاه إلى الجلوس، بينما يُحدّق في وجهه. وجعلته مفاجأة ظهوره ينسى اسمه، راجع مكالمات اليومين، فتذكّر أنه كلّم فتوح ذا الزبيبتين الذي يجلس أمامه الآن. سأله:

- أين المهندس شحاتة المعيل؟

ضحك فتوح وقال:

- شحاتة عسل، في العمرة. وأوصيته بالدعاء لك.

- عمرة مقبولة.

- أولاً، اعذرني يا سامي باشا على ردي في التليفون. لا أحب التعرض للتفاصيل في هذا الجهاز اللعين.

هزّ سامي رأسه متفهمًا، وناولته فنجان قهوة. تذوقها المهندس جزعًا من حرارتها، ثم قال:

- ذكّرني ماذا كنت تريد؟

- أن نبني قبرًا.

وأخذ يُطلعه على مقطع فيديو للقبر الذي يشبه قبور أبي قير:

- انظر! ليس ضخماً. هل يمكن استخراج ترخيص؟

- لم أواجه هذا الطلب من قبل، أظن أن المسألة معقدة. لكن إذا بنيت على الساكت لن يشعر أحد.

والأفضل ألا تضع شاهدًا للقبر من البداية. هكذا سيبدو مثل غرفة صرف زراعي.

وبعد لحظة صمت، قال:

- لا تبدأ في البناء قبل تهدئة الحال مع جيرانكم. حتى لا نجد أنفسنا في سين وجيم.

- هم اختلقوا المشاكل.

- أعرف يا باشا. ربنا يهدي. متى تردون عليهم بشأن جلسة التحكيم؟

- لم نحدد بعد.

- ممتاز. أخروا الرد، ولا تجعلوهم يقطعون الأمل. هكذا لن يشتكوا.

وبينما يهيم بالنهوض، قال:

- تحت أمرك يا سامي باشاء، وكل سنة وانت طيب.

- شكرًا جزيلاً. وأنت طيب يا باشمهندس.

نهض، ووقف سامي يضافحه. حدّق فيه فتوح مبتسمًا وأمسك بيده يهزها. أخذت ابتسامتهما تتوسعان، دون أن يسحب الضيف يده؛ فقال سامي مستدرّكًا:
- دقيقة يا باشمهندس.

هرول إلى الداخل، وسحب من محفظته بضع ورقات من فئة مئتي جنيه دون أن يعدها، جعلها في كفه. ومد يده إلى فتوح، الذي تقاربت كتفاه وتحدّب ظهره وصافحه. تحركت الكفان منسحبتين إحداهما من الأخرى بينما تسحلان النقود بينهما، حتى تمكّنت أصابع المهندس فتوح منها؛ فافتقرت الكفان. أخذت ابتسامه سامي تتوسع لأنه أنقن اللعبة، بينما دسّ فتوح النقود في جيب بنطلونه، وقال:

- أجمل ما فيك سماحة نفسك. لا تخبر شحاتة. الأمر

لا يستحق.

لمع وجهه بغبطة سمجة؛ فتبخر اسمه من رأس سامي، وأخذ يفكر بلعبة تحريك النقود واتسعت ابتسامته.

العبها مع هند وإشراق، ستفرحان.

شاهد مزيدًا من الفيديوهات تشرح بناء تلك القبور، وأسعده إعجاب أم الغلام بها. صارت مبتهجة وحيوية، كأنها ستنبي قصرًا. سأل عمه عن متخصص في بناء القبور. ضحك صلاح:

- صل على النبي يا خواجه. سأطلب الولد بركات. ولن نقول له إن ما سيبينيه قبرًا.

- سيعرف من الغطاء، والشاهد.

- بطّل عبط يا سامي. سنشتري الرخام ونركنه في السرايا، إلى وقته.

سجّل سامي أبعاد الحفرة، فأجرى صلاح حسابات الحديد والإسمنت والطوب بالتقريب. وأخرج تليفونه من جيبه. كلّم بركات، وأخبره بالمطلوب. ويبدو أن الشاب بدأ يجادله ليستوضح لماذا سيبنون حوضًا وسط البستان، فصرخ فيه:

- المهم متى ستأتي، سنبنّي "كابينيّه" للكلاب، عندك مانع؟

بعد يومين جاء بركات بعماله. وخلال ساعتين كان الحوض العميق جاهزًا. وبعد أسبوع، جاءت

عربة بالرخام. وتم تشوينه تحت السلم داخل السرايا. أمسكت فريدة بإصبع أم الغلام، وأخذت تمرره على الحفر الرفيع للآية القرآنية «يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي». ثم السطر التالي الأوسع حرفًا «قبر المرحومة نجفة عبد الجليل الفشن» وبخط أكبر يتسع تجويفه لإصبعين كان اسم شهرتها «أم الغلام»، قالت:
- الخواجة لم يترك في نفسي حاجة.

وأخذت تعيد تمرير إصبعها على الرخام، تتحسس الحروف ثم أمسكت بيد فريدة، وطلبت منها أن تقرأ لها حرفًا حرفًا، إلى أن أتقنت هجاء اسمها.

تلخّصت صورة الموت لديها في جمال الحفر على الرخام. في ذهابها وإيابها تجلس أمام شاهد قبرها المكون على الجدار تحت السلم، تقرأ مع حركة إبهامها أ..م..ل..غ..لا..م. وبعد أن كانت تنهي يومها بزيارة الدغل بعد صلاة العشاء، صارت تذهب إليه من أول النهار. تجلس على حافة الحوض الذي سيصير قبرها، تنظر إلى الماء الأسود الذي رشحته الأرض بداخله، وتجمع بعضاها أوراق الشجر الذهبية التي تغطي سطحه. بينما تكلم سالم الصغير تعتذر له لأنها أتعبته ذهابًا وعودة، ثم تكلم سالم الكبير وتعاتبه لأنه لم يأت إليها أبدًا. حتى هناك، تتحكم فيك زوجتك يا باشا؟!!

لاحظ سامي، بدهشة مشوبة بالأسى، انسحابها وسرعان ما انشغل هو الآخر بعالمه. بعد فحص الحمل الأخير، تركّزت كل طاقاته في العناية بفريدة، وتخيل اللحظة التي سيلقى فيها ابنه. باستثناء ذلك بدا كل الوجود من حوله باهتًا، ويوم الولادة أصر على البقاء بجانبها. ارتدى ملابس معقمة كطاقم التوليد، ووقف عند رأسها. لم يُفلت يدها من يده، وأخذ يمسح عرقها. تتقلص ملامحه ويكز على أسنانه مع كل موجة ألم تضربها. وأخذ الطبيب يُحفرها:
- اصرخي، لا تستحي من وجعك، قولي شيئًا.

لكن دموعها ظلت تسح في صمت. تتلقى التعليمات وتنفذها قدر طاقتها. والطبيب يضاحكها:
- ما هذا التهذيب؟ اشتمينا، كلهن يشتمننا، كأنهن يلدن لنا!

أخذ يحفرها على التنفس بعمق والدفع بقوة حتى سحب الرأس الرفيع من بين فخذها. خرج سالم صامتًا، وضربه الطبيب لكي يبكي. لكن الذي بكى من تلقاء نفسه كان سامي.

في أيام غيابها بالمستشفى صارت السرايا بيد رفقة، بينما يتلازم سامي وحموه في توصيل هند وإشراق إلى المدرسة، والعودة إلى فريدة، ثم التسكع بين محال الحلوى والمكسرات من أجل هدايا السبوع. واجها الحيرة بين أشكال العبوات وخيارات تغليفها، وطباعة اسم المولود. يرسلان إليها

بصور كل شيء، قبل أن يقررا، ثم يذهبان إلى المدرسة لاستعادة البننتين. زارتها نعمة، ورحبت بها:

- عقبى لك يا نعمة.

- كرشت العريس.

- لماذا؟

- صليت استخارة فارتاح قلبي لرفضه.

- لم تأخذي فرصتك لتعرفيه.

- بالعكس، تكلمنا بالساعات كل ليلة.

- وما الذي لم يُعجبك فيه؟

- لا يسمعي، كل همّه أن يجرّ الكلام إلى قلة الأدب.

- يغازلك؟

- غزل؟! يا ليت! مرة أخذ يلح لأفتح الكاميرا. كنت مستريحة في الظلام، قمت وأضأت النور وسترت نفسي وفتحت الكاميرا، قلبي وقع مما رأيت على الشاشة. كتمت صرختي حتى لا أوقظ جدي.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- اعتذر، وقال إنه لن يفعل ذلك مرة أخرى، فعدت لقبول مكالماته، لكنه عاد للإلحاح. تعرفي يا أبله؟ الرجال بهائم.

احتضنتها فريدة، فأحست لفح الأنفاس العطرة للفتاة التي تعلقت بها، وخزها برعما صدرها المتصلبان.

بدأ الاستعداد لحفل السبوع بعد خروج فريدة من المستشفى. جلست رفقة وندمة وهند وإشراق يعبئن الملبس والفسق والشيكولاتة في قوارير هدايا صغيرة من البورسلين الأبيض، محزّمة أعناقها بشرائط ملونة تتدلى منها بطاقات المولود بكتابة مذهّبة على ورقة مصقولة بحجم عقلي إصبع «سالم سامي صبري سالم يعقوب 26 بشنس سنة 1735 الموافق 3 يونيو 2019».

قالت فريدة لسامي:

- الصديقات قادمات، وهناك مفاجأة لك.

ألح على معرفة المفاجأة. قالت:

- كيف ستكون مفاجأة إن أخبرتك؟!!

رتبت رفقة وصلاح ذبح الخروف الكبير من خلف ظهر سامي، وتم استكمال كل ما يلزم لغداء ضيوف الحفل. وفي ليلة الاحتفال، وضعت أم الغلام طاولة بالقرب من سرير فريدة، أشعلت فوقها سبع شمعات، ووضعت بجوارها صينية ماء فيها سبع حبات من سبعة أنواع بقول، وفي وسطها قُلة. وأوصت فريدة بألا تغفل عينا لحظة عن المولود لئلا تؤذيه الجن.

قالت رفقة:

- فريدة تعبانة. يسهر الخواجة، لن يُسمى أبًا بالساهل.

قالت فريدة ضاحكة:

- عمل ما عليه؛ لم أنجب دُقدق وحدي!

جلس سامي على كرسي بجوار سرير الوالدة، لا يكف عن تأمل صغيره النائم بجوارها، وقد تحول اللون الأزرق الذي ولد به خلال الأيام السبعة إلى الأحمر. بدا وجهه مبتسمًا رغم استغراقه في النوم، وضع سامي سبابته بحذاء قصبه ساق الوليد فوجدهما متساويتي الطول. تأمل قبضتيه المضمومتين بأصابع صغيرة طرية تغري بالتهامها. أحس بالحسد لفريدة لأن سالم كان في بطنها. دخلت أم الغلام وقالت:

- قلبي لم يطاوعني يا خواجة جئت أُوْنِسُكُ حتى لا تنام. لكن النوم بدأ يصارعه، يتجالد، فيهبوي النعاس برأسه، وسرعان ما يرفعها قلفًا، ويحدِّق بالصغير، ثم يحدِّق بأم الغلام، فيكتشف أنها كانت تراقب نعاسه مبتسمة. بعد غفوة من تلك الغفوات سمع جلبة. حدَّق بالباب، فوجد صبري يعقوب واقفًا. همس له:

- انهض يا بني، جننا نبارك لك.

أشار سامي إلى المولود:

- لا تخف، اترك الباب مفتوحًا، سيكون بين أعيننا.

سار سامي وراء أبيه، رأى أليس ويوسف وجده سالم باشا يعقوب وعمه سالم الغلام وسط حشد من الرجال المطربشين والنساء حاسرات الرؤوس. بأيديهم الشموع، يدورون بالطرقات والغرف. عرف في آخر الحشد جدته ملك، وقد تركت خطوتين بينها وبين الزحام. ميَّز الباشوات الذين كانوا يحضرون أعياد ميلاد طفولته، ثم رأى الرجل الأحول الذي يعرف صورته المعلقة في شقة جاردن سيتي، وطالما تحيَّر في معرفة الجهة التي ينظر إليها، هتف:

- الزعيم مصطفى النحاس!؟

ابتسم الرجل، وقال:

- طبعًا يا ابني، هذا يوم من أيام الوفد. إذا لم آتِ لحفيد سالم باشا وسَمِيَّه، لمن أحضر؟! قال سامي متهللاً:
- وهؤلاء، أصدقاء جدي، معظمهم أعرفهم. سأله سالم باشا:
- أين نصيبنا من السبوع؟
- حالًا يا جدي، لدينا الكثير من الهدايا، ولدينا لعب جميلة يمكن أن تسعد الأطفال هناك. سأحضر لكم منها.
- كنت أمزح. اعتن بالصبية والباشا الصغير.
- شدَّ الجد على يده، وأخذ الآخرون يصافحونه وينصرفون، واحدًا وراء الآخر، أحس بالأسف عندما صافح يوسف وألس، لأنه لم يجد الفرصة للتحدث معهما.

جاء كامل إلى السرايا للمرة الأولى في النهار من أجل حفل السبوع. كانت الحادية عشرة صباحًا. سأل عن سامي، قالت أم الغلام:

- نائم. سهر للصبح جنب المولود.

كانت رفقة ونعمة في المطبخ، تتشاوران. فاجأهما دخول الرجل إليهن. جرت كل منهما إلى الإيشارب الذي تحللتا منه، سترن شعورهن. وهتفت به رفقة:

- ماذا ستفعل بيننا يا متعوس؟

- لسانك مبرد يا رفقة السوء.

ثم التفت إلى نعمة:

- كيف حالك يا نعوم؟

- الحمد لله يا عمي، كيف حالك أنت؟

اقتربت منه رفقة وهمست:

- يا مُحن! ربنا يكون في عون مراتك.

- أنتِ وهي ستكونان حطب جهنم الذي يشوى الكافرين.

- تتشوي أنت!

- يبقى أكبر خازوق يا رفقة. معقول، نار في الدنيا والآخرة!؟

- خذ اللحم تَبِّله.

فتحت الثلاجة وأخرجت له أضلاع الخروف والقطع المخصصة للشوي. شمّر ذراعي قميصه، وبدأ يطلب من نعمة:

- بصلة يا نواعم. ملح يا نعوم.

عندما أطل سامي على المطبخ لم يعرف كامل للوهلة الأولى، في القميص والبنطلون. بدا له أنحف وأدرك أن ما يبدو في الليل سُمره هو في الأصل شقرة لوحتها الشمس. فكَرَّ: هل يمكن أن يكون من آل يعقوب؟ أخذ يُحَدِّق به مجددًا، ولاحظ غبطته بوجود نعمة. سمع كلاكس سيارة متعهد الحفلات فخرج يرشده، وجعله يوقف السيارة أمام الفرندا. قفز منها ثلاثة عمال راحوا ينقلون المقاعد والطاولات المطوية وينصبونها.

عند الظهر، جاءت أم سمعان مع أولاده الأربعة بعد إلحاح سامي وفريدة على رفقة لكي

تحضرهم، اندمج الصغيران منهما في اللعب مع هند وإشراق وجلس صبيان طويلان يشبهان أبيهما متحرجين. ثم بدأ ضيوف القاهرة يتوافدون. وصل نائل، وعدد من الصديقات مع أزواجهن. واكتشف سامي أن المفاجأة كانت حضور ليلاس بعد طول اختفاء. أخذ يطالعها، وعلى وجهه كلام، حتى إنه ارتبك ولم يستقبل محمد لطيف وزوجته كما يجب. انتشر الضيوف في البستان، يلتقطون الصور، ثم عاد الرجال إلى الظل في الفرندا وصعدت النساء إلى فريدة. كتب سامي إليها: أسأليها عن الغدور. كتبت إليه: اصبر يا نوتي. مجرد سؤال قبل الهيصمة. اقل، مكسوفة أقعد مشغولة عن صديقاتي هكذا. رمقت ثريا التليفون في يدها. ضحكت وقالت:

- أنا نفسي عندي نفس الفضول.

انتهى الطهارة بعد العصر، وخرج كامل فأوقد للشواء، ووقف أمام الشواية، حتى التهب ساقه الضعيفة، وأصبح عرجه أوضح من المعتاد. نزلت فريدة مع صديقاتها، يحملن الباشا الصغير في سلة، فوقها ناموسية من الدانتيل. وبدأت الأغنيات مع زفة المولود، بالترتيب الذي أعدته فريدة بنفسها وأعطته لمُشغِّل الـ DJ. رقصت النساء، ولم يترك نائل يد ليلاس. همس سامي لفريدة:

- انظري أخاك، ميت عليها!

- غيران؟!!

توقفت الرقصة فجأة، بينما الموسيقى ماضية في طريقها. نظر الجميع تجاه القادم. توقف أمين عسكر في مكانه، وقال:

- أرجع؟

قال سامي:

- تفضل.

صافحه وأخذ بيده إلى كرسي. ورأى مُشغِّل الأغاني الارتباك الذي بدأ فأوقف الجهاز. مكث أمين نحو دقيقتين، ونهض. فتح كيس هدايا صغير وأخرج بيضة من الخزف بزخارف صينية، فتحها وحمل منها سوارًا ذهبيًا صغيرًا. رفعه يريه لسامي، ثم تركه ينساب من بين أصابعه وأغلق عليه البيضة، وقدمها:

- حاجة بسيطة. يتربى في عزك.

لم تتحمس الزائرات للعودة إلى الرقص، لكن نعمة قامت واستأنفت الرقصة، قبل أن تلحق بها الموسيقى. تحمست ليلاس لرقصها فنهضت.

بعد فترة هتف صلاح:

- جُعنا يا خلق الله.

امتدت المائدة والتقطت الصور قبل أن يجلسوا إليها.

بعد الغداء أرسلت رفقة زوجها لوضع عشاء البرسيم للماعز. بعد قليل عاد سمعان متهللاً، رافعاً إصبعيه السبابة والوسطى، يهتف:

- محزه بيضا، انين، صاحبيا، انين.

احتضن سامي وأمطره بالقبلات، ثم تقدم من رفقة وأخذ بيديها يخبرها. انين. جاوبته بهزات من رأسها مبتسمة، ثم قالت ضاحكة:

- الجديان أعز على سمعان من عياله!

أصرَّ أن يسحب سامي؛ فسار وراءهما كل الضيوف. كانت المعزة العجوز البيضاء واقفة تلحس طفليها الأبيضين كالقطن. جلست رفقة تكمل تمزيق الغشاء المخاطي عن رأسي الجديين وتربط سرتيهما. وأخذ سامي يتأملهما. ثم قال:

- ولا إشارة من لون آخر. هذا يعني أنهما ابنا أخيها!

وأشار إلى الجدي الأبيض، الذي يبدو نسخة من أمه في طولها وصفاء بياضها وزرقة عينيها. همست ليلاس لفريدة:

- زنا محارم في بيتك يا هانم؟

سمعتها ثريا، فقالت:

- نموت نعرف مصير الغندور.

وضعت ليلاس إصبعها على شفتيها المكتنزتين:

- هس س س.

- حقيقي، ماذا جرى؟

- ماذا جرى لك أنت يا ثريا؟ ألا تعرفين عاقبة نقض العهد مع الأسياد؟!

- طيب، لا داعي للتفاصيل، قولي لي فقط، أين ذهب؟

- لو عرفت أين ذهب الرجال الذين كانوا قبله، كنت أعرف أين ذهب!

أرادت فريدة أن تجرّها للكلام بطريقة أخرى:

- يبدو أنني أخطأت عندما فرطت في الغندور!

ضحكت ليلاس ولم تقل شيئاً. وتوسعت ابتسامة سامي، واحمرّت أذناه، عندما رأى أنهن أدركن

تصنّته، وانسحب. عادوا إلى جلسة الفرندا، وغابت الشمس، وبدأ الانزعاج من البعوض، رغم حسن الجو. وعند انصراف الزائرين، قالت ليلاس لمنى وزوجها اللذين جاءت معهما إنها ستعود مع نائل.

قرصتها منى في زندها، وقالت:

- بالراحة عليه. أخو صديقتنا، لا تنسي!

عادت فريدة مع وليدها إلى غرفتها، ولحق بها سامي. جلس بجوارها يجس حرارتها بيده، ويتأمل ابنه النائم في حضنها، مشرق الوجه، كأنه يحلم بالغناء وضجة مطرقة النحاس في الهون. بدت فريدة متعبة، وأحس هو الآخر بالتعب. استلقى على طرف السرير محاذراً من لمس سالم، وأشار إلى مهده الصغير بالغرفة:

- أليس من الأفضل أن ينتقل إلى سريرى؟

قالت:

- تركتك تشتري السرير لتفرح به. لكنّ ددق لن يبتعد عن حضني، حتى يُفطم.

أخذا يتبادلان الانطباعات عن الحفل، وكان جديداً أن تُعبر كلماتهما من فوق ثالث، ينتمي إليهما معاً، لكنه يظل شخصاً ثالثاً، وإن أمكن أن تتقاطع الآن فوقه تعليقات عادية عن سهرة؛ فكيف ستمر فوق رأسه البريء مبادلات الغزل التي تقال همساً باللسان وخمساً بالأصابع. أحبك، كلمة ينطق بها سامي نادراً، لكنه يقولها باللمسات كل وقت، ويتلقى في المقابل الرد الذي يبهجه.

جسم فريدة يحبك.

يحتاج سامي إلى أن يكون محبوباً حتى لا يخطئ في التعبير أو يخونه حسن التصرف. ولا تتأخر فريدة عن تقديم البراهين؛ عندما تغمرها لمسته بالغبطة، وعندما تستكين لحضه؛ فيلمس خلجات جسمها من أصابع القدمين إلى الرأس. جسم فريدة يحبك، يقولها لنفسه في حضنها، ويقولها بينما يعمل، ويقولها بينما يحاول أن يخرج حمادة عن صمته، وعندما يلهو خلف الفراشات، وعندما تظهر التماسيح في المياه العذبة. يقولها عندما يفتقد رائحة الأمل، ويقولها ليزجر عينه اللصة عندما تميل إلى جسم آخر يشتهيّه. يعيش بحقيقة أن جسم فريدة يحبه منذ أدرك هذا الحب من مصافحة، ولم يحدث أن أساءت تفسير كلمة قالها بجسمه، في لحظة قوة أو لحظة ضعف، لحظة فرح أو حزن، لحظة فتور أو شهوة.

والآن يحسها مطمئنة ومكتملة بسالم؛ فكيف يشرح لها أنه قلق من الحاجز المنيع الذي نشأ

بينهما، حتى لو كان ارتفاع الطفل المستلقي إصبعين، وإن كان وزنه بلفافاته ثلاثة كيلو جرامات في يومه الثامن، ورغم أن لحمه الطري من لحمها معًا.

استيقظ في الصباح وكان لا يزال عالقًا في أصوات حفل السبوع، وفي فرحه المضطرب بوجود سالم. فتح شُبَّك الغرفة عن آخره دخل شعاع شمس وقسم السرير إلى مثلثين، وأضاء اللفافة الصغيرة البيضاء؛ فبدا مثل خط أحمر نضعه تحت جملة مهمة في كتاب، وأكد على أن سالم مركز الغرفة والوجود. نهض وذهب إلى الشرفة. وقف يتطلع إلى الأفق الواسع أمامه حيث أضاءت الشمس الأشجار وسطح البحيرة التي استطاع أن يتبينها في البعيد بسبب صفاء الجو، لكن كل ما كان يعنيه من النجم العملاق المهيمن على السماء هو ذلك الشعاع اللطيف الذي عبر من النافذة.

ظهر بلدوزر، يحيط به عدد من العمال وبدأ يضرب شوكته في واجهة مزرعة الدواجن. أحس سامي برهبة الهدم، حتى لمبنى معتدٍ. تطلع إلى الجهتين بحثًا عن أمين عسكر. رآه واقفًا على المدق مع رجلين آخرين جهة منازل أبناء ناجي. عاد يتأمل سالم مجددًا، وتضاءل في نظره كل شيء خارج الغرفة. وفكّر بضرورة إتمام الصلح.

أخذ ينتظر لحظة مناسبة لاسترضاء أم الغلام وإقناعها بالموافقة على محضر التسوية والصلح، لكنها بدت ضجرة بما لا يتناسب مع وعكة برد، وانقطعت عن الأكل، ولم تعد ترغب في شيء. ظل أيامًا يحايلها لتقبل الذهاب إلى طبيب، ثم حملها حملًا ذات مساء مع حميه وصلاح إلى عيادة في سراب. فحصها الطبيب، وقال:

- كل شيء طبيعي بالنسبة لسنها. ليس هناك من علاج، سوى الأكل.

أحس بالإحباط. وهمس له فهمي:

- لا بد أن تكون مهيبًا لما ليس منه بد. هذه طبيعة الحياة.

- لست مستعدًا بعد يا أونكل.

اختلس نظرة إليها في مرآة السيارة، وجدها نائمة، همّ أن يقول شيئًا وأوقفه رنين التليفون. كان الأمين فضل الله.

- عندي خبر سخييف يا باشا.

- خير؟

- ليس عاجلاً. الأفضل أن أبلغك به مباشرة.

جاء في الصباح، وأخبره بأنه عرف بطريقته الخاصة أن شرطة المرافق تلقت أمرًا لمرافقة لجنة

من إدارات الإسكان والزراعة وحماية الأراضي لمعاينة السرايا. سأله سامي:

- ما الذي سيعاينونه في السرايا؟

- شكوى وصلت المحافظ ووزارة الزراعة في مصر، أنك بنيت فيلا على الأرض الزراعية.

- والعمل؟

- جهّز تراخيص السرايا يا باشا، وأية أوراق أخرى ترى أنها تنفع.

لعب مع الأمين لعبة سحل النقود، وعاد متحيرًا:

- ليس هناك من ذكر للسرايا يا أونكل سوى في كلمة واحدة بعقد الهبة.

- طبيعي، سرايا أقيمت في أرض صحراوية وقت استصلاحها.

- لكنها معلم من معالم المنطقة.

- يضغطون عليك لتقبل بالتنازل عن حقلك في الطريق.

قضى اليومين التاليين في البحث عن أية وثيقة تشير إلى وجود السرايا، فرز كل ما في أدراج

المكتبة، نقب بين صفوف الكتب، ولم يعثر على مستند أقدم من عقد الكهرباء. وجاء كامل، عشية

اليوم الذي توقعه الأمين لوصول اللجنة. قال قبل أن يجلس:

- في الأمر ما يريب.

قال سامي:

- سنرى.

- ترى ماذا؟ المنطقة مصورة بالقمر الصناعي، أكثر من مرة في العشرين سنة الماضية، كيف

تتحرك كل هذه الجهات على شكوى كيدية قبل أن تنتظر لصور القمر الصناعي؟

قال فهمي:

- هذه نقطة ممتازة. شكرًا يا كامل!

قال كامل:

- فلسفة التشريع في مصر منذ سبعين عامًا تقوم على كلمة «ممنوع» وتترك بجوارها ثغرة

صغيرة تمنح الموظف حق تفسير القانون وجعل الممنوع مسموحًا به لقاء رشوة.

قال فهمي:

- وهكذا تصبح الحقوق سلعة يبيعها الموظف لحسابه!

وقف كامل يطالع المكتبة، وأخذ يعالج أحد الكتب، حتى سحبه من وسط الرصة المحكمة على

أحد الرفوف، وصاح:

- لمحته من مكاني. لديكم هذا الكنز؟!!

عاد بالكتاب الضخم ووضعه على الطاولة:

- في جرائم النشر، محمد بك عبد الله. اقرأه لتعرف أين كنا وإلى أي درك هبطنا.

هزّ سامي رأسه في أسى. وأخذ كامل يُقَلِّب الصفحات الأولى، ويقول:

- مطبوع عام 1951، وقت مولدي. انظر أولاً من المؤلف! مجرد محام، لكنك تقرأ فتجد نفسك

أمام مفكر سياسي وفتيه قانون عظيم.

قال سامي:

- وقت كان لدينا تعليم.

توقف كامل على الفهرس، مشيراً:

- انظر! ليس كتاباً عادياً، بل سفر ضخم مقسّم إلى ثلاثة كتب، الأول منها نظري يشرح فيه

تاريخ فكرة الحرية، وكيف تتحول بعد طول ممارستها إلى عقيدة، وكيف تنتكس عقيدة الحرية

أحياناً، ويتسلل الاستبداد من تحتها. ويشير بوضوح إلى تجارب كالبشفيّة والفاشية والنازية.

قال فهمي:

- غريزة الثأر هي التي تعمي الشعوب وتجعلها تضحي بالحرية؛ في الحالة الروسية كان ثأر

الفقراء، وفي ألمانيا كان الثأر وطنياً، انتقاماً من تسويات ما بعد الحرب الأولى.

قال سامي:

- فكيف نُصنّف ثورة 25 يناير؟

قال كامل:

- طبخة غير ناضجة من الرغبة في الثأر والتطلع إلى الحرية.

قال فهمي:

- شي لله يا ثورة!

قال سامي:

- هناك ثأر لا يزال معلقاً.

قال كامل:

- اقرأ محمد بك عبد الله وستعرف لماذا أخفقت الثورة. ولماذا لم يتحمس لها شخصي الضعيف.

قال فهمي:

- كيف، هل تنبأ محمد بك عبد الله بإخفاق 25 يناير؟!!

- ليس هكذا بالضبط. يتحدث عن مبدأ عام يُفسّر نجاح أو إخفاق أية ثورة في أي مكان. إذا لم تكن حرية الفكر عقيدة لأغلبية تستطيع أن تحميها، تكون الثورة مجرد انتفاضة، وحتى لو تمخضت عن أفضل الدساتير، سريعًا ما تتحول تلك الدساتير إلى أوراق لا تساوي الحبر الذي كُتبت به.

أحس فهمي بالإرهاق، فقال مودعًا:

- اعذروني، لديّ توصيل إلى المدرسة في الصباح.

بعد أن خرج، قال كامل:

- ماذا بك يا سامي، سنجلس هكذا على الناشف؟!!

وأخرج زمزمية نبيذه من سيالته. أحضر سامي كأسين. سكب كامل النبيذ، تذوّق ومصمص شفّتيه متلذذًا:

- ذق، فتحت الليلة قارورة معتّقة.

- كم عامًا؟

ضحك كامل وقال:

- أتراني أصبر أكثر من عام على نبيذ مخزون؟!!

أعاد سامي الحديث إلى مساره:

- هل تعني أن علينا الانتظار حتى يعتنق عبد السلام عقيدة الحرية؟

- قاطعته تمامًا من أجلك، لكن دعني أقول لك، لم يكن في أحلامه ولا أحلام أخويه أن يصلوا إلى المحافظ. هذا كيد المستوطن.

- لماذا يفعل ذلك؟ علاقتنا جيدة وزوجته أصبحت صديقة فريضة.

- المنقبة؟

- هل لديه أخرى؟

- لديه واحدة تحضر سهراته. هناك من يقول إنها راقصة.

- متزوج من منقبة وراقصة؟

- إذا سألته سيعترف بوجود زوجة ثانية، لكنه سيقول إنها خليجية.

- والحقيقة؟

- يعلمها الله.

بدت الحيرة على سامي. شرب نصف كأسه في جرعة واحدة، وسأل:

- لماذا يدّعي أن زوجته الأخرى خليجية؟

- ليبرر ثروته التي لا يعلمها إلا الله والأمن.
صبَّ كامل المزيد من النبيذ، فرفع سامي كأسه إلى فمه ولم يُنزله إلا فارغًا.
- يبدو أنك تريد أن تسكر الليلة يا صاحب السعادة!
- نعم، فإني أن أجب فقدان الوعي، مثلما فاتك أن تشم رائحة الأمل.
- سأشمه عندما أرى أن الحرية صارت عقيدة.
- يعني، لا أمل!
- محمد بك عبد الله، يقول من المستحيل أن يؤمن شعب بكل أفراد بعقيدة الحرية. تكفي نسبة
قادرة على حمايتها.

فرغت الزمزية وأخرج سامي زجاجة ويسكي من بار حميه. ودون أن يغيرا كأسيهما استأنفا
الشرب في سباق صامت. أخذ سامي يُحِيق بوجه كامل كأنه يراه للمرة الأولى. انتبه كامل إلى
تحديقة سامي المبتسمة فابتسم، ودخل معه في تحدٍ للتحديق المتبادل، حتى ضحكا معًا. قرعا
كأسيهما، وهمس كامل:

- اسمع يا صديقي. عرفت أن نعمة فكت خطبتها، وأريدك أن تتوسط لتصفية الأمور.
- أنا لا أعرف خطيبها.
- سكرت يا صديقي؟! تصفية الأمور بيننا، وليس بينها وبين خطيبها.
- هل هذا ممكن؟
- نحاول. كان من المفترض أن يأتي طلب الصلح من صلاح ومنها، لكنني أحب هذه الفتاة.
- من الذي يجب أن يحبها، أنت أم آدم؟!
- أحبها كابنة، أو ربما كعمل فني جميل.
استنشق سامي بعمق، وصفَّق في الهواء ساحقًا بين كفيه بعوضة قبل أن تهاجمه. وجعله هذا
الانتقام يشعر بزهو النصر. قال:
- هي جميلة حقًا.
- ربما جمالها هو الذي أعجز آدم عنها، لكنها بالنسبة لي صورة أبدعها الخالق. غاية في ذاتها،
أو كما يقول فيلسوف، لا أذكر اسمه الآن the thing in itself. هي آية من آيات الفن، أحبها بلا منفعة
عملية. هل تفهمني؟
- أفهمك، أفهمك.
لفهما صمت، وكان سامي يحاول فهم نفسه.

هل يمكن أن يكون ما تشعر به تجاه نعمة ورفقة هو the thing in itself وهل يمكن أن تتفهم فريدة هذه المشاعر؟

- أغلق عينيه ليرى نفسه، لكن كامل عاجله:
- أنت أيضاً تحبها. لكنك اخترت الإخلاص لحبك القديم.
- لم أفكر أن أتزوج نعمة، وأنت وصفتها. هي مجرد تمثال جميل.
- لا بد أنك تعرف لوحة رينوار «الحياة والموت».
- نعم، أعرفها. أهدتني زميلة في الكلية مستنسخاً منها، لم يزل في شقتي بجاردن سيتي.
- كانت زميلة أم حبيبة؟
- زميلة. كانت تستعير شقتي مع حبيبها.
- عندما أرى نعمة بجوار أم العيال، أتذكر لوحة رينوار يا صديقي.
- تتحامل دائماً على زوجتك!
- صديقك رجل عقل، لا يبالغ.
- وليس من العقل أن تكون جارحاً لأم أولادك.
- صديقي، أخذنا السكر هذه الليلة، لكنني واعٍ إلى حد أن أطلب منك أن تفهم اهتمامي بنعمة في حدوده.

استيقظ سامي مبكراً، تدور في رأسه حوارات الليل مشوشة كأنها كانت حلمًا. احتضن فريدة فاستيقظت. أراد أن يُحدِّثها عن الشيء في ذاته، لكنه لم يجد الفكرة واضحة في رأسه؛ فراح في النوم مجدداً. وأيقظته فريدة عندما وصلت اللجنة في الحادية عشرة ارتدى ملابسه كيما اتفق. ونزل مسرعاً كانت ثلاث سيارات ومعها بوكس الشرطة قد اتخذت من الجزء المهدم من مزرعة الدواجن ساحة وقوف. وأخذ نحو عشرة رجال يدورون حول السرايا من كل الجهات، وكان فهمي وصلاح واقفين مع شحاتة وفتوح. مضى سامي نحوهم. قال المهندس الطويل صاحب الزبيبة الواحدة:

- لا تقلق يا سامي باشا.
- قال صلاح:
- يقلق على ماذا؟ هذه نكتة. السرايا أكبر سنًا مني.
- معك حق يا حاج صلاح. لكن لا بد من المعاينة، اللجنة مُشكَّلة بأمر من سيادة اللواء المحافظ.
- دار الرجال حول السرايا وتجمعوا عند الباب الرئيسي داخل حديقة الزهور التي صارت بقعة

جرداء من دهس السيارات وبلدوزر الهدم. أخذوا يتطلعون إلى الواجهة. تقدّم سامي وعرف نفسه. صافحه شريف ضابط النقطة الشاب وعرفه بأحدهم:

- الباشمهندس سمير لوزة، مدير إدارة الإسكان بالمحافظة، ورئيس لجنة المعاينة.

صافحه سامي، وقال:

- لا أعرف ماذا أقول، عن سرايا تعرفون أن عمرها يتجاوز عمر كل قوانين التنظيم!

قال الرجل بجفاء:

- لا نستطيع أن نغفل شكوى تصلنا يا بني.

قال فهمي:

- وصور القمر الصناعي، أليست لدى المحافظة؟

- هذا كلام سليم، لكن فحص الصور يكون بطلب المشكو في حقه. نحن نسرع لوقف أية أعمال

جارية إن وجدت. أليس لديكم رخصة للبيت؟ رخصة حتى للترميمات؟

- لدينا عقد الكهرباء.

- أحضره.

دخل سامي وعاد بملف الأوراق، طالعها الرجل، وقال:

- العقد جديد يعطي مصداقية للشكوى. وكيف سمحوا لك بتوصيل الكهرباء دون عقود ملكية أو

رسوم هندسية؟

- كل الموظفين يعرفون عمر البيت.

ابتسم الرجل وقال:

- قلت لك يا سيد سامي. لا يُعتد إلا بالأوراق.

وأخرج ورقة من جيبه، نقل بيانات عقد الكهرباء وتاريخه. وأعاد الملف لسامي، ثم قال:

- سنكتب تقريرنا بما يرضي ربنا.

لم تكثر أم الغلام بالسؤال عن هوية الرجال الذين داروا حول السرايا. وبعد يومين عثروا عليها قبل طلوع الشمس ميتة بجوار حافة القبر المفتوح. بكت فريدة، وظل سامي صامتًا. طلب فهمي صلاح، وطلبت فريدة ريهام زوجة أمين لتشرف على تغسيل العجوز طبقًا للشرع. وقفت مع رفقة ونعمة يلين ما تطلبه ريهام حتى لفن الميتة في كفنهما. بدت فيه مثل صبي ينام القرفصاء. وضعوها في الصندوق وحملوها على عربة صلاح وركب سامي بجواره، وقاد فهمي خلفهما قبل موعد صلاة الظهر بقليل. عقب الصلاة عليها. وقف صلاح بباب المسجد هاتفًا بالمصلين:

- شكر الله سعيكم، العزاء ينتهي هنا. سندفن في الشرقية.

أخذ الرجال يصافحونه ويمضون. ثم ساعده آخر المنصرفين في حمل النعش إلى العربة. وانطلقت العربتان على الطريق. بعد مسافة كافية للإيهام بالسفر بعيدًا، التفوا عائدين إلى البستان. وأراحوا العجوز في قبرها تحت الدغل. بعد أن غطوها بالتراب أغلقوا فوقها بالرخام، وأقاموا الشاهد عند رأسها. بكى صلاح بعد أن ظل متماسكًا حتى لحظة إنزالها القبر، بينما تواصل جمود سامي. أمسكت فريدة برأسه بين يديها، وأخذت تهزه، وتردد:

- أبك يا حبي.

عادوا إلى الفرندا. جلسوا يُقَيِّدُهم الصمت إلى مقاعدهم. وترشح عليهم أشعة الشمس من بين مربعات تكعيبة العنب وأغصانها، التي تعرت ولم يعد بوسعها أن ترد لهيب الشمس. بين وقت وآخر، يأتي أحدهم برد فعل مبالغ على ذبابة وقفت فوق يده، أو يتأمل سقف التكعيبة فوقهم إثر عبور فأر أو هبوط غراب عليها. يستجيب الآخرون لتحديقته فيرفعون رؤوسهم كأن كل تحديات الحياة قد تركزت في هذه الحركة الخاطفة أو تلك.

شموا عطرًا؛ فتطلعوا نحو القادم. حيًا أمين الجالسين برفع يديه وأسرع بالجلوس حتى لا ينهضوا. اختار أن يجلس لصق سامي. وهمس:

- البقاء لله.

رَبَّتْ سامي يده.

بعد لحظات من الصمت همس مجددًا:

- ما الذي حدث؟

تحير سامي، ثم قال:

- ماتت جدتي!

- أقصد، ما حدث منذ يومين. كنت مسافرًا، عدت من ساعة واحدة. هذا هبل بصراحة.

- اللجنة! ألم تكن تعرف؟

- أقسم بحياة بناتي.

رَبَّت سامي كنفه يُسكته، لكنه عاد يقول:

- قلت لك نكسر دائرة الشر وتتصالحون.

همس سامي:

- سنرى، ليس هذا بالظرف المناسب.

أذن العصر، فوقف أمين. وقال لسامي. بينما يصفحه:

- يبدو أن زوجتي عندكم، نادها بعد إذنك.

انصرف بزوجته. وجاء أبناء ناجي بزوجاتهم، فلم يردهم أحد. جلسوا دقائق وانصرفوا دون زوجاتهم اللاتي مكثن وقتًا أطول مع فريدة والنساء بالداخل. وظل المعزون يتوافدون حتى الغروب. وعندما أذن المغرب لم يكن هناك سوى أهل البيت. خرجت فريدة ونعمة ورفقة إلى الفرندا. قالت رفقة:

- الأكل جاهز.

وأخذت تُهَيِّئ طاولة للعشاء. نهضت فريدة ونعمة تساعداها. أخذن يرحن إلى المطبخ ويجئن، وعندما اكتملت المائدة، قال صلاح:

- ما كل هذا؟ لسنا في عرس.

قالت فريدة:

- لم نطبخ شيئًا. هذا ما أرسله أمين.

رد صلاح:

- لا والله؟ يعرف الأصول!

بعد صلاة العشاء استأنف المعزون توافدهم. وصار صلاح يهمس لسامي بأسمائهم؛ فيصافحهم وينسى الأسماء في الحال. مع الوقت كان عدد المعزين يتناقص، حتى بدا أن أحدًا لن يأتي بعد، لكن رجلًا أقبل، لم ينهض له صلاح أو يُعرّف به، بينما أخذ سامي يبحث في ذاكرته عن الرجل الذي صافحه بحرارة وجلس متأثرًا. بين وقت وآخر يهز رأسه ويقول: «الله يرحمك يا أم الغلام»

ثم انتهز فرصة دخول صلاح إلى المرحاض، فانتقل إلى جوار سامي، وهمس:

- قاصدك في خدمة يا باشا.

من نبرته عرف سامي الرجل الذي لم يستطع تذكّر ملامحه، هتف به:

- أنت فارس؟

- برافو عليك يا باشا.

- فكّرت فيما قالته الهانم، لكني حجزت موعد العملية، سأعملها في سراب، وناقصني مبلغ صغير.

مدّ سامي يده إلى جيبه، ولعب معه لعبة انزلاق النقود، فدهسها فارس في جيبه ومضى. عاد صلاح وبدا أن أحدًا من الغرباء لن يأتي بعد. توحد أهل البيت مجددًا في جلسة واحدة. كان الإرهاق بادياً عليهم. لكن أحدًا لم يبادر بطلب فض الجلسة. كأنهم يحملون بينهم شيئًا هشًا، يمكن لأدنى حركة أن تجعله يتهشم. وبدت الحوارات القليلة مليئة بالتعاطف، بين شخص وآخر. أكلت؟ هل تشرب شيئًا؟ تعبت؟ أليس هذا الكرسي أريح لك؟ وتحاشى جميعهم ذكر أم الغلام الراقدة على مقربة. كان سامي الأكثر صمتًا بين الجميع، تتعلق نظرتة بالدغل، وعندما يتفوه أحدهم بكلمة يتحول بنظرته إليه مندهشًا بتركيز بالغ مع الملاحظة العابرة كأنه يشهد معجزة.

بدأ حمادة ينعس؛ فاستأذن وانصرف إلى المعلف، واستأذنت رفقة لتمضي بسمعان، لكن صلاح استمهلها:

- ليس في هذا الظلام. انتظري سأخذكما في طريقي.

ثم اتجه إلى فهمي، يسأله:

- تشرب شايًا؟

قال فهمي:

- ألم يتأخر الوقت؟

أومأ صلاح بالنفي، ونهض وأحضر فرع مانجو جاف من تحت الشجر. كسّره، وجلس على الحصيرة يشعل النار؛ فتجمعوا حوله. وبدا الجميع معنيًا بهذه النار التي أضاءت وجوههم، وخصوصًا فريدة ونعمة. بين وقت وآخر تُلقى إحداهما بقطعة حطب في المجرمة، فتفعل الأخرى مثلها، ويتزايد الدخان، ويبدأ صلاح في النفخ حتى تشتعل النار ويختفي الدخان فتلقي إحداهما بقطعة أخرى. قطع صلاح الصمت هاتفًا بالمرأتين الشابتين:

- كفى. لستما في سباق. الدنيا نار أصلًا.

تبادلتا النظرات، دون كلمة. عاد يقول:

- لن تنتظر أم الغلام سالم الليلة. صارت معه.

أجابه سامي:

- ذهبت إلى من تحبهم.

قالت فريدة:

- لم أقل للبنات شيئاً. ولم تنتبها إلى شيء. كانتا في الجهة الأخرى تتبادلان ركوب الحمار، وتصويره بينما يلتهم زهور البرسيم.

قال صلاح:

- لن تستطيعي أن تقولي لهما إنها ذهبت إلى المدرسة!

لم تتمكن فريدة من كتم ضحكتها، وابتسمت نعمة. وأخذ سامي يتأملهما.

سمعوا طقطقة موتوسيكل تقترب. لحظات ودخل كامل. سلّم وجلس. همس لسامي:

- آسف يا صديقي، تأخرت. ليست لديّ طاقة لتجمعات العزاء.

حطّ الصمت مجدداً. نهض صلاح وأشار إلى نعمة ورققة وسمعان، فنهضوا وساروا معه. كانت نعمة آخر المنصرفين. وقفت فبدت في جلبابها الأسود بلمعته الخفيفة لينة ودقيقة مثل فلوّة فطمت لتوها. وبمجرد أن خطت بدأ قوامها السخي يتقلّب من قبضة الحزن، ويترك طيفه في الهواء، معلقاً كصور مرآيا متتابعة. دار محرك السيارة وبدأت عجلاتها تدهس المدق، وأخذت أطياف نعمة تتبدد. ترامق سامي وكامل ولم ينبسا.

عندما سعد سامي للنوم، كانت فريدة لا تزال مستيقظة تتقلب في الفراش. استلقى بجوارها يلفهما صمت من نوع جديد، مختلف عن صمت الخصام وصمت الحيرة وصمت الرضا وصمت الهناء بعد المتعة. كان صمت العجز عن وصف فوضى المشاعر؛ الحزن على الميتة؛ سكينّة ما بعد الفقد، التضامن وبهجة أنهما معاً وبينهما برهان امتزاجهما؛ سالم الصغير المتبرم من الحر.

عندما سحبها النوم، أخذ يتأملها، يتعرف على صوت تنفّسها في ظل غياب صوت الغناء في المعلف. أيقظها تحديقته. تنهّدت، ومسحت بكفها شعره، وجعلت أصابعها تتخلله، ثم قالت:

- نساء أولاد إبراهيم طبيبات. لكن زوجة الأوسط، الذي تسمونه الحافي، ما اسمه؟

- عبد السلام.

- نعم. زوجته ليلي. دمها عسل. ستكون صديقتي.

بعد فترة صمت قالت:

- طعمة، مثل رقيقة حبيبة قلبك.

لم تنجح في زحزحته عن الصمت. توقفت عن تدليك رأسه، ثم سحبت كفها وقالت:

- ريهام ليست الزوجة الوحيدة لأمين فعلاً.

- كلام كامل حقيقي إذن؟

- لكنهن ثلاث، لا اثنتين. وهي متقبلة ذلك تمامًا.

- طبيعي، واحدة متدينة مثلها تمتل للشرع.

- ليس الشرع فحسب؛ تقول إن لديه لحظات في حياته لا تستطيع أن تكون جزءًا منها «لا هو

أجبرني، ولا أنا منعته من الزواج».

- وماذا عن ضررتها؟

- لم أطلب أية تفاصيل.

بعد لحظات صمت قالت:

- ينوي أن يُكَلِّمك في المشاركة بخط مياه واسع، وربما يكون أفضل لقوة المياه عندنا.

- ليست لدي ثقة فيه.

واظب أمين على إرسال الطعام ثلاثة أيام، رغم رجاءات سامي له، ورجاءات فريدة لريهام أن يتوقف. واقتنع سامي بالاشتراك في خط المياه الجديد، ليس لأنه سيُحسِّن قوة دفع المياه فحسب، بل لأنه سيرتبط بخط مختلف، يتبع مياه المدينة، نقيًا من العكارة والرمال التي تحملها مياه الريف سيئة التنقية. وقَّع إقرارًا لأمين يتضمن موافقته على إلغاء خط المياه الخاص به والاشتراك في الخط الجديد، ودفع المساهمة التي طلبها في تكلفة التغييرات.

بعد أيام قليلة جاء العمال، مدوا الأنبوب الجديد، وتم رفع الأنبوب الضيق الذي كان يخدم السرايا وحدها. قال فهمي:

- خطوة جيدة... الحياة لا تطاق في ظل حرب مع الجار.

ظهر رجال المساحة مرة أخرى على المدق، مع أمين عسكر ومصطفى ناجي، ووضعت علامات حدود جديدة. بعد الانتهاء وانصراف مصطفى ناجي، حرص أمين أن يبلغ سامي، بشرائه ربع فدان آخر من مصطفى:

- لعلمك أخواه خصماه. الثلاثة تنافسوا على البيع.

- بالتوفيق.

عاد سيد زكي للاتصال اليومي بفهمي، يحثه على إقناع سامي بإتمام الاتفاق. في النهاية قال

فهمي:

- لنخلص من هذا الصداق.

- كما ترى يا عمي.

انعقدت الجلسة بمن حضروها سابقاً، وكان أبناء ناجي هادئين، وشرع سيد زكي في كتابة ديبااجة محضر الصلح. وفي لحظة توقف عن الكتابة، يسأل القاضيين الآخرين، بينما يشير إلى أمين:

- نكتب الأخ... طرفاً ثالثاً في الاتفاق؟

قال الرجلان:

- نعم، من الطبيعي أن يكون أمين طرفاً الآن.

انتهى من كتابة المحضر من خمس نسخ لأطراف التعاقد، وبدأت النسخ تدور عليهم للتوقيع.

لم تعد ليلى تنقطع عن زيارة فريدة. تأتي أحياناً حمراء بأثر حرارة الفرن على وجهها والدقيق متناثر على ملابسها، تحمل بضعة أرغفة ساخنة في أي وقت تخبز فيه، وترتد في لحظتها، وتأتي أحياناً ببعض الخضراوات قطفها من الحقل أو بدورق حليب. وترد فريدة مجاملاتها بهدايا من الملابس أو الحلوى. وعندما تأتي لتمكث تمتد جلساتهما، ما بين الضحك والجد. صارت فريدة بفضلها جزءاً من مجتمع لا تراه، تتناثر بيوته خفية وسط الأشجار، بينما تربطها خيوط من الحب والكراهية والغيرة والحسد وعلاقات الزواج والطلاق.

ظهر المسّاحون مجدداً، وقالت ليلى:

- بعنا للمجرم ثلث فدان، من أجل زواج مريم.

- وهل لديكم ثلث فدان تنفقون ثمنه على زواج كل واحد من عيالكم؟

- ولا فكرنا في هذا. لكن ما باليد حيلة. تكاليف الزواج أصبحت خراب بيوت.

أخذت تعدد لفريدة ما يجب أن تشتريه لجهاز عرس ابنتها. غسالتان، صغيرة وكبيرة. ثلاجة وديب فريزر. سجاد. ومن مفارش السرير أربعين، ومثلها المناشف، والبيجامات، غير أثاث غرفة وأثاث وأدوات المطبخ. وقبل كل هذا. في الخطوبة يرسل العريس بخروف هدية، وترد أسرة العروس بموتوسيكل، وأحياناً بتوكتوك.

سألتها فريدة مندهشة:

- توكتوك؟!!

- الموتوسيكل كان موضحة، لكن اتجهوا للتوكتوك، من ناحية هدية ومن ناحية فرصة عمل

للعريس.

قالت فريدة:

- كأن البنات لن تشتري شيئاً بقية حياتها.

- لا، وخذي عندك ليلة الفرح. عشاء لكل أهل التل.

قالت فريدة:

- مريم صغيرة.

- لا. تخرجت من سنة.

- أية كلية؟

ضحكت ليلي:

- بنت الحافي تتخرج من كلية؟! دبلوم تجارة.

بدأت صورة زوج ليلي وأخوته تختلف لدى سامي، لم يعد لهم سمت العدو، وهم أنفسهم صاروا يحيونه، بينما يعبرون صامتين أمام أمين. ولم يلبث الجفاء الصامت مع أمين أن انفجر. خرج سامي على أصوات سباب. كان الأبناء الشباب للأخوة يسبون أمين، بينما يقف الآباء مترددين، لا يمنعون أبناءهم بحسم ولا يريدون للمواجهة أن تتطور. ظلت شتائم الشباب تتدافع، دون أن يلتفت أمين إليهم، ويردد لأبائهم:

- كل قرش أنفقته مكتوب. حقي، وستدفعونه.

زاد غضب الشباب بسبب هدوئه المتعطر، وشرعوا يقتربون منه ليضربوه. مدَّ يده إلى جنبه بحركة خاطفة. ورفعها بمسدس. - سأدفنكم تحت أقدامكم.

ما لم يفهمه سامي وحموه من الخصام ثم العراك، فسرتة ليلي في المساء. فور تحقيق اتفاق الطريق مع سامي. أخرج أمين للأخوة قائمة بما دفعه عنهم من تكاليف الدعاوى القضائية ضد سامي وأم الغلام ومحاضر الشرطة ورسوم وإكراميات في إدارة المساحة. قال فهمي: - للأسف، من كانت لتسعد بهذه الحكاية اللطيفة ماتت.

صار أمين عسكر يأتي كل يوم، يترك سيارته على المدق، لا يتبقى بجوارها إلا زيق رفيع يصلح لمرور شخص واحد، وبالقرب منها تتراص مقاعد وطاولة تحت مظلة كبيرة، يجلس وحده أو يستقبل زواراً بعضهم تحمل سياراتهم أرقاماً رسمية، تصطف طابوراً خلف سيارته يطيل مدى الاختناق على المدق. عندما يمر مصطفى ناجي فوق حماره ينعطف إلى داخل بستان سامي، بينما يمر عبد السلام بجنبه على قدميه الحافيتين في جلاباب الشغل المتسخ، يتحدّب ظهره تحت سطوة

أبهة أمين، الذي يجلس واضعًا ساقًا على ساق بحذائه اللامع في وجه العابرين، وبين يديه عامل يلبي أوامره.

بدأت وساطات بين الطرفين، ثم عُقدت جلسة أقرت دينه على الأخوة الذين لا يستطيعون رده نقدًا، فقدّره القضاة بثمن ثلاثة قراريط. وفي اليوم التالي ظهر المسّاحون مع سيد زكي وأمين، والأخوة الثلاثة. واستغرق الأمر يومًا كاملًا جرى فيه قياس كل أرض الورثة، وتحريك الحدود بين المتبقي من أنصبتهم، بحيث يدفع كل منهم حصته في القراريط الثلاثة التي أخذها أمين من الأرض الملاصقة له. في النهاية صار المدق مبرقشًا بأثر علامات الحدود الجديدة التي دُفنت في وسطه.

بعد أيام انتصب أمام واجهة مزرعة الدواجن عمودان من الخشب، حملا بينهما لافتة بطول الواجحة. وقف فهمي مع حفيدتيه في الشرفة يتطلعون إلى ما يجري، قالت الصغيرة مبتهجة:

- جارنا، زوج طنط ريهام سييني مدرسة. عندما تفتح ننتقل إليها.

قالت هند:

- أبة مدرسة يا هيلة؟!!

- الصورة هذه نفسها، على سور مدرستنا.

- الصورة في كل مكان يا فالحة.

انتزع حوار البنيتين ابتسامة من جدتهما الواقف غاضبًا. لم يكن سامي وفريدة قد استيقظا، حيث بات نومهما مرتبطبًا بدورات نوم الصغير المتقلبة. اضطر فهمي إلى الطرق على الباب وإيقاظ سامي:

- قم لنعرف ما الذي يجري أمامنا.

كانت الساعة قد تعدت العاشرة، ولم يفلح في معرفة شيء من العمال أكثر من أنهم من شركة دعاية تعاقد معها الدكتور أمين على إقامة اللافتة.

قال فهمي:

- لن نسكت على هذا. هاته لي على التليفون.

طلبه سامي، وبدا صوت أمين مسموعًا خارج الهاتف رغم امتلائه بالنوم:

- أنا لا أنام إلا الفجر يا سامي. خيرًا لماذا تطلبني الآن؟

بدأ سامي يعتذر، فزقق فهمي غاضبًا:

- لا تعتذر، ليأت الآن.

قال أمين:

- نصيحة يا سامي. قل لحميك هذه اللهجة غير مقبولة.
- إذن. تعال لنتفاهم.
- عندما آتي نتكلم.

تدافعت الأحداث، حتى أن أحدًا في السرايا لم يلاحظ أن حمادة لم يستأنف تشغيل الأغاني بعد أيام العزاء، ولم يعد يخرج في الليل أو يأتيه أصدقاء. أخذ يزداد كسلًا وترهلاً، لا يفعل شيئًا سوى لف السجائر وشرب الشاي والقهوة بمعدل غريب، اهتمت به رفقة ورأت أن تعالج الأمر بنفسها. العمل الذي كانت تقسمه بينه وبين سمعان، صارت تقسمه على ثلاثة، وتتسامح مع تقصيره، لكن وضعه أخذ يتفاقم لدرجة استشعرت معها الخطر؛ فأنت بأخته مسكة لتقنعه بأن يذهب عندها يومًا أو يومين. انفردت به مسكة وقتًا طويلاً، ثم خرجت باكياً:

- مستحيل. دماغه حجر.

قالت رفقة:

- كان يخرج كل ليلة، وفجأة نام هذه النومة.

- أين كان يذهب؟ من يوم وصوله لم يزرنا ولا مرة. لم يعجبه استقبال نور له.

- كان ملمومًا على شباب منظرهم يخوف. وعندما نلومه كان يقول إن بعض خروجاته عندك.

ولم تجد رفقة بدءًا من تنبيه سامي إلى وضعه، في وقت مشحون بالتوتر. ولم يستطع إقناعه بالذهاب إلى طبيب أو القيام بإجازة. في مساء اليوم نفسه جاء صلاح، وطلب منه سامي عاملاً إضافياً.

- وحمادة سيبقي؟! لن نبيعه لحمًا في النهاية.

- أرجوك يا عمي. الشاب في محنة. لن نتخلى عنه.

قال صلاح مترجعًا:

- عمال الزراعة في ندرة الكبريت الأحمر. نبيع البهائم الكبيرة.

واقفه سامي فطلب جاد تاجر شلشلمون. وبعد أن أغلق الخط، قال:

- سيأتي غدًا.

وصل الرجل بعد العصر بسيارتي نقل كبيرتين. تجادل مع صلاح في السعر وانتهيا إلى الاتفاق وقراءة الفاتحة. وأشار جاد إلى رجاله للبدء في تحميل الحيوانات. بدا صعودها إلى صندوق العربتين أسهل من نزولها عندما جاءت، في وجود تل الروث الجاف بجوار المعلف. خطت الجمال واحدًا وراء الآخر وصعدت دون بكاء، واصطفوا جلوسًا في صندوق العربة مثل ثلاثة من تماثيل أبي الهول. لم يجذب انتباههم شيء في الأفق الواسع، حتى الخضرة المشرقة لحقل البرسيم لم تحرك شهيتهم. وظلت عيونهم الكحيلّة ثابتة تحقّق في الفراغ.

مساكين، ينزحون وقد تركوا خلفهم عظام أخيهام.

كان صعود العجول إلى العربة متعبًا. أثارت الكثير من الجلبة. بمجرد فك قيد العجل تتراقص في عينيه كل الرغبات؛ القفز على غيره، الجري إلى مخزن العلف، الرغبة في الهجاج إلى مكان بعيد. لكن جاد زعلوك ورجاله كانوا جاهزين. يسحب أحدهم العجل ويرافقه على الجانبين اثنان آخران بالخيزران في يديهما يلهبان ظهره عند كل محاولة تمرد، حتى إذا أصدوه إلى التل وسحبوه إلى صندوق العربة وقف ينتفض ويتبول. في النهاية حزم الرجال صندوق العربة بالحبال. أحس سامي في رؤوس العجول المرفوعة شموخًا، لكن عيونها الجميلة مترعة بالعتاب. لا يعرف إن كان ذلك لأنه وقف على الحياد عندما كانت تصارع الرجال، أم أنها كانت تحمل هذا الغضب منذ وضعت الأحبال في أعناقها، أم لأنها تعاتبه لأنها تعي أنه بالكاد أحس بوجودها طوال إقامتها في المelf. انشغل عنها بالماعز والجمال.

لم يتسع قلبك للجميع.

دار الرجال حول العربتين يستوثقون من متانة الأحبال للمرة الأخيرة، وقفزوا في عربة الجمال. وركب جاد في الكابينة إلى جوار ابنه سائق سيارة العجول، ملوحًا، وما أن استدارت السيارتان عاد سامي إلى ساحة المelf، وجدها أوسع مما كانت. وأحس بالوحشة. دخل إلى حمادة، حاول أن يستنهضه، دون جدوى.

خرج محبطًا. وانتبه إلى أن سمعان يمشي ورائه، التفت إليه وأمسك بيده، وسار به إلى قبر أم الغلام. وقفا أمامها. بدأ سامي يقرأ الفاتحة. تطلع إليه سمعان، ثم شرع يتمتم: الراحة الأبدية أعطهم يا رب، ونورك الأزلي فليضيء لهم، فلتسترح نفس المؤمنين، برحمة الله والسلام. توسعت ابتسامة سامي، وتعثّر في تلاوته مندھشًا من سلامة تلاوة سمعان، وختم معه: آمين.

عندما وضع رأسه على الوسادة، راح صوت سمعان يتردد في أذنيه، ثم تكاثرت عليه فوضى الأحاسيس. أخذ يفكر بحمادة كمعضلة، دون أن يهتدي إلى طريقة لإخراجه من حالته، ثم يفكر برياح الشر التي قد تأتي مع الخطوة القادمة من أمين عسكر، ثم يستعيد لحظات إصعاد البهائم للعربة، ونظراتها الأخيرة، فيشعر بأن كل ما مر به حتى اليوم في تل المساخيط حلم، أو رؤيا من رؤى السفر بخياله إلى مستقبل لم يحدث بعد، ثم يتأمل نوم فريدة وسالم بحضنها، فيشعر بأنه حقيقي، وأن هذه هي حياته التي يجب أن يدافع عنها.

مع أول خيوط النور بدأت جلبة رجال يتنادون ثم ضربات فؤوس وكواريك. فتح الشبّاك فرأى

في الضوء الشحيح العمال منخرطين في حفر مستطيلات، بدا واضحًا أنها قواعد أعمدة بناء. أغلق الشُّبَّاك غاضبًا وغادر غرفته. وجد حماه مستيقظًا وبادره:

- رأيت الحفر. الولد البلطجي مُصِرٌّ على أن يبتلع الطريق.

نزلا، وجلسا في الفرندا صامتين. ثم قال سامي:

- سأطلب عمي صلاح.

- لم يزل الوقت مبكرًا، ليس هناك ما نفعله الآن.

بدأت ضجة قدوم عربات، ما تلبث أن ظهرت خرخشات إفراغها لحمولاتها. طلبا صلاح؛ فجاء ووقف ثلاثتهم يعاينون ما يجري. وصل أمين. خطا متجهًا نحو العمال. بادره فهمي:

- ماذا يجري هنا؟

- وما الذي يعينيك؟

- حقنا القانوني. ألم تسمع عن حق الارتفاق؟

- تراني جاهلاً؟

قال صلاح:

- طالما تعلمه، لماذا لم تترك حرماً للطريق، مساحة كالتي تراها أمام السرايا المبنية من سبعين سنة؟

- اهدأ يا جدع.

- جدع يا ولد؟ أنا جدع؟!!

جرى صلاح نحو سيارته، ووقف أمين في مكانه لا يتحرك. هرول فهمي وراء صلاح، وأغلق باب السيارة رغماً عنه، وسحبه باتجاه الفرندا.

نظر أمين إلى سامي، وقال بهدوء:

- ألم أقل لك لا تترك من حولك يوقعونك في المشاكل؟

- أية مشاكل، حدثك أنكل فهمي بالقانون ولم تستجب.

- يا حبيبي اقرأ محضر الصلح. أنت وقَّعت على تنازل عن المدق، وبموجب هذا التنازل فأنا تارك أمامي ثلاثة أمتار حق ارتفاق.

- الاتفاق أن التنازل لن يحدث إلا عندما تصبح المنطقة ضمن كردون السكن.

- قبل أن تكتمل هذه الفيلا، ستدخل أرضنا الكردون. هذا بجهودي، وينبغي أن نفرح، لأنك ستصبح مليونيرًا بدلاً من أن تبحث عن زيق بعرض ثلاثة أمتار.

عاد سامي إلى فهمي وصلاح وفريدة الجالسين في صمت وجهامة.

قال فهمي:

- لا تصدق شيئاً. الولد قليل الأدب، ولا داعي للكلام معه. لا بد أن هناك قانوناً.

قالت فريدة:

- دعوني أطلب ريهام.

ردت عليها:

- حبيبتي، لا دخل لي بهذه الأمور.

- كيف لا تستطيعين، قد تسكنين هذه الفيلا وفي صالحك أن تكون لها حديقة تحميك حتى من

أصوات الشارع.

- أختي، قلت لك من قبل هناك أشياء في حياته لا أستطيع أن أكون فيها. ولا أريد أن أعرف لمن

ستكون الفيلا، أريد أن أربي ابنتي لا أكثر.

شكرتها فريدة وأغلقت الخط، وقالت لسامي:

- استشر أونكل لطيف.

أجابه:

- تقدم بشكوى عاجلة في رئاسة المدينة، واذهب برقم الشكوى إلى قسم الشرطة وحرر محضراً

بالواقعة، لنر إن كانت توقف الإنشاءات مباشرة، وسيأتيك سعيد عبد الخالق، ويرفع دعوى

مستعجلة، استناداً إلى حق الارتفاق.

قاد فهمي سيارته وركب بجواره صلاح وخلفهما جلس سامي. وصلوا إلى المدينة، وأخذ صلاح

يوجه فهمي المتوتر.

- يمين، يسار، يوه، سامحني. أقصد يمين قليلاً، لف وارجع.

وصلوا إلى مبنى مجلد بجرانيت تساقطت بعض بلاطاته، يحمل لافتة ضخمة «مجلس مدينة تل

المساخيط وتوابعها».

قال فهمي:

- جئنا نبحث عن حق الارتفاق؟! مجلس المدينة نفسه راكب الشارع!

اخترقوا زحام الصاعدين والهابطين على السلم الضيق واحداً وراء الآخر. دخلوا مكتب سكرتير

رئيس المدينة، يستأذنون في الدخول. أجاب الرجل:

- ما الأمر، قد أساعدكم.

- قال سامي:

- حاول فقط أن تبلغه.

زعق الرجل النحيل:

- يا بيه، رؤية الرئيس ليست الهدف. ما يلزمكم قضاء مصلحتكم.

أخذ سامي يتأمل المكتب الصغير مهترئ الأثاث ورقة حال الموظف البادية، فأدرك أنه يعالج نقص الهيبة بالعصبية. وبينما يقنعونه بأن يسمح لهم بالدخول، كان العديد من الرجال يدخلون دون استئذانه، ينادي عليهم فيشبحون بأيديهم، فأشار فهمي لسامي أن يتبعه ودخلوا. بدا رئيس المدينة مشتتاً بين مجموعات من الناس متحلقة حول طاولته. اهتم بفهمي وسامي. وأشار إليهما أن يقتربا وأخذ يستمع إليهما وسط الضجيج، ثم قال:

- قدموا شكوى إلكترونية في مركز الميكروفيلم، هنا في نفس المبنى. ستجدان بابه في الشارع الجانبي جهة اليسار.

قال فهمي:

- لكننا هنا عند رئيس المدينة.

- صدقني، هذا أفضل. الشكاوى الإلكترونية تكون متاحة منذ لحظة تقديمها أمام كل المسؤولين في المحافظة. وموضوعكم متداخل بين الزراعة والإسكان. فعلوا ما أوصى به رئيس المدينة، وبمجرد أن حصلوا على رقم الشكاوى، طلب سامي الأمين فضل الله. أتاه صوت الرجل متهللاً:

- يا ألف نهار أبيض. التليفون نور يا سامي باشا.

- نريد أن نحرر محضراً. وما زلنا في تل المساخيط، نذهب إلى القسم أم تأتي إليكم؟

- تعال عندنا يا باشا. نعمل معك أحلى واجب. شريف باشا يحبك أصلاً.

لم يوافق فهمي على مقترح الذهاب إلى النقطة، قال:

- لماذا نذهب للنقطة، إذا كنا بجوار القسم.

حرر لهم أمين الشرطة الجالس في الاستقبال المحضر، ولعب سامي لعبة سحل النقود. في طريق العودة اقترح صلاح المرور بالجمعية الزراعية. أمام المكتب الذي سيدخله، همس لسامي مبتسماً:

- سندخل الآن على شحاتة عسل، لا تشغل نفسك بالزبيبة والزبيبتين.

رفع الرجل رأسه ووقف مُرَجَّبًا. بعد أن استمع إلى سامي. وقال:

- أمين حصل على ترخيص لبناء بيت للعمال.

قال صلاح:

- يقول إنه يبني فيلا.

قال المهندس:

- لا أحد يمنعه من تسكين عماله في فيلا.

قال فهمي:

- وعدوانه على الطريق؟

- قَدِّم محضر الصلح بين أوراق الترخيص، كتصالح على حق الارتفاق.

بعد أن عادوا، طلب سامي محمد لطيف، وحكى له حصيلة المسعى. أجابه:

- شوف يا سامي. القانون يستطيع أن يحكم أسوأ المجرمين، لكنه لم يوضع للتعامل مع الشياطين.

- والعمل يا أنكل؟

- الشياطين لا يحكمها إلا سليمان النبي. وبما أنه غير موجود. اخرج من هذا النزاع. كم يكلفك

عرض ثلاثة أمتار في طول الأرض؟

- نحو أربعمئة وخمسين مترًا لكن الأهم أن شبابيك ستجرح شبابيكنا.

- افترض أن مبانيه كانت موجودة عندما تسلمت السرايا، واشترت راحة بالك.

كزَّ صلاح على أسنانه وقال:

- عملتها مرة وندمت، لكن هذا المستوطن يدفعني إلى ما أكره.

احتضنه سامي وأخذ يُقَبِّل رأسه ويرتعش:

- أرجوك يا عمي، أرجوك. إلا هذا.

ربَّت صلاح كتفه وأخذ يتأمله.

- اهدأ يا خواجة. واضح أن أم الغلام، لم تخف عنك سرًا.

عند الفجر، تفتحت أبواب السماء بسياط من ماء، لم تكن هناك أية مقدمات خلال النهار تُنبئ بهذه

الأمطار الغريبة على الخريف. أخذت قطع من البرد تضرب الشبايبك، ثم بدأ برق ورعد مخيفان.

استيقظت فريدة ووقفت مع سامي يستطلعان المطر من الشُّبَّاك. تحت ضوء البرق الخاطف بدا

أن المياه تجرف قمة تل الرمل المعد للبناء، حتى أصبح أبتَر الرأس مثل هرم ميدوم، بجوار تل

الزلط الذي أضاءت قمته بالبرد المتراكم فوقها. هبَّت عاصفة شقت اللافتة إلى نصفين، أخذ كل

شطر منهما يتأرجح حول عرق الخشب المربوط به. ضحكا وعادا إلى السرير. غفت فريدة سريعاً بينما عاد سامي إلى الدوران في مكانه، ينصت إلى المطر، الذي يتوقف قليلاً ويستأنف، مع موجات برق ورعد جديدة وأصوات فرقعة في السماء. في الصباح، قالت فريدة لأبيها:

- أريد ألا يكون سامي هنا عندما يبدأ صب الأساس.
- في ظل هذا الطقس، لا يمكن صب خرسانة اليوم.
- لكن الأمطار انتهت وعاد الجو إلى صفائه. وهذا البلطجي لا يوقفه شيء.

قال لجنديين يجلسان على يمين ويسار باب المأمور إن لديه موعدًا. دَوَّن أحدهما اسمه على ورقة دخل بها. أشار له الجندي الآخر أن يقف في صف المنتظرين لصق الجدار. أخذت موجات من القلق تغمره في عتمة جرب مثلها من قبل.

لكن الممر ليس خاليًا كالذي انتظرت فيه المحقق النحيل، في ذلك اليوم.

بدأ يتأمل الآخرين. وأحس بالخجل من قلقه لأن هؤلاء البسطاء يصخبون كما لو كانوا في انتظار أتوبيس. وأخذ يلهي نفسه بتأمل وجوههم والاستماع إلى قصصهم، ويحاول فرز الكذب من الصدق فيها.

طال الوقوف وطغى الضيق والتعب على القلق. بدأ يُنْقَل ثقله بين ساقيه. وعندما نودي اسمه دخل منهكًا يتقدمه أحد الحارسين. بعد الباب ممر ضيق كعنق زجاجة تتسع بعده الغرفة، عند آخر هذا العنق أوقفه الحارس. أرسل سامي بصره إلى أقصى القاعة الفسيحة فرأى طاولة اجتماعات ضخمة وثلاثة أطقم جلوس مختلفة الألوان والطرز. كل شيء فخم لكن غير متناغم ومتفاوت العمر، بما يوحي بأن تأثيث المكتب لم يتم في وقت واحد. تصور أن مكتب المأمور في غرفة أخرى من داخل القاعة، لكن رنين تليفون قريب نبهه إلى مكان الرجل الجالس خلف ساتر من الأرابيسك بعد العنق مباشرة، مهيمًا على المشهد مثل قناص لا يراه الداخلون. أنهى مكالمته، ثم رن تليفونه مجددًا فاستقبل المكالمة الثانية، وبعد أن انتهى. قال:

- ادخل.

تنحى الجندي عن الطريق فخطأ سامي نحو الرجل مترددًا. أشار له ليجلس، ورمق اسمه في ورقة أمامه، ثم تطلع إليه، مُرَجَّبًا.

- أهلا يا سامي. منذ متى كنت تنتظر؟

- جئت في مواعيدي.

- أطرق المأمور كأنه يحاول أن يتذكر، وسأله:

- متى كان موعدك؟

- في الواحدة.

- ياه، لماذا لم تدخل لتنتظر بالداخل؟

رن جرسا تليفونين معًا، أسكت أحدهما وتناول الآخر. أخذ سامي يتأمل التفاصيل. طاولة المكتب

إنجليزية الطراز من الخشب الماهوجني، فوقها أكداش من ملفات، وتذكارات مختلفة صغيرة: برج إيفل من المعدن، فيل خشبي، ومنفضة سجائر من الألباستر. ضوء الأباجورة يضيء ناحية واحدة من وجه المأمور نكّرتة بالانعكاس نفسه الذي كان على وجه المحقق النحيل. كأن هذا الانعكاس كود رسمي. تذكر أن وجه ذلك النحيل كان أبيض، ليس البياض الذي يسمح للإضاءة باختراقه. كان بياضًا كثيفًا لشخص لم يخرج من عتمة غرفته منذ سنين، فصار أقرب لأن يكون عديم اللون. لكن انعكاس الضوء على وجه هذا المأمور الكهل منح وجهه الأسمر لمعة لطيفة كلمعة وجوه العائدين من الشاطئ بعد التصيف، ورغم ما استطاع أن يدركه عن تشدده من خلال حديثه التليفوني، فقد بدا إنسانًا، يضحك ويسخط ويسب. لهذا صار قلق سامي أقل مما شعر به أمام الباب، بخلاف الرهبة التي شعر بها أمام المحقق عديم اللون، رغم أن وقت الانتظار في ذلك اليوم لم يستغرق ربع الوقت الذي انتظر فيه هذا المأمور، الذي أنهى مكالمته الطويلة، وقال:

- اعذرنى، لكنك سليل رجل دولة تُقدّر ثقل المسؤوليات.

- أبي لم يكن رجل دولة.

- جدك.

- لم أر جدي. وكان رجل دولة مختلفة.

عاد المأمور بكرسيه إلى الوراء وأخذ يتأمل ابتسامته، وبدأت عليه الحيرة، عاد إلى الأمام، وقال:

- رجل الدولة رجل دولة. وأبوك كان مهندسًا مرموقًا، ربما كانت لديه مشاغل أضعاف ما لدى رجل دولة.

- كان مهندسًا حرًا.

ضحك الرجل، وقال:

- دعنا من «حرًا» هذه يا سامي. كلمة تجلب المشاكل.

- أقصد كان أبي يعمل لحساب نفسه.

- على أي حال، طلبتك لدرشة ودية، أريد أن أفهم نزاعك مع جيرانك.

- لم يعد لديّ نزاع مع جيرانى القدامى، فقط ذلك المستوطن.

ضحك المأمور، وقال:

- تعبير لا يقوله إلا رجل من بيت ثقافة، لكن لا يمكن أن يكون ذلك الجار سيئًا إلى هذا الحد. من

أية عائلة هو؟

- لم أشاهد له قريبًا أبدًا.

- يعني ليس له كبير نعود إليه. هذا مؤسف. الخلافات هنا تُحل بالعرف. أنا شخصيًا، أشارك في جلسات صلح، وأحل على الحصيرة مالا أستطيع أن أحله من فوق هذا الكرسي.

رَنّ تليفون سامي. كانت فريدة. ضغط على الزر كتم الصوت. وقال:

- يدعي أمين أنه طبيب، ويأتي بأشياء لا تليق.

- التعليم لا يلغي بساطة العقول، حاول أن تحل المشاكل.

- لقد جربت، لكنه مستوطن بالفعل، لا حدود لطمعه.

- لا تبالغ، لأننا نقول الكلمات فتعجبنا ثم نؤمن بها، وتجرنا إلى الخطأ. لا تُكثِر الموضوع في

نفسك. أمامي كل المحاضر بينكما.

وضرب على ملف متخم، وعاد يقول:

- كلها كلام فارغ. لكن بلاغه الأخير خطير.

- بناء سرايا على الأرض الزراعية؟

- لم أقصد ذلك البلاغ، وهو في يد لجنة لا دخل لي به.

ثم خَفَّض من صوته وقال:

- بلاغ اليوم عن تمزيق اللافتة. لا أريد أن أوضح أكثر، تمزيق الصورة. تصور لو أن شاويشًا

أو ضابطًا صغيرًا استقبل جارك هذا وكتب المحضر دون أن يعود إلي!

- لكنني لم أمزق الصورة. رأيت الريح تمزقها، كنت أنظر من الشُّبَّاك.

- يجب أن أصدق ابتسامتك هذه، لكن يبدو أن ذلك الولد ليس سهلًا. أخشى في مرة قادمة أن

يتجاوزنا، ويُصعِد شكواه إلى الجماعة في القاهرة رأسًا. تفهمني بالطبع.

- وما دليله؟ هل يجوز اتهام دون دليل؟

- معك حق، لكن نظرًا لتاريخ عائلتك، لديك نقطة ضعف. جسمك لبيس تهم كما يقولون.

اتسعت عينا سامي. ولم يجب.

قال المأمور:

- الوضع لا يحتمل. هذه الفترة حساسة.

أحس سامي بعرق بارد يجري على عموده الفقري، وينضح من فوق شفته. جَفَّف تحت أنفه،

وقال:

- وكيف يجب أن أتصرف؟

- أنت حر. لكنني لو كنت مكانك لاستفدت من هذه الهبة التي جاءتني من عند الله وعدت إلى

مهنتي. يا رجل! أنت مهندس برمجة وتضيع وقتك هنا وسط هؤلاء الناس؟!!

- وتعرف سيادتك أنني ميرمج؟

- كل شيء عندنا يا سامي، كنت ميرمجًا حتى نكسة يناير، أليس كذلك؟

أحس سامي بدبيب الغضب في قلبه، انمحت ابتسامته وتقلص وجهه، أخذ يستجمع قوته ليقول له إنها لم تكن نكسة، لو كنت بيننا وقتها لشممت رائحة الأمل، لكنه لم يستطع. أخذ نفسًا طويلًا فاستراحت ملامحه، ثم عادت الابتسامة تفترش وجهه، تحت غبطة الاستنارة، إذ يكتشف الآن أن الروائح ليست شيئًا واحدًا في كل أنف.

نظر إليه المأمور وقال:

- أنت رجل لطيف جدًا. وجهك مرآة لما بداخلك، يبدو أن فكرتي أراحتك. أنا في الحقيقة قست على نفسي. لست معجبًا بمثل هذه الحياة. البستان والحيوانات التي ترببها صور حلوة لا شك، لكنها مجرد صور تنشرها زوجتك على صفحتها في "إنستجرام" فتحظى بألاف التعليقات، لكن الواقع مختلف. قطع الكهرباء بالساعات، ذباب، بعوض، أبراص، وربما عواء الذئاب ليلاً.

- حضرتك رأيت صور زوجتي على "إنستجرام"؟! لقد ألغت حسابها من زمان.

لم يجب عليه المأمور؛ إذ التفت في تلك اللحظة ناحية الباب. ميّز سامي لهات سيد زكي، الذي حيًا من وراء البارافان. نهض المأمور ولف من وراء طاولته، مُرَجَّبًا بالضيف، وقاده من يده ليُجلسه على أحد مقاعد الفوتيه.

ألقي سيد زكي نظرة على سامي، ورفع يده بتحيته:

- خير يا سامي يا ابني؟ ألم تنته مشاكلكم بعد؟

سأله المأمور:

- أنت تعرفه يا حاج سيد؟

- نعم. شاب طيب ابن أصول، لكن ربنا رزقه بجار، أعوذ بالله.

زاد لهاته فلم يوجه إليه المأمور كلامًا جديدًا. وأشار إليه ليستريح، وعاد إلى مكانه. ضرب الجرس وأمر الجندي بماء بارد. سأله سامي مجددًا:

- سيادتك، طالعت "إنستجرام" زوجتي؟

- ماذا؟!!

- قبل دخول الحاج سيد، كنت سيادتك تقول إن البستان ليس صورة على "إنستجرام" زوجتك؟

- آه، ها ها ها. لا، لم أر حسابها، لكن افترضت أنها ستفعل ذلك. لنركّز في موضوعنا. فكر في

حل وأنا معك.

ونهض متوجهاً إلى ضيفه، فنهض سامي. وحياهما. بمجرد أن خرج رنّ تليفونه مجدداً. كانت فريدة قلقة. طمأنها:

- أنا في الطريق.

أحس بأنفاسها المبتهجة على الخط، ثم ضحكت وقالت:

- تصورت أنك ستفعلها وتختفي كما فعلت في ذلك اليوم!

أمام غضب سامي، تنازل محمد لطيف عن نصيحته بإغلاق الموضوع، وأرسل سعيد عبد الخالق الذي اطلع على بنود محضر الصلح العرفي، وقال:

- هذا كلام فارغ. أحكام القضاء ذاتها تُنقض. سترفع القضية.

جدد أمين عسكر اللافتة، وتواصل العمل في البناء بإيقاع سريع. صُبَّت القواعد، ثم ارتفعت الأعمدة عن الأرض. ضجة شواكيش نجاري المسلح تجر خلفها ضجة خلأطة الخرسانة التي تشبه أصوات آليات عسكرية تتحرك. تضغط على أعصاب سامي، وتذكّره أن هذا البناء يُبنى عنوة، وعندما يرتفع سيجرح شبابيك بيته ويحرمها من رؤية امتداد البساتين، ومن خلفها البحيرة التي يراها في أيام صفاء الجو.

ترافق العمل مع صوت إذاعة القرآن الكريم على مدار الساعة. تلاوة يعقبها برنامج، فأذان، فتلاوة مجدداً. يبيها مكبر صوت مرفوع على عمود حديدي فوق سطح مزرعة الدواجن، تختفي التلاوة في أوقات عمل خلأطة الخرسانة، وفي الليل تظهر عالية جداً. وعندما تنتشوش الموجة ينطلق وشيش حاد يتقاطع مع الوشيش نفسه القادم من المسجد البعيد. عندما فاض الأمر بفهمي، ذهب إلى المبنى. خرج له عامل:

- لا تؤاخذني يا عم. الراديو في المكتب والمفتاح مع الدكتور.

قال فهمي لسامي:

- اطلب لي هذا الجدع. أنا سأكله.

بمجرد أن رد بادره فهمي:

- متى ستكتمل الفيلا، لنتشرف بمجاورتك؟

- يسعدني أن أسمع هذا، لكن ما الغرض من الاتصال؟

- أريدك أن تجاورنا لنرى إن كنت تستطيع العيش مع صوت مكبر الصوت ليلاً ونهاراً.

- فهمتك. أنا في الغردقة، سأعود بعد يومين.

خَفَضَ الصوت بعد عودته، لكنه ظل مسموعًا بشكل يكفي لمنع النوم، وبعد يوم واحد عاد إلى المستوى الأعلى. انتظر فهمي حتى رأى سيارته، وذهب إليه:

- أنا عشت ثمانين سنة، رأيت ألوانًا من الأذى، إلا الأذى بالقرآن. هذا جديد عليّ.

- كيف تقول هذا عن كتاب الله؟

- عيب، لست رجلًا بسيطًا؛ أحدثك عن مكبر الصوت لا عن كتاب الله.

- أحمي مالي يا فهمي بيه، نحن بين ناس عيونهم رصاص.

- منذ جئنا لم نرْ أذىً إلا منك.

التفت عنه أمين، مفتعلًا كلامًا مع العمّال، فعاد فهمي يحاول إخفاء إحساسه بالعجز عن سامي الذي بدا حزينًا. ويومًا بعد يوم أخذ ينحدر إلى حالة من الذهول. لابد أن تُعاد له الجملة مرتين لينتبه، تدفع إليه فريدة بسالم الذي بدأ يستجيب للملاعبة بالضحك والرفس. ينسجم مع ابنه دقائق، ثم يعيده إليها، شاردًا. يذهب إلى المعلف للاطمئنان على حمادة، أو يقف بشباك الغرفة، ينظر إلى ما يجري. فاجأته فريدة بسؤال:

- في أي يوم نحن؟

- لم أعد أعرف الأيام.

- هذا هو التاسع من أكتوبر.

لم يبدِ أي اهتمام؛ وضعت كفها على صدرها، وقالت:

- كم أنت أحمق يا قلبي، أحببت من لا يتذكّر عيد ميلاده.

اغتصب ابتسامه، وعرس سبابته في خدها:

- خذاك نصفاً رمانة.

أحضرت إفطارهما إلى السرير، وقالت:

- لا تحلم باستمرار هذا التدليل.

أخذ يتأملها بإعجاب، وقال:

- ألسن نادمة؟

- نعم. على ما فاتني منك.

التفت إلى سالم، وقال:

- اشهد عليها، أن تتغير فتُذكّرنا.

قطع بالشوكة قطعة كبيرة من لفافة الأومليت بالرمان الذي تتقن صنعه، وحملها نحو فم الصغير.
هتفت:

- مجنون أنت؟

- بدأ يحلم بالأكل ويمكنه أن يتذوق القليل، ألا ترين كيف يمص إبهامه؟

أخذ من طرف الشوكة قطعة بحجم حبة بازلاء ووضعها في فم سالم، أخذ الطفل يديرها بلسانه،
مغتبطاً. قالت:

- لم أجرؤ على فعلتك. أنت أول من أطعمه. لن أنكر هذا عندما يكبر.

- مجرد تطفل عليكما. لم يغادر أحشاءك إلا لينام لصق قلبك.

- ابنك رقيق مثلك لا يجهدني. وأنا سعيدة باهتمامك. عشت مشتاقاً لرجل يحمل عني.

داعب غمازتها التي يحبها جداً جداً، ولاحظ أنها أصبحت أوضح مع الامتلاء البسيط لوجهها،
وقال باسمًا:

- رجل يحمل عنك؟ أهذا كل ما كان ينقصك؟

- وأحملة أحياناً يا نوتي. استرحت؟!

- أنت النوتية، والله ما قصدت.

بعد الإفطار ذهب إلى المعلف. رأى رفقة وسمعان وسط قطيع الماعز الذي عرف حرите أخيراً،
وكذلك الدجاج. لم يعد الباب الداخلي يُغلق ليلاً أو نهاراً، وأصبح بوسع الماعز أن تختار بين الظل
والشمس. وكان الدجاج ينقر الأرض، بينما يقف بعضه يتلفت ويقاقي كأنه ينادي أحداً. قال:

- الدجاج سيتكلم من الجوع.

ضحكت رفقة وقالت:

- ليس كل الصياح جوعاً.

وأخذت تُقلد أصوات الدجاج؛ هذا عندما تجمع أولادها للأكل، وهذا عندما تهدد، وهذا الذي
تسمعه الآن من أجل أن تبيض وذلك أذان الديك وتلك دعوة للتزاوج. ضحك سامي، فضحك
سمعان ووضع يديه على أذنيه وراح يحاكي صياح رفقة. تركهما سامي وطرق باب غرفة حمادة.

قالت رفقة:

- دعك من حمادة وهمه. أليس اليوم عيد ميلادك؟

- كيف عرفت؟

- فريفة، طلبت منى البقاء الليلة مع الأطفال، لتخرجنا.

بسط الشتاء سلطته. أوغلت عريشة العنب في التعري، وصارت ملاحقة أوراقها الجافة المتساقطة تحديًا لإشراق. دخلت في نزاع مع الكرمة، تضع المقشّة بالقرب من يدها، حتى إذا سقطت ورقة تجري إليها وتكنسها، ثم ترفع رأسها تُكَلِّمُ الغصون النائمة:

- لن تغلبيني!

قالت فريده لأبيها:

- البنت صارت تكلم الأشجار مثل سمعان، هل تعتقد أنها جُنّت؟

- هي طبيعية حتى الآن. نبدأ القلق إذا ردت عليها الشجرة.

كان دافع سؤالها الغبطة بتحول إشراق عن خمولها. لولا تعبيرها العنيف عن حيويتها الجديدة. تشاركت خوفها مع صديقاتها؛ فأمهلتها منى حتى تستشير زوجها. قال: من الجيد أن تُخرج طاقتها العدوانية في هذه السن المبكرة. اطمأنت على ابنتها. لكن ظلت هناك مشكلة جدية عندما ترفع مكنتها في موعد انتظار هند للوروار؛ فتنشجران، ويكون على أحد الكبار أن يُقنع هند أن المشاجرة هي التي صرفت العصفور وليست المكنتة. مرّة بعد مرّة كف الطائر عن القدوم. وتطور الخلاف بين الأختين إلى نزاع. أخذ الجد هند جانبا وقال لها:

- العصفور، ليس مضطرا لتحمل برد الشتاء مثلنا. هاجر إلى بلاد دافئة.

- سيعود بعد الشتاء؟

- سيعود بالطبع.

- كيف؟ هل يستطيع أن يُميّز الطريق إلى بستاننا؟

- يستطيع، وإذا لم يأت لأي سبب، سيرسل إليك وروارا آخر.

- لا أريد وروارا آخر. أريد طائري.

- المهم أن يأتي وروار. راقبي السحاب. يعود كل يوم، لكن السحابة التي تعبر فوق بستاننا اليوم

ليست سحابة الأمس. وعلينا أن نفرح بأن السحاب لا ينقطع.

لم يكن كل وقت البنّين شجارًا. كانتا تتنافسان على حمل أخيهما وتنتشركان في التنقيب عن البيض في كل أركان المعلف، إذ بدأ الدجاج المتنعم بالحرية تحت الشمس يبيض أضعاف ما كان يبيضه في العشة، وأتقن لعب الاستغماية معهما؛ يخفي البيض في بقايا التبن بالمداد وطوالات البهائم وزوايا الساحة المكشوفة، وأتقنت هند وإشراق العثور على البيض في الزوايا الخفية، كما أتقنتا كل لغات الدجاج، وصار بوسعهما فهم شخصيات الماعز، والتجوال بالحمار إلى أبعد من

البستان، لمسافة أطول يوماً بعد آخر، على طريق مختلف كل مرة، لتختبرا إن كان سيهتدي إلى الطريق، وفي كل مرة ينجح الحمار في الامتحان.

كان من الممكن أن يكون هذا الفصل شتاء سامي السعيد الثاني؛ فلولا وجود أمين عسكر في الجهة الأخرى من المدق لاعتقد أن الشتاء خالف طباعه بعد أن أذاقه كل صنوف الخوف والحزن. يطالع الصلابة الوقحة للفيلا التي ترتفع أمامه قافزة على السرايا فيشعر بحكة جرح نصف مندمل يخشى أن يهرشه فينتكس ولا يستطيع أن يرتاح مع حكته؛ فينصرف إلى اللعب مع الصغار، ثم صغار الماعز، والدجاج، وقد تباعدت الجمال والعجول في ذاكرته كما لو كانت ضيوفاً ذهبت وتركت المضيّف يلتفت لأبنائه. وأبدى حمادة تحسناً، بعد الود الذي لمسّه من الجميع، حتى الفتاتين الصغيرتين.

عندما اكتمل الهيكل الخرساني للفيلا. انتشر العمال في الطوابق الثلاثة بالوقت نفسه بينون الجدران. وبمجرد اكتمال الجدار الخارجي للطابق الأرضي، كسوه بالسيراميك في شكل مثلثات ثلاثية الأبعاد بدت أهراماً متنوعة الألوان. ثم أزيلت اللافتة المشدودة بالأحبال أمام المبنى. وأقيمت بدلاً منها لافتة ثابتة مضيئة بعرض جدار الفيلا وارتفاع نحو متر ونصف، أخفت أهرام السيراميك من منتصفها، ففصلت قواعدها عن رؤوسها. كُتبت اللافتة بخط ثلث ضخ «مجموعة شركات أمين عسكر» وتحتة سطر نسخ أنحف «أقوى كيان اقتصادي في تل المساخيط الجديدة» وعلى الجانبين رايتان. راية اليمين صفراء في وسطها نمر واثب من النوع المخطط، الخطوط الصفراء بالنمر مناسبة مع الأرضية، جعلت حدود جسمه مراوغة. وفي الجهة اليسرى من اللافتة علم بألوانه الثلاثة المتباينة، وفي طرفه الأعلى مثلث تحتله الراية الصفراء مصغرة. وفوق السطح الأخير للفيلا ارتفعت سارية بعلم ضخم يرفرف بالمثلث الأصفر في زاويته العليا. وعلى مقربة من سارية العلم عمود آخر من الصلب، تحتضن قمته أربعة مكبرات صوت توزّع التلاوة بالتساوي في جميع الجهات.

وبدا أن البناء لن يتوقف؛ إذ شرع العمال في بناء سور متصل بجدار الفيلا، ضم قطعتي أرض إضافيتين من اليمين والشمال كفاءين للفيلا والمزرعة. ارتفع السور لنحو ثلاثة أمتار، تقطعه بين مسافة وأخرى أعمدة متوجة بتمائيل من الجبس لنسور ونمور تحمل فوق رؤوسها بلورات الإضاءة الملونة. توسطت السور بوابة ضخمة من الحديد المزخرف وبطانة من البلاستيك المضرب. على قمته لافتة مضيئة مقنطرة تحمل الآية الكريمة «ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله» وصار أمين يدخل بسيارته من البوابة كما تدخل العربات لتكّوم ألواناً من البضاعة في الفناء

القافل.

جمعت الفيلا في النهاية كل طرازات العمارة؛ من أعمال الزجاج والمعدن الحديثة، إلى الأعمدة ذات التيجان الفرعونية والكورنثية والنوافذ القوطية والأسقف المستوية والأسقف الهرمية. لا يستطع سامي النظر إليها إلا بعد أن جعلها مسلية؛ ألزم عينيه برؤية تفصيل واحد في كل مرة. وصار يُسمي الأيام باسم ذلك التفصيل، اليوم تاج، غدًا قنطرة، بعد غد مثلث، يوم أملس، يوم مخدد.

في ساعة صبح، كان يقتلع حشائش ما تبقى من حديقة الورد التي صارت شريطًا ضيقًا بعد انبعاج المدق بداخلها. بجواره تقف كلاب أولاد ناجي الثلاثة، جفلت من صوت سيارة على المدق. أوقفها أمين بالداخل، وعاد إليه يعاتبه:

- لم تقل لي مبروك. الناس في نواحيننا تساعد بعضها البعض في البناء. طيب، على الأقل كلمة مبروك.

- تقصد أنني لا أعرف الأصول؟

- العفو. لم أقل إننا نحتكر الأصول، ما بيننا مجرد اختلاف رؤى.

- هل بوسعك أن تضع نفسك مكاني؟

- رأيت، أنك غاضب. حلفتك بالنبي يا شيخ، تشرب القهوة معي.

لم يصمد سامي أمام الإلحاح. مضى معه، وبينما يعبران بين أكوام الخزين من المعادن وباللات الورق والتبن بالفناء، قال:

- هذا التشوين مؤقت، وبعد ذلك ستطل على حديقة ورد.

- منذ أقل من سنة كنت أرى شجرًا.

عبرا إلى داخل المبنى، فأشار أمين مجددًا:

- وها هو مدخل الفيلا، جانبي من داخل السور، ليس في مواجهة مدخلك.

دخلا مكتبًا فسيحًا بلا نافذة، إضاءته صناعية قوية كإضاءة الملاعب، والأثاث صاخب الألوان.

أمر أمين بإحضار قهوة. وجلسا. قال سامي:

- هل كان المكتب في مكانه هذا؟

- لا، الآخر موجود كما هو يشغله محاسب، كان في وسط المزرعة، الآن أصبح أول شيء فيها.

تطلّع سامي إلى الجدار، وقال:

- لم تنقل من المكتب القديم سوى البندقيّة الأثرية.

- وخزنة السلاح. الكنبه التي تجلس عليها سحّارة كالتى جلست عليها في المكتب الآخر.

لكي يتجاوز سامي إحساسه بالاختناق انطلق خياله يتصور فيلا ومزرعة دواجن أمين في صورة سفينة تعبر البحيرة، وأن المسافة ستنتسح بينها وبين السرايا، لكن الخيال ذاته أدرك أن الفيلا هي برج السفينة والمفرخة مؤخرتها المنبسطة وأن الاحتمالات الأكثر أن تتحرك للأمام وتصطدم بالسرايا؛ فتصاعد ضيقه. قال:

- كيف تحتمل مكتبًا معتمًا كهذا؟

- صديقي، أنت لا تكبرني بالكثير، لكنك تتحدث كأجدادنا.

- لماذا؟ موضة الشبابيك بطلت؟!

- ليس هكذا، لكنّ المبنى الذي يعيش قرونًا والسيارة التي تتوارثها العائلة، أشياء أصبحت في الماضي. الآن يمكن أن تبني مبنىً وتغيّر رأيك، أو تتغير الظروف فتهدمه وتبني غيره، وهذا أفضل من أن تظل تحسبها طوال عمرك ولا تبني شيئًا.

- لم أتعلم هذا في الهندسة.

- أنا درست الطب، ولكن تعليمي الحقيقي أخذته من الحياة، ماذا يفعل التعليم وسط أشكال مثل عبد السلام الحافي؟

تطلع سامي إليه بدهشة. فعاجله:

- أنت نفسك تركت ما تعلمته، لكنك لم تضع مسارًا بديلًا. أرضك هذه ثروة، وأنت مكتف بالحديث مع الماعز. لو تترك نفسك لي سنة، سنة واحدة!

- لتبني لي غرفة بلا نوافذ؟!

- هل تعتقد أن فتح نافذة مستحيل؟ أستطيع الآن أن أجعل العمال يتركون ما بأيديهم ويفتحون فتحات في الجدار، وعلى آخر النهار تكون الشبابيك في مكانها، وأمامها حديقة ورد أحسن من وردك.

- تزرع الطريق؟!

- لا تخف. نحن جيران، ولم يزل لك حق المرور بموجب محضر الصلح. وإن أفتعتك بتغيير رأيك وبعث لي، عندها سأزيل السرايا التي انتهى عمرها الافتراضي، لا تؤاخذني، وسيكون أمام شباكي شجر بمد البصر.

- هذا ما تنتهي إليه في كل حوار.

- خلاص، لا داعي للبيع، ادخل معي شريكًا بالأرض. سنة، سنتان على الأكثر، وسترى العجب

العجاب.

- رأيت ما يكفي حتى الآن.

- لم ترَ شيئاً. عندما ترى أمامك الفيلات الحديثة والبيسينز، لن يكفي ثمن السرايا والبستان لشراء فيلا عندي.

اصطبغ وجه سامي بالغضب وبدأ يرتعش بعصبية. قال أمين:

- اهدأ يا صديقي، يدي ممدودة لك. الذكي من يستفيد من تجارب الماضي السيئة ويعمل بعكسها.

- أي ماض تقصد؟

- أشير لي على أية نقطة في ماضي عائلتك، وأنا أحدثك عن الفرص الضائعة فيها.

- وتعرف تاريخ عائلتي؟

- أبوك مثلاً، ماذا استفاد أو بماذا أفادك عندما أفنى عمره في المحاكم لرد شرف أبيه بعد أن شبع

موتاً.

قال سامي غاضباً:

- هذه أشياء لا تُشتري. ولا تفهمها أنت يا عسكر.

وخرج غاضباً. وجد حمادة واقفاً على المدق بحقيبته في يد وعصاه في الأخرى. وقال:

- انتظرتك لأودعك.

بدا في ضعف الحجم الذي كان عليه يوم استقبله. حدّق سامي في عينيه الثابتتين، مثلما كانتا دائماً. أحس بثقل الإخفاق الذي يحسه كلما نظر إليه. وفي لحظة اغتبط لأنه لن يواجه حيرة تفسير ذلك الحزن مرة أخرى. قال حمادة:

- مبسوط لأنك تخلصت من عبء؟ كان بيدك أن تصرفني في أي وقت!

- الأمر ليس كما تظن. أريد أن..

- لا تقل شيئاً.

حاول سامي أن يحتضنه، لكنه صافحه ومضى. أخذ يبتعد مع ظل مربع يزحف تحته في هذه الساعة من الظهيرة. تذكّر سامي نبوءته المخيفة لحمادة؛ هرول خلفه ليعيده حتى لا تتحقق. لكن الشاب لم يلتفت إلى نداءاته. ذهب إلى المعلق، وجد رفقة وسمعان جالسين صامتين. قال سمعان:

- خلاص محلمي.. حماتة مسي، كمال مسي، عكول لاح، كله مسي.

قالت رفقة:

- سأنظّف غرفته.

قال سامي:

- تستطيعان استخدامها للراحة فيما بعد.

أطلق الماعز وسار مع سمعان خلفها، جلسا وراء القطيع، أخذ سامي يفكر مجدداً بحمادة. إلى أين سيذهب، وهل يمكن فعلاً أن يتحقق ما رآه له، ويبتلعه النيل؟ ولم يدعه سمعان لأفكاره. بُص محلمي، كوافة مريضة، اسمح محلمي النعجة، محلمي، سوف سوف ضفدعة اضحك. بعد أن شبع القطيع عادا به. كانت رفقة بالساحة وأخذت تُطلع سامي على كومة ضخمة من أشياء أخرجتها من تحت السرير. مجموعة من الكتب ملوحة الأطراف، كلها روايات لكُتَّاب نوبيين، محمد خليل قاسم، يحيى مختار، حجاج أدول، حسن نور، وعدد كبير من الأطباق ببقايا طعام متعفنة وجافة، ملابس عمل مهترئة ومتيبسة بأوساخها، كيس قماشى بداخله حبوب بن نيئة، كيس بلاستيكي به شرائط من أقراص الترامادول بعضها فارغة وبعضها ممتلئة، بقجة من قماش مليئة بأعشاب مهشمة. سألتها سامي:

- أوراق لوري؟

- هباب أسود على عين حمادة.

- هباب؟!

- بانجو، ألم تره من قبل؟

أوما متحيراً، وقال:

- لا بد أن نحرق هذه الزبالة.

ضحكت وقالت:

- الرائحة ستلم علينا المدمنين.

جمع الكتب، ودخل بها إلى الغرفة. وضعها على الكوميدينو ليحملها فيما بعد إلى المكتبة، والتقط علبه كبريت، وعاد فأشعل النار في كومة المخلفات، ووقفوا يراقبون الاحتراق ويكفكون النار، إذ يتلون اللهيب وتتقلب الروائح وتنطفئ فيزيد الدخان. قلقت فريدة لغيابه، ذهبت إلى المعلف، ودفعت الباب المرود دون قفل. وجدتهم مستلقين بجوار حفرة النار ذراع رفقة تحت رأس سامي، وذراع سامي تحت رأس سمعان، غارقين في العرق، وجوههم مذهبة بوهج النار. انحنت فوقهم ملهوفة. هزت سامي. نظر في عينيها وضحك؛ فضحكت رفقة، وضحك سمعان، ولم تتمالك فريدة نفسها فضحكت. وظلوا يضحكون.

عندما تجاوز الجرار المدق وغرس سلاح المحراث تحت الشجر لم يكن هناك طائر أبو قردان واحد في مجال الرؤية، وفجأة امتلأت السماء بالطائر الأبيض وهبط خلف المحراث. بدت الطيور جسورة في اقترابها من الخطر، تلتقط الدود من قلب التربة الساخنة فور ظهوره على السطح، وفوقها سحابة غبار كثيفة ترتفع إلى نحو مترين. تجمعت الأسرة كلها تشاهد الطيور، التي تلاحق المحراث بلا خطأ واحد يعرضها للخطر كان الوقت قبل الغروب بقليل، وأخذت ألوان الجرار وسائقه والطيور تتغير بين الظل وخيوط النور التي تنفذ من بين الأشجار وتذهب هذا الفريق المتناغم. أعاد المشهد فريدة للتصوير. تركت سالم مع رفقة التي وقفت به بعيداً عن الغبار، ومضت مع سمعان وابنتيها وأخذوا يتبعون مسار الجرار والطيور، يقتربون بشكل بالغ، ويتصايحون. في المساء أخذوا يستعيدون المشهد عبر الصور.

الحرث بداية خطة وضعها سامي للعناية بالبستان بعد عامين أهمله فيهما بسبب ازدحام المعلف بكل أنواع الحيوانات. لكنها من جهة أخرى طريقة ليقول بها لأمين عسكر أنه يتمسك ببستانه، ويقول للجميع أن جذوره ستمتد في هذه التربة بقدر ما تنتعش أشجاره ومزروعاته.

بعد الحرث، جاء طالع النخل، قلم السعف الزائد وصار النخيل صفوفاً من النساء الجميلات اللاتي قمن للتو من تحت يد مصفف الشعر. ولم تلبث أن انبثقت من تلك الرؤوس عراجين وليدة، وجاء النخل ثانياً حمل إليها اللقاح. وبعد أن جفت الحشائش المحروثة تحت المانجو تلتفت الأشجار تسميداً جيداً ورياً جعلها تستقبل الربيع بسعادة بدت في البراعم التي صارت أوراقاً غضة يراقصها الريح، وتدعمت خبرات فريدة في التصوير؛ بدت محترفة إلى حد أن صار بمقدورها أن تنقل الإحساس بقطرة الندى فوق ثمرة ليمون ورائحة زهور البرتقال تحت الشمس اللينة.

في قلب هذه الفرحة جاء استدعاء لسامي من النيابة. ذهب في الموعد، وانتظر حتى نودي اسمه. أشار له وكيل النيابة ليجلس، وغطست عيناه في الأوراق أمامه. وقال:

- يتهمك أمين عسكر بكسر خط المياه والتوصيل إلى منزلك خلصة. ما قولك؟

- الماء في بيتي قبل أن يأتي المستوطن.

تطلع وكيل النيابة الشاب إليه زاجراً. وقال:

- أجب بقدر السؤال، وبدون هذه الابتسامة.

احمرت أذنا سامي، وخفتت ابتسامته قليلاً دون أن تختفي، أخذ الشاب يتطلع إليه، وقال:

- عفواً. تبدو رجلاً طيباً، ولم يكن ينبغي أن أنزعج من ابتسامتك، على الأقل لأنها الأولى التي

أراها اليوم! أريد أن أفهم.

حكى سامي قصته في تل المساخيط من البداية بما فيها منحه موافقته لأمين عسكر على التنازل عن خطه والاشتراك معه في خط مياه أوسع، ودفع حصته في التكلفة.

- صِف لي شكل مكان خط المياه، لأنه يدعي أنه خط خاص. هل يمشي في أرضه؟

- لا. الخط في الطريق.

- متأكد؟ هذا يجعله مرفقًا عامًا، حتى لو تحمّل تكلفته وحده. لكن يبقى الأمر سيئًا لأن عقوبة

الاعتداء على مرفق عام حبس وغرامة.

استوفى وكيل النيابة أسئلته، وأخذ معاونه يكتب، ثم أملى قراره: «تكليف قسم شرطة التل بسماع الأطراف والشهود وعمل ما يلزم من تحريات، والانتقال إلى شركة المياه للاطلاع على الأوراق المتعلقة بالموضوع، وسؤال كل من يلزم سؤاله للوصول إلى حقيقة الواقعة. وموافقتنا بالنتيجة».

في طريق العودة، قال فهمي:

- اطلب سعيد عبد الخالق.

اقترح الرجل ضاحكًا أن يُجهّز له غرفة في السرايا. وجاء في الصباح. سأل سامي عن عقد المياه. أجابه:

- المياه قديمة لم أتعاقد بنفسى عليها.

- أليس لديك أي إيصال مياه؟

- لم تصلني أية مطالبة من المياه، وسألت عمي صلاح قال إن آخر إيصال وصله عن بيته كان قبل ثلاث سنوات.

- وورقة الشراكة مع أمين، لديك نسخة منها؟

- أبدًا، جاءني بورقة من نسخة واحدة وقعتها له. قد نجدها في الشركة.

دار سعيد عبد الخالق بين قسم شرطة تل المساخيط وشركة المياه حتى نهاية يوم العمل ولم يتوصل إلى شيء وعاد إلى القاهرة. وفي اليوم الثاني والثالث حدث الشيء نفسه، وفي اليوم الرابع قال تعبت؛ فعرض عليه سامي ما طلبه من قبل ساخرًا:

- غرفتك موجودة.

بدا رئيس فرع تل المساخيط في شركة المياه غير متعاون، يتعصب كلما دخل عليه المحامي:

- تكفيني النيابة والمباحث.

- وأنا محامي أحد المتنازعين، وأريد الاطلاع على ملف موكلي.
- لم تعد لدينا ملفات ورقية، كل شيء إلكتروني الآن.
- أمام تمسك سعيد عبد الخالق، استل رئيس الشركة ورقة من الوراثة أمامه، كتب عليها توقيعه دون إضافة أخرى، وقال:
- في شباك خدمة المواطنين، أعطهم الورقة، وسيعملون اللازم.
- طلب من الموظفة ملف سالم يعقوب، بحثت وقالت:
- للأسف. لا وجود لملف بهذا الاسم.
- طلب منها البحث باسم صابر الفشن، ثم نجفة الفشن ولم تجد أثرًا.
- غير معقول. لدينا مياه وعداد، ولا بد أن يكون هناك ملف.
- لا تقلق، تقابلنا هذه المشكلات كثيرًا. المنطقة أعيد تقسيمها إداريًا أكثر من مرة، وهناك ملفات فُقدت عند النسخ من الورق إلى الآلي.
- أعطته رقمها، وقالت له، سأحتفظ بالأسماء. إن وجدت شيئًا سأبلغك. عندما عاد إلى السرايا، قال:
- لا بد أن يظهر الملف، إلا إن كان قد أُتلف بفعل فاعل. سأعود غدًا إلى الموظفة.
- ثم أخفض من صوته وهمس لسامي:
- الموظفة قمر. منقبة وتخنوخة بعيون خُضر. قمر!
- ذهب إليها في اليوم التالي. قالت:
- لا جديد. نفسي أساعدك. بنيت بيتك بنفسك أم بناه مقاول؟
- لماذا، ما الفرق؟
- هناك عدادات مياه تباع في السوق. بعض المقاولين يشترونها ويوصلون على الشبكة، ويوهمون المالك أن المياه نظامية.
- البيت من سنة 1950.
- لا تقل إنه سرايا أم الغلام!
- هي بعينها!
- بدت الموظفة مذهولة، وقالت:
- السرايا مسكونة بالأرواح. لم يقترب منها أحد سوى تلك المرأة التي لا تموت.
- أم الغلام ماتت، لكن روحها موجودة.

- لماذا تحتاجني إذن؟ روحها تدلك.
- لا، لا. الأرواح لا تشرب الماء ولن تهتم بشأن الملف.
- اسمع. السرايا حاليًا تتبع قرية التبة. لكنها كانت تتبع قرية تل الضباع، اطلب البحث في أرشيف تل الضباع، الوحيد الذي تبقى.

كثبت له اسم الخفير الذي يحرس الأرشيف ورقم تليفونه. عندما وصل وجد الأرشيف شقة مغلقة في الطابق الثاني بعمارة سكنية من بنايات الحكومة، دأته ساكنة الشقة المقابلة على المقهى، حيث يجلس الخفير الذي فتح له وقال:
- عندما تتعب شد الباب.

فوجئ سعيد عبد الخالق بأن المكان ليس أرشيفًا حيا يمكن التحرك في دروبه، بل مخزن مغلق على بقايا ملفات ميتة؛ تل ضخم من الأوراق مفلوطة من ملفاتها، ترعى فيها قطعان من الفئران. لم يصل إلى نتيجة، ولم يبذُ محبطًا. سأله سامي:

- والخطوة القادمة؟

- ملف أمين عسكر. المجرم ينسى دائمًا ثغرة.

رفض رئيس الفرع طلب سعيد عبد الخالق:

- ليست لديك صفة لتطلع على ملف مشترك آخر.

- لكن ملف هذا المشترك فيه دليل شراكة موكلي في الخط.

- النيابة فقط من حقها أن توجه لي هذا الطلب.

- بسيطة. هل أنشأ أمين عسكر الخط بعمال خارجيين أم بعمال الشركة؟

- بالطبع بعمال الشركة. هي فوضى؟!!

- عظيم. عمالكم هؤلاء يخرجون بأمر شغل أم يذهبون من تلقاء أنفسهم؟

- تستجوبني في مكنتي؟

- ليس استجوابًا. موكلي يواجه خطر الحبس. وأريد أن أرى أمر الشغل.

- قدّم طلبك إلى جهات التحقيق، وسنرد عندما يخاطبوننا.

تواصل سعيد عبد الخالق مع سلوى. قالت:

- أرجوك، فعلت ما بوسعي. أكثر من هذا سيبدو الأمر شخصيًا.

عاد إلى السرايا قرب الغروب. وبعد أن أكل، أثنى على الطبخ، قالت فريدة:

- طبخ رفقة.

- ببركة توجيهك أكيد يا ست الكل. ولأجل هذا الغداء سنُصعد الأمر لرئيس الشركة في سراب.
ذهب بشكوى رسمية. وشرح تعقيدات الوضع الذي وجد سامي يعقوب نفسه فيه بعد استعادة سرايا
جده. قال الرجل بحماسة:

- أنا ابن المنطقة، وسمعت الحكايات عن طيبة سالم باشا يعقوب وكرمه. حكايات حافظ عليها
الآباء مثلما حافظوا على الأرض التي أهداها إليهم، لكن الجيل الجديد لا يعرف كيف يحفظ
الجميل.

- ما يعنيني قضية موكلي يا باشمهندس.

- ما قلته في صلب قضية موكلك، فالولد، رئيس فرع التل من ذلك الجيل الهباب الذي لا يعرف
الأصول. لا تقلق. سأشكّل لجنة لتقصي الحقائق.

ثم خفّض من صوته، وقال للمحامي:

- قل يا رب، يسترها عليكم وعلينا. أنت تعرف نفوذ خصمكم.

- وما وضعنا الآن؟

- لا مشكلة، لا أحد يستطيع قطع المياه عنكم.

- رئيس فرع التل يصرُّ على أنه خط خاص بالخصم.

- دع الأمر لي. ولا تقلق.

في المساء جاءت ليلي مع ابنتها مريم. بعد أن حيّت الموجودين، وشوشت فريدة:

- لم أعرف أن كل هؤلاء موجودين. جئت بمريم لتفك عن نفسها، مخنوقة يا قلب أمها.

- خيرًا، ماذا حدث؟

- تركت بيت زوجها وعادت من يومين، وواقفة على الطلاق.

- هكذا. لم يمض على زواجها بضعة أشهر؟

- النصيب.

ظل سعيد يتأمل المرأة وابنتها بإعجاب. انتقلت النساء إلى ركن قصي في الفرندا. فحمل إليهن
الشاي، ثم طبق الفاكهة الذي كان يتوسط الرجال، ثم دورق ماء. أبدت ليلي ضيقها من اهتمامه
وكانت تسكت كلما أقبل حتى يبتعد.

أخذت تحكي لفريدة عن صعوبة أحوال الأخوة الثلاثة، بعد أن بددوا أملاكهم، أخذها عسكر
بالتقسيم المريح، وفتحوا بالنقود دكاكين على الطريق للحداثة ومستلزمات الزراعة لم تستطع
المنافسة، والميكروباص الخردة المرمي قدام البيت، وعاد الشباب إلى البطالة. وقبل أن تنصرف،

سألت فريدة إن كانت بحاجة إليها أو إلى مريم للمساعدة في العمل، لم تفهم فريدة المقصود بالمساعدة، ورأت ليلي حيرتها؛ فقالت:

- نحن مسلمين، أولى من رفقة.

أدركت فريدة أنها تطلب عملاً بأجر، ولم يعجبها تلميحها إلى الدين، لكنها تعاطفت مع ضيقها، ووعدتها بأن تشاور سامي.

شيّع سعيد المرأة وابنتها بنظرة أحست بها المرأة التي تقترب من الستين في العتمة، فالتفتت إليه، واستأنفت طريقها خلف ابنتها. همس لسامي:

- طعمة.

رغم أنه لا يريد أن يفتح باباً للتجاوز، لم يملك إلا أن ردّ:

- أنت وجدت بالضبط الوصف المناسب.

- بالأمانة، ليس من عندي، قرأته ذات مرة لكاتب يصف سهير البابلي.

بهذا القدر أو ذلك من التحفظ والمجارة لسعيد عبد الخالق، تمتلئ الأيام التي يقضيها سعيد بينهم بالحيوية والفكاهة. يجعل تحركاته النهارية محور الجلسة في المساء؛ الإجراءات العملية، ما أنجزه وما لم ينجزه، وطرقه في التودد للموظفات والسكرتيرات والرجال. يقول ضاحكاً:

- يجب أن تكون كل الوظائف للنساء؛ ترضيهن كلمة، مع الرجال لا بد أن تشغل جيبك.

صار وجوده مصدر اطمئنان لسامي، وأصبحت مواجهاته مع محامي أمين عسكر في المباحث والنيابة والمحكمة والإدارة القانونية لشركة المياه مثل مباراة مثيرة. يعتد بمادة في القانون تُعرّف المرفق العام وتُثبت أن خط المياه ليس ملكية خاصة لعسكر، يرد عليه المحامي الآخر بوثيقة الصلح التي تُثبت أن ملكية المدق آلت لعسكر وهكذا فخط المياه وسطه ملكية خاصة، هكذا، غير القضية التي رفعها لإبطال الاعتداد بنتيجة الجلسة العرفية. قال لسامي:

- لو انضم إلينا أولاد ناجي سيصبح موقفنا أقوى في القضية.

طلبت فريدة من ليلي أن تفتح زوجها وأخويه، فعادت إليها برد قالت إنه لا يعجبها هي نفسها:

- رجالي، للأسف مثل الدجاج. يخافون من أمين عسكر.

- لماذا، ما سطوته عليهم؟

- جننوني. يوم المشاجرة كان الشباب سيضربونه، والثلاثة الكبار كانوا ينادونه يا دكتور!

رأى سامي نفسه في المنام واقفاً في نافذة بالطابق الثاني من المتحف يُطل على ميدان التحرير. للوهلة الأولى رأى رقعة الميدان بيضاء مكسوة بالجليد، وسرعان ما انتبه إلى أنه بياض حملان تغطي الميدان كله وتنتشر منه إلى بدايات الشوارع الأحد عشر التي تؤدي إليه. وفجأة اقتحم الميدان عشرات من الرجال الملتئمين فوق جمال عجفاء، أخذت تسوي الأرض بالحملان في مساراتها التي صارت مدقات حمراء متشعبة. كان يرى من مكانه بنافذة المتحف طرطشات الدم على فروة الحملان التي بقيت حية على الجهتين من كل المسارات الحمراء. ثم أحس بالرداذ يصل إلى وجهه فاستيقظ. تحسس جبينه، وسحق بعوضة متخمة، وتأمل أصابعه الملوثة بالدم.

إما أن تشرب الوحوش دمنا دفعة واحدة، أو يمتصه البعوض قطرة قطرة؟!!

حاول أن يعود إلى النوم، لكن موجات الخوف أخذت تتدافع. وكالعادة، لا تدهمه موجة خوف إلا لتلقي على شاطئ روحه بألوان من التوبيخ. أحس أنه لم يعد يحتمل ذلك؛ فنهض. كان اليوم حاراً بشكل لا يُحتمل.

وكانت زيارات سعيد عبد الخالق قد أخذت تتباعد منذ بداية الصيف. كان وجوده يخفف من التوتر والغضب الذي يستشعره كلما رأى سيارة أمين عسكر تعبر المدق. صار يحس بالاختناق كلما رأى قامته المتعطرسة، كأن الأشجار على مد البصر توقفت عن توليد الأكسجين. يقضي ساعة أو ساعتين ويمضي، بينما تبقى فيلته ذات الفخامة الرثة القافزة على السرايا عدواناً مستمراً.

لاحظت فريدة أن زوجها صار يلازم هند وإشراق منذ الصباح، يدورون تحت الشجر، يجمعون ما يتساقط من المانجو التي أثمرت جيداً هذا الموسم، يطاردون الفراشات والعصافير ويبحثون عن الأنفاق التي تحفرها أسراب النمل الأبيض في التربة الرملية، تتبعه كلاب أبناء ناجي في كل مكان. وصار يشرد كثيراً، ويبالغ في الضحك على أشياء بسيطة ثم يسكت فجأة كما لو أن يداً أطفأت زر تشغيله، ثم بدأ فتوره تجاهها، وعندما يستلقي بجوارها يشرع في مص أصابعه حتى يستغرق في النوم مبتسماً، ويكلم نفسه في الحلم.

لمحت إلي قلقها في جروب الصديقات مكتفية بذكر ما يمكن ذكره من أفعال زوجها. وضعت منى الحكاية أمام زوجها كريم الحديدي، قال هذا ارتداد إلى الطفولة نتيجة فشل نفسي. سامي لم يعد يستطيع تحمل الضغوط وحالته مقلقة. نقلت منى ما قاله إلى فريدة، وقالت إنهما سيأتيان وحدهما لقضاء يوم الجمعة عندهم، وسيتكلم كريم معه، ويرى ما تستلزمه الحالة.

عندما جاء، انفرد كريم بسامي في ظل الدغل أمام قبر أم الغلام. بدأ الطبيب بقراءة الفاتحة، وقال:

- ما هذه الطراوة الجميلة؟! يبدو أن أم الغلام كانت طيبة.

وأخذ يثرثر حول أشياء مختلفة قبل أن يسأله عن أحواله، كيف تمضي الحياة بابين مدينة مثله في مكان كهذا، تركه يتكلم عن كل شيء. تعبنا من الوقفة فجلسا على حافة القبر، وتعدت جلستهما الساعة، واستطاع الطبيب أن يقول لسامي بطريقة بسيطة، إنه يعاني إرهاقاً نفسياً، ويحتاج إلى أن يبتعد لفترة عن المكان. ومنحه علبة مهدئ.

- حبة قبل النوم بنصف ساعة. ولا تخف، هذا مستحضر من الأعشاب.

عندما عادا إلى الفرندا، همس كريم لفريدة:

- هل لديكم من تستأمنونه على الماعز والطيور إن غبتم لبضعة أيام؟

- رفقة وسمعان.

- الرجل الطيب وزوجته؟ إذن، سأترك لكم مفتاح شاليه الساحل. امكثوا الوقت الذي تشاؤون، وسأتابع معك. اتفقت فريدة مع رفقة، أن تُحضر أولادها وحمااتها، ليقموا بشكل كامل في السرايا، وتعهد صلاح بأن يظل عليهم بين الحين والآخر.

بينما يتجهزون للسفر إلى البحر، جاءت لجنة من شركة المياه، برئاسة رئيس المرفق في تل المساخيط وستة من الفنيين والقانونيين، نصفهم من إدارته والنصف الآخر من الإدارة العليا في سراب. تفقدوا السرايا، قاسوا محيطها مع الفرندا، وسجلوا أنها من طابقين، وأقروا بأن وصلة المياه عليها نجيل كثيف لا توحى بالكسر حديثاً كما جاء في ادعاء أمين عسكري. ثم بدأوا يتجولون في المكان، وطلبوا دخول المعلف. واستفسروا عن مصدر الماء به. قالت رفقة:

- من السرايا، عبر خرطوم سطحي تحت الشجر.

تتبعوا مسار الخرطوم، حتى وصلوا إلى نقطة اتصاله بأنبوب السرايا.

- قال رئيس اللجنة.

- هذا في حكم التوصيل خلسة.

قال فهمي:

- أية خلسة؟! المعلف تابع للسرايا.

- هذا نشاط تجاري، سعر متر الماء فيه يختلف عن سعر المنازل، علاوة على أن السرايا ذاتها، بلا ملف.

- السرايا فيها العَدَّاد والملف مسؤوليتكم وتقاعسكم عن التحصيل مسؤوليتكم. وافعلوا ما ترون.
بعد انصراف اللجنة طلب فهمي من سعيد عبد الخالق أن يأتي ليتابع، وأن يجعل التواصل معه هو.

على الشاطئ بدأ التحسن التدريجي يظهر على سامي يومًا بعد يوم، حتى صار في اليوم السابع يسابق فريدة في التقاط الصور. واستعاد فرحه بسالم، وأخذ الطفل يتعلق به، ويضحك بمجرد رؤية أصابع أبيه ترتفع قبل أن تزغزغ بطنه. سار خطواته الأولى على رمل الشاطئ، في صباح عيد ميلاده الأول، بينما يرتدي شورطًا صغيرًا فوق البامبرز. استطاعت فريدة أن تصوّر اللحظة، هتف سامي مبهجًا:

- أول خطوة على البحر، لحظة لا تُنسى!

في المساء ذهبوا إلى مطعم، احتفلوا بعيد ميلاد الصغير، وسهروا. عندما عادوا لم يجد سامي رغبة في النوم؛ فعاد إلى الشاطئ. أخذ يتمشى ذهابًا وعودة، حتى تعب فتمدد فوق شيزلونج مُنَدَّى بالرداذ. أحس يد أم الغلام الجافة الخشنة فوق جبهته. نظر فوجدها جالسة بجواره على حرف الشيزلونج. ابتسمت ورأى تحت الضوء الشحيح أسنانها بيضاء كقواطع الصغير التي سترت مقدمة فمه مؤخرًا. أفسح لها لتأخذ راحتها في الجلوس. قالت:

- بعد ما فرحت يا خواجه أنك حطيتني جنبك، تيجي تعمل عيد ميلاد الباشا الصغير في آخر الدنيا؟

- أهلاً يا جدتي. هل تفرق معكم المسافات؟

- أبدًا، لكن انت شايف جنون الطرق. كان يمكن أن تضربني سيارة.

- أفتقدك يا جدتي.

- أنا جنبك هناك يا سامي. اعتن بالصبية والغلام. وتذكّر كلامي. في عنقودها ستة. باق خمسة بعد سالم. بينهم صبية واحدة.

- قطيع ماعز.

- دمك خفيف يا خواجه.

معها حق. عرفتَ مثلها ألم الوحدة؛ فليكونوا كثرة بقدر ما تحتل فريدة.

- لم يتعبني سوى أمين عسكر يا جدة.

- منه لله. البعض يحب أن يُمهد بنفسه طريقه إلى الجحيم.

- هذا الكلام ليس لك يا جدة.

- أعجبك؟ حتى سمعان سيصبح حكيمًا هناك.
- كيف يتصرف صبري معك ومع جدي وعمي سالم.
- بالحب. ليس هناك سوى الحب.
- ألم يشعر صبري بالخذلان، بعد أن عرف أنه مات دفاعًا عن نزاهة رجل كان يخفي ابناً.
- كلنا لدينا هفواتنا.
- إخفاء ابن ليس مجرد هفوة.
- لم يكن جدك متأكدًا أن سالم ابنه، ولم أحاول أن أخبره.
- وأنت، هل استطعت أن تسامحي ناجي الفشن؟
- أن أقول ليس هناك سوى الحب، لا يعني أن أتسامح مع قاتل ابني.
- نهضت، وقالت:
- سأبذل قدمي.

مضت تخطو بقوة نحو البحر، ودخلت الماء بلا تردد، أخذ الموج يدفعها إلى الخلف، لكنها كانت تقاوم وتمضي مبتعدة داخل الماء.

يومًا بعد يوم استعاد شغفه بفريده. عاشا جنون المرة الأولى، وكالمرة الأولى هتف مسحورًا بعريها. بعد أن سحبت غفوة الغبطة، التقطت الموبايل، وكتبت لمنى:

- لم يعد يمص أصابعه.

ثم مسحت بسرعة؛ إذ تذكرت أنها لم تخبرها بهذا التفصيل من قبل. كانت صديقتها على الخط ورأت العبارة طائرة على شاشتها، لكنها لم تهبط في صندوقها. كتبت لفريده:

- هل ما لمحتة صحيحًا؟

- أرجوك، ليق هذا سرًا بيننا.

- ألف ميروك أنه تعافى. لكن هذه العادة ليست دائمًا سيئة.

ردت عليها فريده بإيموجي المكايده، بفمه الضاحك ولسانه الممدود.

في اليوم الخامس عشر من أيام الساحل، رنّ تليفون فهمي. أبلغه سعيد عبد الخالق أن لديه خبرًا سعيدًا وآخر حزينًا. ألقى القبض على رئيس شركة المياه في تل المساخيط متلبسًا برشوة، لكن اللجنة كانت قد وقّعت غرامة استهلاك غير قانوني بأربعين ألف جنيه على السرايا وسبعين ألفًا على المعلف، وجاء محصل، لكننا رفضنا استلامها.

قال فهمي:

- لكن القبض على رئيس الفرع قد يفيد في الطعن على المبلغ.
- سأضع الأمر أمام رئيس الشركة في سراب.
- وإن لم يحلها؟
- سنظل على امتناعنا وسترفع الإدارة القانونية دعوى ضدنا؛ فأطلب ضمها إلى ملف القضية.
- وهل التأخير آمن؟
- لا تقلق. هذه الغرامة الفظيعة استباق من حيوانات جريحة تدافع عن نفسها.
- أي جراح؟ الظلم واقع علينا نحن.
- سلوى الحلوة أطلعتني على مقايضة أمين عسكر. وسأضرب ضربتي عندما أستوثق. كم يبلغ طول الخط بتقديرك؟
- نحو أربعمئة متر.
- صاح المحامي:
- فُلُّ الفُلِّ! هكذا قدرتها بالنظر. تصور أنهم كتبوا له المسافة في المقايضة أربعين متراً. جعلوه يدفع عُشر ما كان ينبغي أن يدفعه.
- هل نعود إليك، أعود أنا على الأقل؟
- لا داعي يا سعادة البيه. وأظن فريدة هانم على اتصال مع رفقة، وكل شيء جيد هنا.
- طابت الإقامة في الساحل، واقتربت من شهر، وصارت فريدة في حيرة بين إحساسها بأنها أثقلت على صديقتها بالبقاء هذه المدة في قلب موسم المصيف، وبين خوفها من انتكاس سامي الذي يظل بحال جيدة حتى يأتي اتصال من هناك. لكن اتصالاً مخيفاً وصلها، جعلهم يجمعون أشياءهم ويعودون في ذروة الحر منتصف النهار. كانت كلمات رفقة تتدافع مشوهة بالبكاء. فهمت منها أن سمعان ضرب أمين عسكر بهراوة، فتح له رأسه، وأنها مع زوجها في البوكس، إلى قسم الشرطة في التل.
- جمعوا أشياءهم على عجل وقادت فريدة السيارة محاولة إخفاء توترها، وجلس أبوها بجوارها، يجري الاتصالات مع سعيد عبدالخالق وصلاح، كي يذهبا إلى رفقة وسمعان بقسم الشرطة. وكان سامي بين البننتين في المقعد الخلفي، يضع مهد سالم على فخذه، يلاعبه ويبالغ في الضحك على استجاباته. همست فريدة لأبيها:
- سامي انتكس في لحظة!

-ربنا يستر.

رنّ تليفون سامي. وخرج الصوت الجهوري لمحمد لطيف واضحًا في السيارة:

- كيف حالك يا سامي.

- تمام، يا أنكل تمام.

ضحك لطيف:

- ما التمام يا سامي؟ سعيد أبلغني بما حدث. كان في القاهرة لسوء الحظ، لكن ساعة زمن ويصل

إلى قسم سراب. وسأتابع معه.

- تمام يا أنكل تمام.

اتصل فهمي بصلاح:

- الآن فهمني أنت. ما الذي جعل سمعان يضرب البلطجي.

قال صلاح:

- بعد سفركما، انقطعت المياه، وكانت تعود ساعة واحدة في الليل. أبلغتني رفقة. وبدون أن أطيل

عليك رأيت أمس حفرة في بداية الخط، ورأيت محبسًا. من الواضح أنه جعل العمال يغلقونه طوال

اليوم ويفتحونه ساعة واحدة لتخزين احتياجاتهم بالليل. عاتبته رفقة. لم يعجبها رده. كلمة منها،

كلمة منه، رفع يده عليها، جاء سمعان بشومة من فرع ليمون، وخبطه، انفتحت رأسه، وسال دمه.

- الإصابة خطيرة؟

- ركب سيارته بدمه وجرى، لا نعرف إلى أي داهية. يا رب نخلص منه.

- السيارة بنفسه؟

- قاد به موظف عنده.

عندما وصل سعيد عبد الخالق إلى قسم الشرطة، كان سمعان ورفقة في الحجز. طلب الاطلاع

على محضر أمين ومحضر استجواب المرأة وزوجها. راوغه الأمناء؛ فتركهم وبحث عن مكتب

رئيس المباحث، قال الجندي الواقف ببابه:

- عند سيادة المأمور.

توجه إلى مكتب المأمور وعرّف بنفسه. حاول الجندي أن يمنعه. فهدده:

- ستتحمّل المسؤولية وحدك يا عسكري، أريد حضرة المأمور لأمر خطير.

دخل الجندي وعاد إليه، يهز رأسه بالموافقة. كان المأمور على مكتبه وأمامه أمين معممًا

بضمادة كبيرة ورئيس المباحث متواجهين. عرّف سعيد بنفسه، واقترب من المأمور، وهمس له:
- لاحظ سيادتكم حساسية الموقف. الطرفان مسلم ومسيحي.

تغيّر وجه المأمور، وتوجه بحديثه إلى رئيس المباحث أمامه الذي كان مستغرقاً في الحديث مع أمين، وقال له:

- اتصلت بالجماعة؟

- أتصل يا فندم.

- لم تتصل بعد؟! أنت تعرف الإجراء.

قام رئيس المباحث، وقال لأمين:

- تعال يا دكتور نستكمل التحقيق عندي.

وأشار لسعيد:

- وأنت يا أستاذ، تفضل معنا.

أمام مكتبه طلب منهما الانتظار. بعد دقائق ضرب الجرس وطلب من الجندي أن يدخلهما. جلس أمين وسعيد متواجهين. وألقى رئيس المباحث بالمحضرين إلى سعيد بغضب. جرى سعيد بعينيه على اتهام أمين لسمعان ورفقة بالشروع في قتله عن سبق إصرار وترصد واطلع على التقرير الطبي المرفق ويتضمن وصفاً يستلزم علاجاً أكثر من واحد وعشرين يوماً. وبينما يطالع توقيع أمين وبياناته ضحك. تطلع إليه الرجلان فتظاهر بأنه لم يلاحظ نظراتهم. ثم اطلع على أقوال رفقة وسمعان، وطوى الأوراق دون أن يُعلق. دخل الحارس يستأذن لمحام آخر قال إنه جاء من أجل رفقة. قال رئيس المباحث:

- قل له ينتظر، يوفر مجهوده للنيابة.

ثم وجه كلامه لأمين:

- ستأخذ المتهمين معك في سيارتك يا دكتور.

تطلع إليه أمين:

- في سيارتي؟!!

- أرجوك قدر الموقف. لا أستطيع أن أميزك. إما معاً في سيارتك أو ستذهبون مع الإيراد في عربة الترحيلات. وهذا لا يليق بك.

وسط زحام الممر تعارف سعيد مع المحامي سمير ميلاد؛ شاب هادئ نحيل. خرج رئيس المباحث يعطي تعليماته لإحضر المتهمين من الحجز، وسار مع أمين إلى سيارته ووفقاً يتحدثان

أمامها. عندما وصلت رفقة وسمعان فتح لهما الجنود الباب الخلفي من السيارة السوداء ذات الستائر، وركب أمين بجوار سائقه. ومضت بهم إلى النيابة وخلفهم قاد سعيد سيارته وأخذ معه زميله. جاءه اتصال من صلاح. ردَّ عليه:

- نحن في الطريق إلى النيابة.

قال صلاح:

- الجماعة وصلوا من الساحل، يلغنا بما يحدث.

طالع وكيل النيابة محضري الشرطة المرفقين معاً، وأثبت المحاميان حضورهما مع المتهمين. وشرع في استجواب الطرفين، وبعد أن استوفى التحقيق، أضاف ملحوظة: تلاحظ لنا بمناسبة استجواب المتهم سمعان أبانوب الأسيوطي أنه يهذي ببعض العبارات غير المفهومة والإجابات التي لا تتفق مع الوقائع التي يُسأل عنها، ولاحظنا عليه على العموم ما يبدو أنه نوع من الاضطراب العقلي، لذلك قررنا نحن أسامة بندق وكيل النائب العام حبس المتهم أربعة أيام، على أن يتم إيداعه المستشفى العام، وتكليف إدارة الطب الشرعي بانتداب طبيب مختص لتوقيع الكشف الطبي عليه لبيان ما إذا كان مصاباً بأمراض نفسية أو عقلية تؤثر على صحة الإرادة لديه، وبيان مدى التأثير، وكتابة تقرير وتقديمه للنيابة على وجه السرعة، كما قررنا الإفراج عن المتهم رفقة حبشي عبدالمسيح من سراي النيابة بضمان محل إقامتها.

فور خروجهم من النيابة. اتصل سعيد بصلاح. أبلغه قرار النيابة على عجل، وقال:

- أبلغهم، سأعود برفقة بعد تسليم سمعان للمستشفى.

لم يصل سعيد ورفقة إلى السرايا إلا بعد منتصف الليل. كانت صامتة وبدت ضامرة منهكة. توجهت إلى العجوز دميانة، وقبّلت رأسها، وتداعت على الكرسي بجوارها. طمأنتها على ابنها، وشرحت لها وضعه في المستشفى. صاح فهمي بسعيد عبد الخالق، ليحكي. قال سعيد:

- صبرك أخذ نفسي. الحكاية طويلة.

قالت نعمة:

- تأكلون؟

أجابها فهمي:

- حاجة خفيفة.

نهضت الفتاة. وأشعل سعيد سيجارة وشرع يحكي بتأن، وأخذت رفقة تنتبه إلى ما حدث في

المكاتب عندما كانت في الحجز. وأخذ سعيد يُشخّص أدوار المأمور ورئيس المباحث، ويصف
عمامة أمين عسكر الدامية. ثم ضحك وقال:

- التافه، لا طلع حكيم ولا تومرجي، قرأت وظيفته في المحضر وضحكت، زغر لي. كان شكله
تحفة! وفي النيابة نسفت محضره، الذي فصلوه تفصيلاً على مزاجه؛ محضر يبعث بالمحروسة
وزوجها إلى حبل المشنقة.

قال صلاح:

- يا أخي ليس وقت هزار.

- لا تقلق، موقفنا ممتاز.

انتبه إلى السياجاة وقد ترمدت إلى آخرها بين إصبعيه، وقال:

- أثرت في رفقة، عند تسليم سمعان في المستشفى. أخذت تصرخ. خلوني معه، عمره ما فارقتني.
إذا جرى له شيء نهار أبوكم أسود.

أخذ وجه سامي يتجهم، تغيب الابتسامة، ثم يضحك، ثم يسكت وبيتسم. غمزت فريدة ليُغيروا
الموضوع، فالتفت صلاح إلى سامي وسأله:

- حلو البحر؟

- تمام يا عمي تمام.

وقال سعيد:

- سمعان مبسوط بغرفة المستشفى، عندما دخلها جلس على السرير وأخذ يختبر نوابضه، ويطرق
بيده على ملاءته البيضاء المشدودة، وقام يفتح الدولاب بسعادة، ولا هو سائل في رفقة أو غيرها!

عندما غادر صلاح ونعمة وتفرق المقيمون في السرايا إلى غرفهم للنوم، كتبت فريدة لمنى عن
تدهور سامي. بعد قليل نقلت إليها رد زوجها:

- لا مانع من أخذ الحبة مرتين، صباحًا ومساءً.

عندما أدرك سمعان غياب رفقة، بدأ يناديها بكل عزمه:
- أفاقاه أفاقاه.

واندفع خارجاً يريد أن يلحق بها. أعاده الحارس المسلح وأغلق عليه الباب. انتابته حالة من الهياج والغضب، أخذ يبق على الباب ويصارع لفتحه. تداعى الممرضون، ونادوا الطبيب المناوب، حقه بمهدئ، ثم قيده إلى السرير. بينما يقاوم تثبيته، هبش مشرفة الدور في كتفها فآلمها. عادت إلى الكاونتر، ولم تستقر دقائق في مقعدها حتى انتبهت إلى أنها لم تعد تشعر بألم الوتر المقطوع في كتفها، الذي كانت تنتظر تحديد موعد جراحة لرتقه. عادت إلى الغرفة. وجدت سمعان مبتسماً نائماً. قالت للحارس:

- لن يفيق من أثر الحقنة يوماً كاملاً. سأفك قيده، ولا تقلق.

حررته من الأربطة، وأخذت تُمسد شعره، فتحت عينيه، ثم نام مجدداً، وجذبت كرسيًا وجلست بجواره تتأمله.

قبل شروق الشمس جهّزت رفقة ملابسها، وطبخت له مسقعة، وأصبحت جاهزة لتمضي مع فهمي إلى المستشفى. أصرت العجوز على مصاحبته لترى ابنها. ركبت دميانة بجوار فهمي، وجلست رفقة في الخلف. كان فهمي يستعجل الخروج قبل أن يستيقظ سامي ويطلب الذهاب معهم وكانت رفقة متلهفة للاطمئنان على زوجها.

في المدخل المزدهم الذي يشبه سوقاً وجدت من تسند معها حماتها. عندما دخلوا الغرفة كان سمعان مستيقظاً يتأمل مشرفة الدور الغافية على كرسيها الملاصق لسريره. رأى أمه وزوجته، فتهلل وجهه، وقفز، فكاد يوقع المرأة الغافية التي فتحت عينيها تستوعب ما حولها. أمسك بيد أمه يُقبلها؛ فبسّطت كفها الأخرى على رأسه وترنمت:
- وادعني في وقت الضيق أنفذك فتمجدني.

عانقته رفقة، وأخذت تتلمسه. شدّهما وأجلسهما بجواره. قالت المشرفة تُعرّف بنفسها:

- سهام داود.

ثم سألت رفقة، عن وجه القرابة مع سمعان. أجابتها:

- زوجته.

- زوجته؟ أقصد، تعاشرينه، يعني...

- ماذا بك يا أخت، نعم، رجل، وحياء جسد المسيح رجل.

- معكِ قديس. اشكري ربنا.

وأخذت تسألها عن تفاصيل القضية، حتى قالت لها العجوز:

- معطلة نفسك عن شغلك يا بنتي.

- لا يا أمي، خلّصت، وسلّمت زميلتي.

أخرجت رفقة الطعام لسمعان وجلس فأكل. دخل سامي وفريدة. نظر فهمي لابنته مستنكرًا

مجيئهما. قالت:

- لم أقدر عليه يا بابا.

بدأت اللهفة على وجه سامي، وأخذ سمعان في حضنه يربّت ظهره، ويقبله خبط عشواء في

وجهه وكتفيه، وأخذ يُعرّف به مشرفة الدور:

- خويا، تاحبيا.

نظرت المشرفة إلى فريدة وسألتها:

- أخوه أم صديقه؟

- صديقه.

توجهت بحديثها إلى سامي:

- ربنا يباركك، نفس السماحة.

ظلت تتأملهما، ثم أحسّت أن عليها الانصراف. قامت، وانحنت فوق سمعان، قبّلت رأسه

وانصرفت تقهقرًا، ثم وقفت بالباب تتمتم. رسمت الصليب وجذبت الباب برفق شديد فلم يُغلق. بدأ

سمعان سعيدًا بوجود سامي. أخذ يشير إلى الملاءة البيضاء، ونهض يفتح له أدراج الكوميدينو

المعدني بجوار السرير ثم الدولاب، وقبل أن يعود، تطلع إلى شجرة التوت التي تبدو من نافذة

الغرفة الزجاجية الواسعة.

- توف، توف.. محلمي.

تبعه سامي إلى حيث يشير، فرأى قناديل بيضاء بين الأوراق التي ذهبها الخريف. اقترب من

الشُّبَّاك، أدرك أنها سرب حمام مستريح على الغصون. لم يلبث أن بدأ الرقص والغزل بين طوابق

الأغصان. ذكر يتطلع إلى أنثى على الغصن الأعلى، يهدلان ثم يطير إليها، حمامة تتشبث بالغصن

بينما تنظر إلى وليفها في الأسفل، يتناجيان فيهتز الغصنان بهما، يتشبثان إلى أن يستعيدا توازنهما،

ثم يضربان بأجنحتهما صعودًا وهبوطًا ويستقران على غصن أقوى يحتمل نفضات الحب. استغرق

سامي وسمعان في المراقبة يضحكان، بينما يشيران لزوجتيهما إلى زوج حمام يتأرجح دون أن يتخلى عن تشابكه. أخذت فريدة تتوتر، وأرسلت بنظرات زجر نحو سامي. سمعا فتح باب الغرفة؛ فعادا عن النافذة. كانت سهام داود. وقفت بالباب وقالت لرفقة:

- لا تحملي همّ أكله. عرفت قبل أن تأتي أنه يجب الباذنجان، وأوصيت المطبخ. سيطبخون له باذنجان على كل لون. ثم لوحث له باليدين، مع ابتسامة تتجاوز ابتسامته، وجذبت الباب.

عند المغادرة، توجهت فريدة إلى مكتب الإشراف على الدور، وسألت عن موعد فحصه، قالوا:

- اليوم قد يأتي الطبيب الشرعي.

- نستطيع أن ننتظر؟

- لا نعرف في أية ساعة، المستشفى مكان حجز لا أكثر.

في صباح اليوم الثاني، اطمانت فريدة على تناول سامي للمهدئ، وأرادت أن تذهب مع رفقة وحدهما. قال عائبًا:

- لست مريضًا يا ريدا.

أعدت روضة لسالم وتركته بين يدي ليلي ومريم وأوصتهما بإفطار أبيها والبننتين المستمتعتين بإيقاع نوم أشهر العطلة المدرسية. وقادت بسامي ورفقة إلى المستشفى. كان باب الغرفة مفتوحًا، والحارس منتحياً بكرسيه جهة الغرفة المجاورة. دخلوا فرأوا سهام داود واقفة مع مريض ومريضة يتساندان عليها بينما جلس ثالث بجوار سمعان الذي وضع يده على جبهة الرجل، بينما يُتمتم: أنت يا رب، عافية المرضى نسألك أن تتحنن على الذين يتألمون في جسدكم، وعلى كل الذين يتألمون في قلوبهم، وعلى كل الذين يتألمون في روحهم. رحمتك يا رب نسأل الآن من أجلهم.

سألت رفقة:

- ما الذي يحصل هنا؟

قالت سهام:

- فرحين بالرجاء.

- شوفي يا ست سهام. لزوجي بركة أعرفها وحدي. لكن في المرض أذهب إلى طبيب.

- ثواب تواضعك غنى وكرامة يا أخت رفقة.

نظرت إليها رفقة تتأملها دون أن تقول شيئًا. وبعد أن غادر المرضى وعاد الحارس إلى مكانه بالباب، جلس سامي بجوار سمعان، متماسكي الأيدي. أخذت فريدة تنظر إلى زوجها بقلق. قالت

لها رفقة:

- خذيه وانصرفي، لأنني سأبقى مع سمعان بالقدر الذي يسمحون به.

في طريق العودة، أخذ سامي يُخرج يده من نافذة السيارة، يلعب الريح ويضحك. قالت فريدة:

- رأيت؟ سمعان بخير، لا تخف.

أجابها:

- إذن تعالي لنلعب عند البحيرة قليلاً.

- وابنك؟ نسيت دقدق؟

- لن نتأخر.

- لا بد أن نعود، لا أحب أن أتركه في أيدي أخرى، مهما كان حرص ليلي.

رأت الإحباط على وجهه؛ فقالت:

- لا بأس بوسعنا أن نجلس ساعة.

اتخذت طريق البحيرة، وأخذت تذكّره بما كانا يتخيّلانه عن ابنهما، سيسميانه دقدق، وسيتركاناه يجري خلف الماعز بفانلة داخلية دون سروال. تجاوب معها منسجماً مع الحكاية. ضحكت وقالت:

- الولد نوتي مثلك. هل لاحظت كيف يرمي نفسه على مريم، ويتجاهل أمها؟!!

دارت بالسيارة بحثاً عن مقهى بإطلالة على البحيرة، فلم تجد. وكان عليهما أن يذهبا إلى مجمع مُقام حديثاً على لسان داخل البحيرة، يضم مولاً ضخماً بواجهات زجاجية مطلية بلطخات من اللون الأبيض. المكان مترب، فبدا مهجوراً أكثر من كونه تحت الإنشاء، تجاوزاه إلى حدائق ورد جميلة أمام فندق ضخم، يبدو من بعيد صورة جميلة بأسطح هرمية على الطراز الفيني. وبمجرد أن دخلاه بدت عيوب تنفيذ أعمال البلاط والدهان، وبدا المكان موحشاً وغير مضياف.

قال سامي:

- أشم هنا رائحة الخوف. لنعد إلى بيتنا.

عند الظهريرة أعدت فريدة الحَمَّام، ودعته ليدخل ويغتسل. ثم دخلت وراءه. لمعت عيناه، فقالت:

- أنا للنوتي وإليّ اشتياقه.

نزعت عنه ملابسه في دفعتين، فوقف عارياً هادئاً ينظر إلى جسمه كصبي بين يدي أمه مغتبطاً ومتحرّجاً من عريه في الوقت ذاته. احتوته في حضنها. وهمست:

- تذكر عندما خلعت عني ملابس أول مرة؟

أخذ يضحك. قالت:

- كنت مذهولاً، لم تصدق أن جسمي جميل.
- آه، كنت تلبسين ملابس واسعة جداً جداً، إلى حد أنها كانت تبدو فارغة لا أحد بداخلها.
- قلت كلاماً فظيماً؛ عندما اكتشفت امرأة بداخل الملابس. وأنا كنت مكسوفة.
- أتذكر!

وهتف بالكلمة غير المهذبة التي قالها في ذلك الوقت، ثم لمعت عيناه، ومد إليها يديه متردداً. ساعدته في الانزلاق من ملابسها. سحبها إلى البانيو، وأخذاً يلهوان تحت الماء. هتفت:

- مياه كثيرة لا تطفئ الحب.

قال:

- لا أستطيع مجاراتك في حفظ الشعر يا ريدا.
- أمسكت أصابعه وقالت:
- لمسة هذه الإنكر دبلز هي الشعر.
- أخذ يتلمس بطنها، بحثاً عن الانتفاخ اللطيف الذي اعتاده خلال الحمل. وهتف:
- أين ذهبت حبة الزيتون؟
- صارت ابنك الذي يحلم بأخ.

لمعت عيناه، وحلّ الربيع في الغصن المسترخي. تنشّفاً بينما يلاطفها بالحاح، ويتشمم عنقها. كادت تبكي فرحاً، لأن هذا الذي يحب بكل حواسه استعاد شيئاً من اتزانه. لحظة دخولهما الغرفة بكى سالم، لكن سامي استأنف ملاطفتها دون أن يريكه بكاء الصغير. أدركت أن حياة رجلين مُعلّقة بها فاغتنبت وتحريرت بينهما.

في المساء كان سامي في حال أفضل، جالساً مع حميه تحت سماء صافية حتى ليتمكن عد نجومها، وفي الجو نسمة هواء تخالف طباع هذه الأيام، حيث يُلقى الصيف بأخر رصيده من الحر، ويسبب الإحراج للخريف الذي يتقلص عامًا بعد عام. وجدا كامل أمامهما رافعاً يده بزجاجة في الهواء، وقال:

- أفخر نبيذ روماني.

عندما تذوقه فهمي أبدى استحسانه، وقال:

- تخيل، هذه أول مرة أتذوق نبيدًا رومانيًا!

قال كامل:

- في رومانيا كما في إيطاليا، ودول كثيرة أنبذة فاخرة، ليس لها حظ الفرنسية.

قال سامي:

- جرّبت الكثير من الأنبذة؟

- السفن العابرة من كل الجنسيات تلقي بتحياتها إلى الكبار في سراب، وما يزيد عن حاجتهم يجد طريقه إلى السوق السوداء.

كان الموقد على بعد عدة أمتار منهما، لكن رائحة نضج حبّات بطاطا فاحت من تحت جمره. قام فهمي صاحب فكرة الشواء يتفقدّها، وأحضر سامي كؤوساً للشراب. بدا كامل مسروراً، بينما يفتح ويصب النبيذ. ورفع كأسه:

- في صحة آدم.

بدا فخوراً بينما يتحدث عن ارتباط قريب لابنه. وفجأة أخذ يضحك، واستمرت ضحكته في التصاعد على دفعات، حتى دمعت عيناه ومسحهما. وأصابته عدوى الضحك سامي، بينما قال فهمي:

- فجأة سكرت يا كامل؟!!

- أبدأ. تذكّرت، لا أعرف لماذا، واقعة زواج لذينة، كان السادات طرفاً فيها.

قال سامي:

- كان أبي يبغضه.

قال فهمي:

- قل عن هذا الرجل ما تقول، لكن على الأقل كان خفيف الدم.

وضع كامل قطعة بطاطا في فمه، لم يحتمل حرارتها؛ فلفظها، ورطب فمه بجرعة من كأسه، وانتظر اللحظات التي تضمن له صمت المستمعين، وشرع يقول:

- بعد التحرير، أمر ببناء قرية نموذجية للعائدين من التهجير، قرية «مقلاع الهواء» إذا كنتم سمعتم عنها، وفُرشت بيوتها، وبدأت الاستعدادات لقدمه كي يفتتحها ويسلم عقود بيوتها. المحافظة كلها أصبحت تلمع؛ من رصف الطرق، ووضع أصص الزرع على جانبيها وفوق الكباري وإصلاح الإنارة، وإخفاء البيوت البسيطة خلف ساتر من قماش الخيامية. وفي ليلة الزيارة، طلعت في رأس الزعيم نزوة: أن يحضر حفل زفاف بالقرية. بسرعة بحثت السلطات المحلية بين المنتفعين الذين لم يستقروا بعد عن شاب وفتاة يمكن أن يلعبا دور العروسين ويصافحا الرئيس،

وينتهي الفرح. وجدوا أن أنسب الخيارات شاب وشقيقته.

حمل كامل كأس سامي وأفرغه في فمه ثم اعتذر عن الخطأ، وحمل كأسه، وأخذ يضحك. ثم استأنف:

- أيقظ الأمن أصحاب محال الملابس بعد منتصف الليل، فتحوا محالهم، لتختار العروس فستان زفاف، وتدبروا بدلة لشقيقها. واستعدت فرقة لإحياء الحفل. وتم كل شيء كما أراد السادات. جلس في الحفل دقائق حتى التقط له المصورون بضع صور، وصعد إلى العروسين في الكوشة، صافحهما، ومنح العروس هدية، ثم طوقهما بذراعيه، وضمهما حتى لاصق وجهيهما بوجهه من الجهتين، وقال شيئاً جعلهما يضحكان. وقعت علبة القطيفة الحمراء من يد العروس وانفتحت. بعد انصرافه كان الناس متلهفين لمعرفة ماذا قال لهما. أجاب الشاب: قال أنتما لائقين جداً، كما لو كنتما عروساً وعريساً بالفعل، لكن لا تكملوا المسرحية حرام يا ولاد!

سكب لنفسه، وقال:

- في صحتكما وصحة فرحي الصغير.

في الصباح، قال فهمي لسامي:

- أشعر بتعب. ابق معي اليوم، لدينا عيالنا وعيال سمعان والماعر.

ذهبت فريدة مع رفقة وحدهما لسمعان. كان باب الغرفة مفتوحاً بلا حارس، ولم يكن سمعان موجوداً. تبادلت المرأتان نظرة قلق. وجاءت سهام، وحيتهما:

- من أمس وهو طالع نازل. أصبح يزور المرضى على أسرته. الكثير منهم يتحسنون ويطلبون الخروج من المستشفى.

وأخفضت صوتها وقالت همساً:

- بعضهم حالته سرطان، وكان ميؤوساً من شفائهم.

ثم رفعت صوتها مجدداً:

- انتظرا، سأتصل بمشرفات الطوابق لأعرف في أي طابق هو.

تركتها وخرجت إلى ديسك الإشراف، وبعد نحو عشر دقائق، عاد الحارس ودخل سمعان خلفه. ضمت رفقة زوجها فأخذ يقبلها. كان متهللاً ولم يبذ عليه أي تعب.

عانق زوجته، ثم صافح فريدة، وجلس على سريره.

قالت رفقة:

- غداً موعد التجديد. إن لم يأت الطبيب الشرعي اليوم، سيتجدد حبسه خمسة عشر يوماً.

قالت فريدة:

- لا تقلقي. معنا حتى صباح بعد غد. المهم أن يكون التقرير أمام قاضي التجديد لحظة عرض سمعان. هكذا يقول سعيد عبد الخالق.

- وسمير ميلاد أبلغني ذلك. لكن لازم أطمئن.

لم يأت الطبيب الشرعي حتى موعد الجلسة. جاءت قوة لنقل سمعان إلى المحكمة، أوقفت سهام الرجال على الباب بينما يُكمل إفطاره، ثم قالت لرفقة:

- حمميه، سأخرج وأجعلهم ينتظرون.

عندما فتحت رفقة باب الغرفة، دخل الرجال، وضع أحدهم دبلة كلابش في يده والأخرى في يد سمعان. وسارا متحاذيين تفوح من سمعان الذي لم يزل مبلل الشعر رائحة حلوة، تغلبت على روائح عرق الرجل المكلبش معه وروائح زملائه الذين يحفون بهما بمن فيهم الحارس الذي لازمه طوال أيام الحبس الأربعة. شدت سهام على يد رفقة، وترنمت:

- وكان الرب معه، ولم يدع شيئاً من جميع كلامه يسقط على الأرض.

مضت رفقة وفريدة خلف المسيرة، وبدأ بعض المرضى والمرضى يتبعونهم، وتتضخم المسيرة، حتى صارت حشدًا في مدخل المستشفى. أخذوا يحيون سمعان ويشجعونه بقبضات مرفوعة الإبهام. صعد البوكس خلف الشاويش المكلبش معه وجلس على الدكة بجواره، وأخذ يلوح ويرسل بقبلاته إلى مودعيه. ومضت المرأتان إلى السيارة فتبعنا البوكس إلى المحكمة.

وجدنا المحاميين ينتظران، بدا الإحباط على سمير ميلاد، بينما لم يفقد سعيد عبد الخالق مرحة، وقال:

- ليس بيدنا شيء اليوم، سيتجدد الحبس، وفور أن يأتي الطبيب. سنطعن على الحبس. لن يكمل المدة.

لم ينظر القاضي جهة سمعان. قلب أوراق الملف، وأصدر حكمه بالتجديد. عاد سمعان إلى غرفته بالمستشفى، وعادت المرأتان إلى السرايا. بدت رفقة أكثر اطمئنًا بعد أن شرح لها المحامي الإجراءات، وبعد أن رأت الطريقة التي عامل بها الحراس سمعان في رحلة عودته. قالت لفريدة:

- سأخذ حماتي والأولاد ونعود إلى بيتنا. واعدريني إن غبت عنك هذه الفترة. لديك ليلي وابنتها تكفيان.

- إن كان هذا يريحك، لكننا سنتابع معك.

توثقت علاقة رفقة بالمرضات ومشرفة الدور، التي عادت للاستفسار عن قصة سمعان، وعندما سمعت اسم أمين عسكر انتابها قلق لم تستطع أن تخفيه فسألته رفقة:

- ماذا بك، بعبع، عسكر هذا؟!!

- أبدأ، تذكّرت شيئاً، لا علاقة له بحكايتك.

لم تقل ما الذي تذكّرت له لكنها نبّهت على المرضات ألا يطعمن سمعان ولا يسقينه من أي طعام أو شراب بالمستشفى. وصارت تسابق رفقة في إحضار الطعام من بيتها. وظلت تلازمه، وتراقب جيداً المرضى الذين يأتونه على مدار اليوم.

انقضت خمسة أيام من الحبس الجديد، دون أن يأتي الطبيب الشرعي. وبدأت رفقة تفكر بمخاوف سهام من نفوذ عسكر. ووقع قلبها تحت قدميها عندما أقبلت في الصباح، ورأت من بداية الممر في الطابق الخامس تجمعاً من الرجال والنساء أمام غرفة سمعان. ألقت بالكيس الذي تحمله، وانطلقت كالسهم. شقت الواقفين بالباب واندفعت إلى الداخل. رأت سمعان واقفاً بين المحتشدين حوله من النساء والرجال، يقبل الواحد منهم ويمسح بيده الموضع الذي يأخذ الزائر بيده إليه. رأس، ذراع، ثدي، بطن. تحاول سهام مع الحارس تنظيم حركتهم، لتمنع تشابك أنابيب القسطرة التي يسحبونها خلفهم كثعابين رفيعة تنتهي بأكياس مليئة بالبول المدمم على البلاط، وكانت حوامل المحاليل تتضارب وتهتز في أعلاها أكياس الدم أو المحلول المتصلة بشرايينهم. بعد انصراف المرضى، قالت رفقة:

- بدأ الفأر يلعب في عبي من تأخر الطبيب.

- سأطلب مكتب مدير المستشفى. مديرة المكتب صديقتي.

أخرجت تليفونها وطلبت صديقتها. أخذت رفقة تتنصت لتسمع ما يمكنها سماعه. أنهت سهام المكالمة وقالت:

- اطمئني، المدير خائف من شعبية سمعان المتزايدة، وتواصل مع كل الجهات لاستعجال الطبيب الشرعي.

رغم ذلك أكمل سمعان أيام الحبس السعيدة، وتحسّنت حالة سامي النفسية، وقد بات يسمع من فريدة نوادره في المستشفى. في النهاية ذهب الطبيب ووقع عليه الكشف وتسلم وكيل النيابة تقريره، الذي انتهى إلى وجود آفة بالعقل تجعل المتهم غير مسؤول عن تصرفاته. وقال سعيد عبد الخالق -انتظار التجديد أفضل من الطعن في الحبس.

في يوم التجديد كانت قاعة المحكمة مكتظة، وكان الكثيرون يشيرون إلى سمعان بقبضات التشجيع. لم يضطر المحاميان إلى الكلام. سأل القاضي وكيل النيابة أولاً، فأجاب بأن النيابة ترى ألا وجه لإقامة الدعوى؛ فانطلق هتاف يحيا العدل يهز القاعة.

صاح صلاح بكل قوته ضاحكاً في أذن سامي:

- خلاص، عرفنا دواء أمين عسكر.

وكان شتاء.

جاء بعد صيف لاهب، استولى على الخريف. وتسلى البرد اللذيذ، وصار كل شيء ممتعاً؛ الأكل والنوم والغزل، والكدح طلباً للدّفء في الأيام الغائمة، وعادت حبات الندى تظهر في الصباح على أوراق البرسيم وأوراق الشجر، وتلمع تحت أول شعاع شمس مثل حبات من فضة. وجاء أول المطر غزيراً استمر ثلاث ليال ونهارين، غسل الشجر، وخلّص أوراق المانجو من الحشرة الخبيثة الملتصقة ببطن الورق. كما طهّر الجنوع من مستعمرات النمل التي سكنت شقوقها في الصيف. ودفع دّفء ما بعد المطر برعشة الحياة في قلب الغصون العارية للعنب والبرقوق والكمثرى وذكّرتها بأن الربيع يقترب، وأخذ الجدي الأبيض الوسيم يتقافز فوق ظهور الماعز، ويرعى بينها دون استكبار.

واندفع سامي إلى أحضان فريدة بكل شغفه القديم، فلم تعد بحاجة لأن تحتال عليه، بل قالت له ضاحكة:

- أصبحت مثل سمعان، عليّ أن أمرك لتستريح!

اندمج في كل أدواره. استعاد بهجة الأبوة، وأخذ يستعجل دُقْدُق ليتكلم، ويتابع دراسة هند وإشراق. يبدأ يومه الممتلئ بتوصيلهما إلى المدرسة. وكانت فريدة قد ألزمتها بالمهمة منذ بدء الدراسة. عندما أرادت أن تشغله عن التركيز في الوجود الثقيل لأمين عسكر. قالت: لم تعد قيادة أبي آمنة. وكان في كلامها الكثير من الحقيقة؛ إذ بدأ العم فهمي يفقد تركيزه في بعض الأوقات ويقترح أفلاماً شاهدها بالأمس. هذه الملازمة للبتنين بدأت تربطهما به، كما جعله التردد على المدرسة يتذكّر صباحه، عندما كان الأطفال يخشون ابتسامته، لكن أطفال مدرسة المساخيط للغات لا يخشونها، مثلما لا يخشاها أمين عسكر سواءً بسواء.

لكنه يخشى عصا سمعان!

توسعت ابتسامته إذ انتبه إلى أن أمين لم يعد يظهر مترجلاً على المدق. لكنه موجود بأعماله؛ صوت التلاوة العالي، عربات النقل التي تبدأ ضجتها بعد منتصف الليل، زحفه على أرض الورثة قطعة وراء قطعة، أعمال الهدم والبناء المتواصلة. وقد شرع هذه الأيام في هدم السور، لتوسعته وضم مساحة جديدة بداخله. أحس سامي بالغبطة لهذا الهدم لأن كلب أمين الذي كان يسمعه من خلف السور تحرر، وأصبح يمضي خلفه مع كلاب أبناء ناجي. أضحكه غضب أمين على الكلب،

ومناداته الدائمة له باسمه الأجنبي ليعود، كأنه يُذَكِّرُه بأنه ليس من طينة الكلاب التي تتبع سامي، هنا وهناك. لكن الكلب لا يستجيب لنداءاته. وعندما اكتمل بناء السور الجديد عاد الكلب إلى محبسه، يعوي من خلف السور ليخرج، ويظل يخمش البوابة كلما شمَّ رائحة سامي أو سمع صوته. انقطعت ريهام زوجة أمين عن الاتصال تمامًا، وكانت فريدة تأمل أن تأتي هي أو أي من زوجاته لتسكن الفيلا ويضطر إلى تخفيض صوت مكبر الصوت، لكن ذلك لم يحدث، ولم تُصبح الفيلا بيتًا للعمال كما ادعى في طلب الترخيص، بل استراحة خاصة له، يأتي متسللاً مع امرأة أو صاخبًا وسط موكب من سيارات ضيوفه.

قال فهمي:

- لا حل سوى أن نعطيه ظهرنا، ولا نفكر في ضوضائه. السرايا واسعة.

استدارت السرايا وجعلت الفيلا القافزة على المدق خلف ظهرها. استغنت الأسرة عن الإطالة الأمامية. واقتراح فهمي تعديلات في ديكور الفرندا وتعريشة العنب فوقها لتبدو في أفضل حال، حيث يمتد البستان في هذه الجهة وتقل ضوضاء الراديو. لكنهم بدأوا يميّزون تحت ضوضاء الإذاعة الثابتة، أصوات ماكينات وصاروخ لحام تنطلق بعد منتصف الليل داخل مستوطنة أمين عسكر. كان كامل أول من فتح الكلام بشأن تلك الأصوات. في ليلة غاب فيها القمر، وبدت النجوم ضئيلة كرؤوس مسامير، كانوا يجلسون دون إضاءة سوى جمر الموقد أمامهم؛ فبدت الأصوات أقرب وأوضح.

قال كامل:

- هناك صوت لم أسمع من قبل؟

قال فهمي:

- نسمعه منذ مدة، في ليالٍ متفرقة. ربما يُصنِّع أقفاص دجاج أو شيء من هذا القبيل.

قال كامل:

- أقطع ذراعي إن لم يكن هذا المستوطن يُصنِّع أسلحة!

قال سامي:

- جعلتموني أنسى اسمه الأصلي، هل أنت الذي أطلقته عليه أم عمي صلاح؟

- طبعًا أنا، من يكون عمك صلاح لينحت نحنا كهذا؟!!

ثم همس:

- فاتحت عمك؟

تحير سامي، وأجابه بسؤال:

- فاتحته في ماذا؟

- في عودة نعمة لأدم؟

- ألم تقل إنه ارتبط؟

- نعم، ثم مررت نعوم من أمامه، فصرف النظر عن خطيبته.

- ألم تشجعه أنت على فك الخطبة؟

- أبدأ. الولد متعلق بنعوم. لكنه لا يتكلم. ولا أخفيك أنني لا أريدها أن تذهب إلى بيت غير بيتنا.

بالأمس استيقظت على وقع خطوها على البلاط، ثم أدركت أنه كان وهمًا.

بدا راغبًا في مزيد من الكلام، لكن سامي لم يكن على استعداد لأن يمنحه أذنًا.

وتدعمت علاقات سامي بالأخوة الذين لم يكن يعيرهم انتباهًا من قبل. وأصبح يتمنى أن يعود الزمن إلى الوراء وألا يكونوا قد باعوا ما باعوه، وأن يعودوا جيرانه على امتداد المدق وأن تعود أرضهم بستانًا أخضر، لكن ودهم جعله أكثر ارتياحًا. يتذكر حديثه مع أم الغلام فيتأمل مصطفى، وعلى طرف لسانه سؤال لا يقال:

- هل يكون عمك؟

الأقرب إليه بين الجميع هو سمعان. أخذ يُنظّم له أوقات راحته، ويراقبه ليتعلم منه كيف يسمع الشجر، واكتشف أن كلامه دقيق عن الأشجار التي تتوجع من النمل أو نقر العصافير لثمارها، كما رأى صدق نبوءاته عن الأشجار المقبلة على الموت، إذ يكتشف أن الشجرة التي يشير إليها لا تلبث أن تمضي إلى الهزال وتساقط الأوراق. وأصبح يوسعه أن يحل محله في العمل عندما يتغيب بسبب تكس طالب الشفاء أمام بيته، أو عندما يأتون إلى البستان، يتركه معهم ويمضي وراء القطيع. ويزداد ابتسامه عندما يخلط الزائرون بينهما، وأحيانًا ما يندمج في دوره؛ فيلمس هذا ويغمغم على رأس تلك. قالت له فريدة:

- هذا نصب واحتيال!

بعد هذه الملاحظة، حاول أن ينبه أحدهم إلى أنه ليس سمعان، قال الرجل:

- لا يهم. رسولنا الكريم قال اطلبوا حوائجكم عند حسان الوجوه.

جعلته هذه الألفة أقدر على تحمل أذى طرف وحيد. ولم يتردد في موافقة سعيد عبد الخالق على

تقديم محضر إزعاج ضد عسكر. ذهب إلى النقطة. لكن الضابط شريف بدا محرّجًا:

- لا أعرف ماذا أقول لك. لديك الحق، لكنك لا تعرف كيف ستكون صورتك وصورتني في التل، سينسون الإزعاج ويقولون إنك تشكو من تلاوة القرآن. لم يحرر الضابط المحضر، ولم يشعر سامي بالإحباط، سعيدًا بأنه ذهب إلى النقطة شاكيًا هذه المرة. وبدأ يرثي لحال العمال الذين يعيشون تحت مكبر الصوت مباشرة.

وأخذت قضايا المياه والحدود تتعقد؛ فاستأنف المحامي دورانه المكوكي بين المكاتب، دون أن يبأس أو يفقد عزيمته. كلما وجد نفسه بلا تكليف آخر في مكتب محمد لطيف، يأتي. يجذبه غموض سرايب شركة المياه ومكاتب مديريها مثلما جذبته في البداية عينا سلوى. وبدأ مستمتعًا بمحاولات حل الألغاز.

يقول ضاحكًا:

- التفاصيل، مسلية جدًا، بصرف النظر عن النتيجة!

يتوجه من القاهرة إلى شركة المياه أو النيابة أو المحكمة، ويعود إلى السرايا يمكث ساعة أو ساعتين ثم ينصرف. وأحيانًا يأتي مساءً ليبيت ويبدأ في الصباح مبكرًا. يحكي في السهرة عن الخيوط التي يجمعها، وصفقات المقايضة التي يعقدها لسحب شكوى يمكن أن تخرب بيوت الموظفين مقابل تخفيض المطالبة الجزافية لاستهلاك السرايا والمعلف من المياه، ثم تنويم المطالبة المخفضة في الأرشيف.

رئيس الشركة في سراب الذي وعده بتوفيق أوضاع السرايا، اقتيد من مكتبه متلبسًا برشوة. وتم تعيين مدير جديد، وعاد محصل من شركة المياه بالمطالبتين إلى السرايا في صيغتهما الأولى الكبيرة. ولم يبأس سعيد عبد الخالق؛ سأرفع الأمر لرئيس الشركة القابضة لمدن البحر والصحراء الثلاث.

وسافر إلى مدينة مسك الغزال، الأكبر بين المدن الثلاث حيث مقر الشركة القابضة، حمل إلى رئيسها مذكرته عن سرقة ملف السرايا، وصورة من المطالبة المجحفة. ووعد الرجل خيرًا، لكن حدث الشيء نفسه. لم يمض في المسار شهرًا، حتى أقيل رئيس الشركة القابضة للمنطقة، فقال لسامي:

- لم يعد أمامك سوى الرئيس العام للشركة. وهذه المهمة على الله وعلى محمد بيه لطيف.

أثمر اتصال المحامي الكبير برئيس الشركة نتيجة فورية. تلقى سامي اتصالًا من محام بمكتب الرجل، استمع منه بهدوء إلى كل التفاصيل، وتواعد معه على اللقاء في الإدارة القانونية للشركة

القابضة في مسك الغزال:

- لا تخبر أحدًا. سنفاجئهم. الرئيس يستحلف لإدارة هذه المنطقة. يعرف بكل فسادهم.

ذهب سامي في الموعد مع سعيد عبد الخالق هذه المرة. وكان هاني في انتظارهما كما وعد. بدا المحامي الأسمر النحيف شديد الذكاء، وذا سلطة تفوق سنه الصغيرة، ورأى سامي القلق في عيون المحامين كبار السن. أخذ هاني يراجع المذكرات معهما، ثم اصطحبهما إلى مكتب الرئيس. وطلب منه تشكيل لجنة للبحث في اختفاء ملف السرايا، والتحفظ على ملف أمين عسكر. وأمهله أسبوعين:

- الرئيس مهتم جدًا بهذه القضية.

عاد سامي مُعجبًا بقوة شخصية المحامي الشاب وهيبته، قال سعيد:

- مراسلة اللواء لواء. لو نُقل هاني إلى إدارة مسك الغزال، سيقف في آخر الصف، وسيكون آخر من يبدي رأيه.

لم يأتِ هاني على الموعد، حيث ظهرت أخبار انتشار وباء كوفيد19 في القاهرة بعد طول تكتم. وأجرى سامي مكالمتين متباعدتين معه لتذكيره. كان يَعد خيرًا:

- بعد أن نعرف رأسنا من رجلنا مع هذا الوباء.

لكنه لم يرد في المرة الثالثة، وظهرت في الصحف أخبار تنحية الرئيس العام بسبب قضية اختلاس كبرى. قال سعيد:

- لم يعد هناك من طريق سوى «الشغل الوسخ».

قال سامي:

- لا أريد سوى القانون.

- شوف يا سامي. أنا تعلمت القانون في الكلية. وتعلمت الشغل الوسخ في المحاكم وبين مكاتب الحكومة. وأعرف ما أستخدمه منهما حسب كل حالة.

- وما الشغل الوسخ في حالتنا؟

- اتفقت مع رئيس فرع سراب أن يتعامى عن كل ما فات. سنتقدم له بطلب جديد لتوصيل المياه، وسيوافق عليه، وكأنه لا يعلم عن الماضي شيئًا. وهذا طبيعي؛ فالرجل جديد.

- والقضايا؟

- سيتحسن موقفنا فيها بعد أن يصبح لدينا ملف وعداد مياه.

- وإذا ما أبلغ عنا المستوطن؟

- لا تقلق. هو مشغول بالتوسع، ومهما كان مسنودًا، فإنه بحاجة إلى الهدوء في هذه المرحلة.

لم يُصِدِّق سامي نفسه عندما أمسك بيده قسائم الدفع ونسخة من التعاقد على المياه، وعندما جاء العُمَّال بعددًا جديد. وأحس بالرضى بالخطوة التي تدعّم وجود السرايا.

وبدأت بشائر الربيع بهففات الورق الغض للكرمة. وتعطّر الجو بزهر البرتقال واليوسفي والليمون، وبدأ طنين النحل المبتهج الذي نادته الزهور. وعاد الوروار يرفرف ملوحًا لهند كل صباح، وتفجر الحمار بالشهوة نهيقًا، وإشهارًا لبرهان الرغبة المتصلب الذي صارت رؤيته محرجة لفريدة. عندما رآته أول مرة أخفت وجهها وأخذت تضحك، بينما تقول لرفقة:

- هذا جذع شجرة وليس مجرد غصن.

ردّت رفقة:

- حصل عليه بتوصية!

بدأت فريدة تعاني أعراض حمل، قبل عيد الميلاد الثاني لسالم فرأت أن يقتصر الاحتفال على النساء، دعت صديقاتها دون أزواجهن، وتولت رفقة وليلى ومريم ونعمة الاستعدادات. احتج سامي؛ فقالت ضاحكة:

- دُقدق باشا نوتي كأبيه، لا يريد إلا صحبة النساء!

في تلك الليلة حلم سامي بالغندور. رأى من شباك غرفته رجلًا وسيماً يرتدي بدلة أنيقة، له طلة عمر الشريف في شبابه، وكان يدرك تمامًا أنه الغندور، وكأنه رآه من قبل مرارًا. ترك الشُّبَّاك، وهروا نازلًا لاستقباله، وعندما خرج لم يجده، أخذ يتطلع هنا وهناك، فرآه قد عاد جديًا يرعى العشب بشراهة، ولم يرفع رأسه إلا بعد أن صارت الأفدنة الخمسة سوداء بلا عشبة واحدة، ثم تلقت يمينًا ويسارًا مضيئًا عينيته بنظرتة الساخرة ذاتها، وشرع في التهام الأشجار واحدة بعد أخرى.

عندما استيقظ، أراد أن يحكي الحلم لفريدة، لكنه وجد نفسه وحيدًا في الفراش. كانت في الأسفل مع رفقة وليلى ومريم ونعمة. وصلت الضيفات عند العصر، وانتشرن في طابقي السرايا إلى ما بعد العشاء. وجلس سامي وحموه وعمه صلاح وكامل وسمعان في الفرندا، تحمل إليهم إحدى النساء شيئًا من طعام أو شراب الحفل بين وقت وآخر. وجاء عبد السلام قبل أن ينتهي الحفل يستعجل زوجته. وقف على سلم الفرندا يمسح قدمًا بقدم، قال صلاح:

- لا يوجد سجاد؛ فلا تلخ رجلك.

بدا الحرج على عبد السلام كأنه اكتشف حفاءه في هذه اللحظة. حيا وتقدم وجلس على طرف

الكرسي، أحس سامي بالشفقة عليه. وقال له كامل:

- كلما مررت بدكانك أجدّه مغلقاً، ماذا حدث؟
 - الحالة نائمة. لا يربح حتى إيجاره.
 - هل تبقى لكم شيء من الأرض؟
 - أنا خُصت. وتبقت ستة قراريط لمصطفى وخمسة لهارون.
- قال صلاح:

- بعد ما فعله معكم، لا تبعون إلا له.
 - للأسف، تكومت علينا الديون، ولا زبون غيره.
- قال فهمي:

- لماذا؟ هل انتهت موضة الزراعة؟
 - لا أبداً. عسكر واقف حال الأرض. يراقب بالكاميرات. مرة جاء زبون لهارون. في لحظة نط ووقف بينهما. وقال للزبون: لا أحد يشتري هنا غيري.
- انفعل كامل وقال:

- أخذكم رهائن، وأنتم بأولادكم جيش كامل العدد.
 - هل تشتري القطعة الباقية لمصطفى وهارون يا عديلي؟
 - أنا؟! ما حاجتي إليها؟
- قال الحافي:

- هربت؟! لا يوجد عاقل يدفع فلوسه ليشتري مشكلة. أي زبون يسمع كلمة منه في وجودنا أو غيابنا، يذهب بلا رجعة.
- قال سامي:

- باختصار، استسلمتم؟!!
- ما باليد حيلة. ركب الأرض.

- يكفي أننا معًا: رواية / طبعة أولى 2017 طبعة ثالثة 2018
- ما رآه سامي يعقوب: رواية/ طبعة أولى 2019
- غرفة المسافرين: كتاب/ طبعة أولى 2020 طبعة سابعة 2023
- غربة المنازل: رواية/ طبعة أولى 2021 طبعة رابعة 2022
- الأيك في المباهج والأحزان: كتاب/ طبعة أولى وثانية 2022
- بيت الديب: رواية/ طبعة أولى وثانية 2024
- الطاهي يقتل الكاتب ينتحر: كتاب طبعة أولى وثانية 2023.